تاريخ نشأة وتطور الغلاف الحيوي Biosphere

الدكتور محمد محمود سليمان

قسم الجغرافية ـ جامعة دمشق

تاريخ نشأة وتطور الغلاف الحيوي Biosphere

مدخل:

أصبحت واضحة تلك العلاقة الوثيقة والمتبادلة بين الإنسان والوسط الحيوي، الذي يعدّ الإنسان أهم جزء فيه، وهذا يعني وثوق العلاقة بين تاريخ الإنسان في إطاره الزمـاني والمكاني وبين تاريخ الوسط الحيوي الذي نشأ وتطور فيه. وهذا البحث يأتي في إطار التأكيد على هذه الفكرة وانطلاقاً منها. إضافة إلى ذلك، فإن دراسـة تـاريخ كوكـب الأرض ونشأة وتطور الحياة عليه تعطينا فكرة عن التغيرات التي تعرض لـها هـذا الكوكب، وعن الأخطار والكوارث التي عصفت به، ومعرفة زمان ومكـان وأسـباب حدوثها، وتعطينا بالتالي فكرة عن الحياة المعاصرة وعن مستقبل هذه الحياة.

والغلاف الحيوي بشكل عام هو كل مكان توجد فيه أية أشكال للحيـاة مـهما كـانت بسيطة، وهو بالنتيجة يشغل حيزاً يسيراً جداً في الفراغ الكوني، بينما يشـكل الكـون (نظاماً كونياً) ليس له حدود أو نهاية في الزمان والمكان، كما أن عمر وحجم الكـون خارج إدراك الإنسان العادي، وهذا النظام الكوني اللامتناهي يضم نحو مائـة مليـار مجرة، وفي كل مجرة نحو مائة مليار نجم، أي أنه يوجد في المجرات نحـو عشـرة مليارات تريليون من النجوم[١]. وفي مجرتنا المسماة الطريق اللبني أو درب اللبانـة (the milky way)، يوجد نحو ٢٠٠ مليار نجم تتحرك في تناسـق معقـد ومنتظـم. وبحسب التقديرات العلمية المعاصرة فإن قطر الكون يبلـغ نحـو ٢٦ مليـار سـنة ضوئية*، وهو يتعرض للتوسع والإنضغاط منذ فترة موغلة في القدم تقدر بحوالي ٨٢

---

* السنة الضوئية هي المسافة التي يقطعها الضوء في سنة بسرعة تعادل ٢٩٩,٧٩٢ كم في الثانيـة، أي أن السنة الضوئية تعادل ٩٤٦١.

مليار سنة[٢]. وفي هذه الفترة كان يحدث بعض الانفجارات الكونية إلى أن حدث ما يسمى بالانفجار الكبير الأخير (the big bang) منذ نحو ٢٠-١٥ مليار سنة.

وفي بداية نشأة الكون، لم يكن هناك وجود للمجرات والنجوم والكواكب، بل كان الكون عبارة عن كرة نارية مشعة تملأ الفضاء كله، وبنتيجة الضغط والانكماش والدوران المستمر الذي حدث قبل نحو ٤,٦ مليار سنة تشكل في الفراغ الكوني بين النجوم سحابة غازية غبارية ضخمة، أخذت هذه السحابة تنكمش وتنضغط وتدور، وكان الدوران الرئيسي يتجه نحو المركز، وشيئاً فشيئاً كوّن المركز الرئيسي لباً عظيماً، وكوّنت الدوامات المحيطة لبا أصغر، وقد كوّن اللب الأكبر الشمس، وتحول كل لب صغير إلى كوكب[٣]. أي أن السحابة الغازية والغبارية الكونية شكّلت نتيجة الضغط والدوران قرصاً، وفي مركز القرص حدثت تفاعلات نووية كونت الشمس، ومن جزيئات الغبار المحيطة وبنتيجة التكاثف تكّونت الكواكب والأقمار التابعة لها بما في ذلك كوكب الأرض. وتصل أبعاد مجرتنا الطريق اللبني إلى نحو ١٠٠ ألف سنة ضوئية بمقياس طولي و١٠ آلاف سنة ضوئية بمقياس عرضي، وتشغل المجموعة الشمسية منطقة صغيرة جداً في هذه المجرة، بينما لا تشغل الكرة الأرضية سوى ذرة صغيرة جداً فيها.

ويعود عمر أقدم الصخور الأرضية إلى نحو ٤,٦ مليار سنة، ومنذ ذلك الوقت بدأ نشوء الحياة على الأرض، وكان هذا الكوكب غنياً بالجزيئات والمكونات المجهرية الحية القادرة على التكاثر، ويمكن التأكيد من خلال ما قدمه علم الأحافير (fossil) من دلائل، أنه ومنذ حوالي ٣,٥ مليار سنة مضت، بدأ ظهور الحياة على الأرض، وبدأ تطور الوسط الحيوي، والجدول رقم ١ يوضح هذا التطور. ورغم غموض العمليات التي أدّت إلى نشوء المادة الحية من المادة غير الحية، فإنه يمكن القول: إن الجزيئات الحية الأولية التي نشأت في وسط خال من الأكسجين أدت إلى نشوء المتعضيات البدائية organism. وعموماً فإن السجل المستحاثي المحفوظ عن الحياة في فترة ما

قبل الكامبري Precambrian نادر، ولكنه يزداد وفرة بعد الدور الكامبري Cambrian الذي بدأ منذ حوالي ٦٠٠ مليون سنة خلت، حيث تراجعت سيطرة الطحالب على الأرض ليحل محلها أشكال جديدة من الحياة، ويعرف هذا الحدث بانفجار كامبريان. وبعد هذا الحدث أصبحت الظروف البيئية مناسبة. وتتالى ظهور الأنواع الحية بسرعة مذهلة قياساً لما كان قبل هذا الحدث، وأصبحت المحيطات تزخر بالكثير من مختلف أشكال الحياة، مثل النباتات المائية البحرية والمتعضيات وثلاثيات الفصوص trilobite، وقد انقرض هذا الأخير منذ نحو ٢٠٠ مليون سنة.

وفي المرحلة التالية ظهرت أولى الأسماك وأولى الحيوانات الفقارية، وغزت النباتات اليابسة، ثم ظهرت النباتات عارية البذور وظهرت البرمائيات والأسماك ذات التنفسيين (السمك الرئوي). وفي أواخر الزمن الجيولوجي الأول paleozoic حدث انقراض للكثير من الأنواع النباتية والحيوانية، ونمت وتطورت الزواحف الكبيرة والحشرات. وفي الحقب الجيولوجي الثاني Mesozoic، الذي يسمى أحياناً بحقب الزواحف، ظهرت أولى الديناصورات وانتشرت الحشرات السامة وأسلاف الطيور وأولى أشكال الطيور الحالية والثدييات، وانقرضت الديناصورات في أواخر هذا الحقب. أما الحقب الثالث cenozoic يسمى بحقب الحياة الحديثة، ويعد بحق حقب الثدييات، ففيه انتشرت الحيوانات الوحشية والحيوانات ذات الحوافر والثدييات، وحدث تطور كبير للنباتات الزهرية والغابات ودخلت الثدييات مرحلة الذروة بظهور الرئيسات primates التي تعد أجداد القردة والسعادين. ثم حدث انقراض للكثير من أنواع النباتات والثدييات[٤] وفي المرحلة الأولى من الزمن الجيولوجي الرابع pleistocene الذي يرجع تاريخه إلى نحو ثلاثة ملايين سنة ظهر الإنسان البدائي، ومنذ حوالي ١٠٠ ألف سنة ظهر الإنسان العاقل الحديث[٥]، وفي العصر الحديث Holocene ظهر الإنسان العاقل homo sapiens منذ نحو ١٥ ألف سنة وأدى ذلك إلى ولادة المجتمع البشري[٦]. والشكل رقم ١ يبين تطور الحياة منذ الكامبري وحتى الوقت الحاضر.

حوادث الانقراض التي تعرضت لها الكائنات الحية عبر الزمن:

استمر التطور الحيوي وئيداً على مر الزمن وكان يتسارع أحياناً ويتباطأ أحياناً أخرى، وقد تعرض هذا التطور للعديد من حوادث الانقراض، بعضها ذو طابع شديد وكارثي. وقد وقعت خمس حوادث انقراض جسيمة حتى الآن، وقد حدثت على التوالي في العصور التالية: الاردوفيشي، الديفوني، البرمي، الترياسي، الكريتاسي. وقد اضمحل عدد فصائل الكائنات الحية بمقدار ١٢ و١٤ و٥٢ و١٢ و١١ مرة على التوالي. وأهم حوادث الانقراض Extinction هذه تلك التي حدثت في نهاية العصر البرمي منذ ما يقارب ٢٤٠ مليون سنة، وأدت هذه الحادثة إلى انقراض حوالي ٨٠-٩٠% من مجموع الأنواع الحية البحرية[٧]. وقد سببت هذه الكارثة هلاكاً مذهلاً للكائنات الحية ولذلك دعاها العلماء ب (أم كوارث الانقراضات الجماعية)[٨]. ومن بين المجموعات الهامة التي انقرضت في فترة التغير المفاجئ البرمي - الترياسي ثلاثيات الفصوص والبريويات الحيوانية وعضديات الأرجل والزنبقيات التي كانت مسيطرة في الحقب الأول، ويشكل هذا التغير المفاجئ أهم حدث في تاريخ الحيوانات اللافقارية. إضافة لذلك فقد حصلت حوادث انقراض صغيرة أثرت على هذه الحيوانات في نهاية الترياسي وبصورة خاصة على رأسيات الأرجل من ذوات الأصداف التي كان لها تاريخ تطوري مثير خلال الحقبين الأول والثاني[٩].

وآخر حوادث الانقراض الكبيرة تلك الحادثة التي حدثت في نهاية الكريتاسي والتي أدت إلى انقراض الزواحف العملاقة المعروفة بالديناصورات. وهذا الانقراض شكّل فراغاً على سطح اليابسة أدى إلى تهيئة الظروف لسيطرة الثدييات الكبيرة خلال الحقب الثالث، وفي نهاية المطاف إلى ظهور النوع البشري منذ نحو ٢,٥ مليون سنة[١٠].

أسباب حوادث الانقراض التي تعرضت لها الكائنات الحية على كوكب الأرض:

أدّت حوادث الانقراض التي تعرضت لها الكائنات الحية في بعض العصور الجيولوجية إلى اختفاء الكثير من الكائنات، كما هو الحال في انقراض الحيوانات ثلاثيات الفصوص وانقراض الكثير من النباتات والحيوانات، بما في ذلك انقراض الديناصورات والكائنات الضخمة البرية والمائية والطائرة، التي كانت أحجامها تبهر الخيال. ففي عام ١٩٧٢م، اكتشف في ولاية تكساس في الولايات المتحدة الأمريكية هيكل عظمي لأحد الزواحف المجنحة (بتروداكتيلات)، وقدّر العلماء أن طول جناحه يبلغ ١٥,٥متر، وأكثر الحيوانات غرابة كان الطاغية (تيريانوسورس) بطول أكثر من ١٥ متر، وكان بضربة واحدة من أسنانه المخيفة يستطيع شق بطن الفيل ويستطيع بهذه الأسنان حمل وحيد القرن الكبير[١١]. وقد انقرضت هذه الديناصورات الضخمة كما انقرض الكثير من الأنواع الحيوانية والنباتية الأخرى عبر العصور القديمة، وحتى الآن لايوجد اتفاق حول الأسباب التي أدت إلى حوادث الانقراض هذه. فالبعض يرى أن هذا الاختفاء حدث بالتدريج خلال ملايين السنين، وأنه حدث تبدّل أو تغيّر لهذه الكائنات العملاقة وتحوّلت إلى كائنات أصغر شيئاً فشيئاً.

وأنه يوجد الآن نماذج مصغرة لهذه الكائنات كما هو الحال في دركون كومودو Varanidac الذي يعيش في جزر كومودو في المحيط الهندي. وعلى سواحل نيوزلندة يعيش نوع من الحيوانات Sphenodon Punetatus ويسمى بالمستحاثات الحية، ويعد أحد النماذج الممثلة للزواحف.

الجدول رقم ١: يوضح تطور الحياة على الأرض في التاريخ الجيولوجي

اسم الحقب	الفترة	مليون سنة		تطور الحياة
		البداية والنهاية	مدة الاستمرار	
الارشيوزوي (الحقب القديم)	مبكر	قبل ٣٥٠٠	١٠٠٠-١٥٠٠	الكائنات الأولية التي وجدت في جو خال من الأكسجين
	متأخر	٣٥٠٠- ٢٦٠٠	٩٠٠	بسائط حيوية وحيدة الخلية مؤهلة للقيام بالتركيب الضوئي وتثبيت الآزوت
البروتيروزوي حقب الحياة المبكرة	الأسفل	٢٦٠٠-١٩٠٠	٧٠٠	ظهور كائنات متعددة الخلايا، وانتشار البكتريا والفطور والنباتات المائية بشكل كبير
	الأوسط	١٩٠٠-١٦٠٠	٣٠٠	
	الأعلى	١٦٠٠-٥٧٠	١٠٣٠	
الباليوزوي (الحقب الأول)	الكامبري	٥٧٠-٥٠٠	٧٠	ظهور وانتشار واسع للحيوانات اللافقارية البحرية
	الأوردفيشي	٥٠٠-٤٤٠	٦٠	ظهور وانتشار النباتات الأرضية الدنيا، وظهور وانتشار الحيوانات اللافقارية على اليابسة
	السيلوري	٤٤٠-٤١٠	٣٠	ازدهار الحيوانات اللافقارية البحرية
	الديفوني	٤١٠-٣٥٠	٦٠	ظهور النباتات الوعائية على اليابسة، ظهور الحشرات وأولى الحيوانات الفقارية
	الكاربوني	٣٥٠-٢٨٥	٦٥	ازدهار الأشجار والنباتات الضخمة دائمة الخضرة وعريضة الأوراق، وتزايد الحيوانات البرمائية بكثرة وتكون مستحاثات الفحم الحشري
	البرمي	٢٨٥-٢٣٠	٥٥	استمرار تطور النباتات عارية البذور، موت النباتات عريضة الأوراق، ظهور الزواحف العملاقة
الميزوزوي (الحقب الثاني)	الترياسي	٢٣٠-١٩٥	٣٥	استمرار ازدهار النباتات عارية البذور، الانتشار الواسع للزواحف العملاقة
	الجوراسي	١٩٥-١٣٧	٥٨	استمرار ازدهار النباتات عارية البذور، ظهور الأسلاف المباشرة للطيور
	الكريتاسي	١٣٧-٦٧	٧٠	ظهور النباتات مغطاة البذور، انقراض الزواحف العملاقة، استمرار طمر المزيد من الحمض الكربونية على شكل كربونات الكالسيوم
الكينوزوي (الحقب الثالث)	الباليوجين	٦٧-٢٥	٤٢	ازدهار النباتات مغطاة البذور، ظهور وتطور الطيور والثدييات
	النيوجين	٢٥-٣٠	٢٢	تطور العالم النباتي والحيواني المعاصر، ظهور الأسلاف المباشرة للإنسان المعاصر
الحقب الرابع	الانتروبوكي البشري المصطنع	٣-٠	٣	تطور البشرية، ظهور الإنسان العاقل

ويحاول العلماء تفهم وإيضاح الأسباب التي ساعدت هذا الحيوان في مقاومة الانقراض في الزمن القديم. وفي المحيط الأطلنطي تم العثور على عدد من نماذج الأسماك التي كانت تعيش في الدور الديفوني، وفي عام ١٩٨٤م حصل الصيادون اليابانيون على أنواع من الأسماك يقدر أنها انقرضت منذ حوالي ٦٠ مليون سنة خلت(١٢).

ويرى آخرون أن حوادث الانقراض سببها التغيرات التي طرأت على تركيز الأكسجين الجوي، أو زيادة شدة الإشعاع الوارد من الفضاء، أو ظهور متعضيات ممرضة، أو زيادة أو نقصان العناصر الأثيرية في مياه البحر، أو تغيرات المناخ(١٣).

ومن الفرضيات الأخرى التي تطرح لتفسير حدوث الانقراض، فرضية ثوران البراكين، التي أدت إلى حدوث تغيرات مفاجئة لم تستطع الكائنات الحية التأقلم معها أو مقاومتها(١٤). وفي الفترة الأخيرة، لاقت فرضية التصادم رواجاً كبيراً. وترى هذه الفرضية أنه كثيراً ما كان يحدث خلال مليارات السنين المنصرمة أن يصطدم كويكب أو مذنب بالأرض بسرعة تزيد أحياناً بمقدار خمسين مرة عن سرعة الصوت، ويؤدي إلى دفع الحطام الصخري وتبخر آلاف الأطنان من الصخور الصلبة، وإحداث فوهة بعرض عدة كيلو مترات، وتحرير طاقة تعادل الطاقة التي يحررها انفجار أكبر القنابل النووية أو حتى جميع الترسانة النووية المعاصرة. ومما لا شك فيه أن مثل هذا التصادم ينعكس تأثيره على مسار التاريخ الجيولوجي والحيوي ككل، وقد أدّى إلى حدوث الانقراضات الجماعية للكائنات الحية، وتم حتى الآن اكتشاف أكثر من ١٢٠ فوهة تصادم يتراوح عمرها من بضعة آلاف من السنين إلى ما يقارب ملياري سنة(١٥). ومن حوادث التصادم المعروفة سقوط نيزك حديدي فوق صحراء أريزونا بالولايات المتحدة الأمريكية قبل نحو ٣٠ ألف سنة، وحدوث اصطدام وحريق فوق سيبيرية الوسطى في شرق روسية عام ١٩٠٨م، وسقوط نيزك صغير في ضواحي مدينة أصفهان الإيرانية عام ١٩٩٣م. والحقيقة أنه لولا وجود الغلاف الجوي الحالي المحيط بالكرة الأرضية، لكانت الشظايا والنيازك الفضائية المختلفة الأحجام تتساقط

على سطح الأرض كما تتساقط الأمطار نفسها[١٦]. ويرفض عالم الأحافير الفرنسي ليونار جينسبرغ نظرية التصادم هذه ويرى إن سبب الانقراض هو الانخفاض التدريجي لمستوى سطح البحار التي كانت تغطي معظم أوروبة وكل شمال أفريقية والصحراء الكبرى والشرق الأوسط ومساحة كبيرة من شمال غرب أمريكة الجنوبية، وتراجع مياه البحار هذا أدى إلى انقراض نحو ٨٠% من الكائنات الحية[١٧]. وإذا كانت أياً من هذه الفرضيات لم تحصل على اتفاق تام بشأنها فإن السؤال المطروح ما الذي سبب بالفعل حوادث الانقراض؟ إن الإجابة عن هذا السؤال لا تزال صعبة وأسباب حوادث الانقراض غير مؤكدة، ومن خلال ما ذكرناه أعلاه تصل إلى نتيجة مفادها أن هذه الحوادث سببها تغيرات معينة في العوامل والظروف البيئية التي كانت سائدة أدت إلى عجز الكائنات الحية عن متابعة حياتها واستمرار تطورها وتعرضها للموت والانقراض.

تهديد الوسط الحيوي المعاصر:

لقد تغيرت أشكال الحياة على الأرض بشكل كبير لعدة مرات خلال ٦٠٠مليون سنة الأخيرة. وتدل دراسة بقايا المستحاثات (الأحافير) أنه انقرض من على وجه كرتنا الأرضية أثناء فترات الموت الجماعي الكثير من الكائنات الحية، وقد جرت محاولات عديدة لتفسير أسباب هذا الانقراض. ورغم اختلاف وجهات النظر في ذلك، فإن العلماء متفقون على أن الانقراض الجماعي للأنواع حدثٌ نادر، ولم يتكرر في تاريخ البشرية المعروف، وقد مضى نحو ١٤ مليون سنة بعد الموت الجماعي الأخير للكائنات الحية البحرية، حتى أن آخر حادثة من حوادث الانقراض هذه والتي اختفت فيها بعض الثدييات Mammalia يفصلها آلاف السنين عن لحظة ظهور الحضارة. ولكن في الوقت الحالي، فإن الأرض تقع من جديد على حافة انقراض جماعية واسعة المدى (كونية)، ولكنها هذه المرة ناتجة عن نشاطات الإنسان وتأثيراته المختلفة[١٨].

ومما لاشك فيه أن هذا الوضع يشكل خطراً على مستقبل النوع البشري نفسه، بخاصة إن الإنسان استطاع في الفترة الأخيرة تغيير الوسط الحيوي والتأثير على تنوعه الذي تكوّن خلال ملايين السنين، فقضى على نحو ٦٠ ألف نوعاً نباتياً و٦ آلاف نوعاً حيوانياً، وتسبب في انقراض الكثير من أنواع الكائنات الحية الدقيقة، وفي تقليص مساحة الغابات إلى النصف. وحسب معطيات المنظمة الدولية لحماية البيئة Unep، فإن الانقراض يهدد الآن نحو ألف نوع من الطيور والحيوانات، ونحو ٢٥ ألف نوع من النباتات(١٩). وهكذا فإن التنوع الحيوي يعد الآن مهدداً بكارثة محتملة، إذا لم يتدخل العقل البشري الموجه لتحقيق الانسجام بين الإنسان وبين الوسط الذي يعيش فيه.

تهديد الوسط الحيوي في سورية والوطن العربي:

يملك الوطن العربي مدخراً وراثياً من التنوع الإحيائي النباتي والحيواني، سواء فوق اليابسة أو في المياه، وتتنوع أشكال هذا العالم الحيوي بما تضمه من أشجار وشجيرات ونباتات وثدييات وزواحف وأحياء بحرية وبرمائيات وكائنات دقيقة وغيرها، وينتشر هذا التنوع الحيوي الكبير في بيئات متنوعة مدارية وشبه مدارية ومعتدلة سهلية وجبلية وصحراوية. غير أنه وبسبب زيادة الضغط على هذه البيئات، وزيادة الرعي الجائر والاحتطاب وقطع وحرق أشجار الغابات، وزيادة حت وتعرية التربة والتوسع العمراني العشوائي وزحف الصحراء وزيادة تلوث الهواء والماء، والتربة، والاستغلال غير الرشيد وغير المنظم للموارد الطبيعية، أضف إلى ذلك التغيرات المناخية وسيادة الجفاف لفترات طويلة إلخ..فإن الوطن العربي بكافة أقطاره يعاني من تراجع الزخر الجيني وتناقص عدد الأنواع النباتية والحيوانية فيه. وقد أدت هذه التأثيرات السلبية والناجمة بشكل رئيسي عن زيادة عدد السكان والجهل بقوانين الطبيعة، إلى حدوث خلل في التوازن البيئي وإلى تعرض الكثير من أنواع الأحياء البرية والمائية لخطر الموت والانقراض.

وبمراجعة متأنية للدراسات التاريخية والأثرية، نجد أن الوطن العربي كان في الماضي القريب أكثر غناء بالتنوع الحيوي مما هي عليه الآن، فقد كانت بلاد ما بين النهرين ووادي النيل غنية بمختلف أنواع الكائنات الحية، وفيها مارس الإنسان ولأول مرة حرف الصيد، والجمع، والرعي، والزراعة، والاستقرار، حيث بنى المدن وأشاد الحضارات، وفي هذه المدن بنى الحدائق كالحدائق المعلقة في بابل وحدائق مصر أيام الفراعنة، ويقدّر أنه أثناء حكم الفرعون رعمسيس الثالث ١١٩٨-١١٦٦ ق.م.، تمّ إنشاء ٥١٤ حديقة لتأمين الرطوبة والظل والجمال، ولكن القطع المستمر للأشجار والتأثيرات السلبية للسكان أدى إلى تدهور البيئة والقضاء على غابات الصنوبر والبلوط وتخريب الوسط المحيط[٢٠]. وفي سورية تدل الدراسات أنها كانت في العصور القديمة غنية جداً بالتنوع الحيوي، وتشير الدلائل إلى أن الزراعة مورست لأول مرة في بلاد الشام، ودلت التنقيبات الأثري في موقع تل أبي هريرة على ضفاف نهر الفرات أنه كان يقطن هذا المكان منذ نحو ١١٠٠٠ عام مجموعة من الصيادين الجماعين، وحدث هنا صيد مكثف للغزلان استمر عبر القرون العشرة التالية، ولم يتوقف إلا عندما استنزفت قطعان الغزلان بشكل كامل. وكان النوع الرئيسي من الغزلان هو الغزال الفارسي (الدرقي)، ولسوء الحظ فقد هذا الحيوان من منطقة الشرق الأدنى كلها. كما أن صيد الغزلان هنا لم يكن موسمياً أو انتقائياً بل كان يتم صيد القطيع بالكامل. ومنذ ذلك التاريخ وطريقة الصيد الجماعي لقطعان الغزلان مستمرة في سورية والأردن والسعودية وشبه جزيرة سيناء[٢١]. كما أن سكان هذه المنطقة في العصر الحجري الوسيط (Mesolithic Age). كانوا يجمعون العديد من البقول، وكانت توجد الحبوب الغذائية كالقمح البدائي المعروف بالبري وكذلك الجاودار والشعير البري، وكانت توجد الكثير من الأشجار المثمرة كشجرة التربنتينة وشجيرات الميس وشجرة التوت، ولكن معظم هذه الأنواع انقرضت واختفت ولم يعد لها وجود[٢٢]. وبالعودة إلى نصوص المحفوظات الملكية التي كشفت في تل مرديخ (إيبلا)

مؤخراً تبين أن العديد من هذه النصوص تتحدث عن قطعان من المواشي التي يصل عددها إلى ١٠ وحتى ٣٠ ألف رأس.

وتضم إحدى اللوحات المسمارية جرداً لأملاك الملك يشير إلى أن ٨٠ ألف شاه تعود لملك إيبلا، وتدل النصوص أن الحبوب المخزونة في مستودعات مدينة إيبلا تكفي لإطعام ١٨ مليون شخص على مدى سنة كاملة، وكان يتم جني محاصيل عالية من الحنطة والشعير، وقد عرف سكان إيبلا ١٧ صنفاً من الحنطة. وفي نصوص إيبلا نجد أيضاً أن غوديا ملك لكش في جنوب الرافدين (٢١٥٠-٢١١٠ ق.م.)، يفتخر بأنه استورد من بلاد اورشو في سهل إيبلا جذوع الأرز والشوح والدلب وغيرها من الأشجار الجبلية[٢٣].

وإذا كان القسم الأكبر من الشرق الأوسط يتألف حالياً من صحارى صخرية أو رملية جرداء تلطخها أشعة الشمس، فقد كانت سورية في وقت ما تزود مصر بحاجتها من الأخشاب، وتزود روما بالنبيذ والزيت. وكان هناك وقت قام فيه هانيبال بصيد الأفيال لجيشه في غابات شمال أفريقية الفسيحة، وشجرة الأرز التي غطت شهرتها الآفاق وهي الآن رمزاً وطنياً في لبنان، تعبيراً عن العزة الوطنية وذكرى القرون الماضية عندما كانت غابات الأرز تغطي ذيول سلاسل الجبال التي غدت الآن مقفرة، وكان يجري قطع سيقان أشجار الأرز اللبناني القوية والعطرة لبناء سفن الأسطول الفينيقي، أو لإنشاء بعض المباني الشهيرة[٢٤].

وخشب الأرز كان عاملاً هاماً في تنشيط الحركة التجارية والبحرية للفنيقيين الذي استعملوه في بناء أساطيلهم وفي تجارتهم مع الشعوب المجاورة لهم كالفراعنة، كما أن الفينقيين قدموا خشب الأرز إلى الملك الآشوري سرجون الثاني لبناء قصره. وقد بينت الدراسات التي تمت في سورية (Horowitz 1968)، أن الأشجار قاسية الأوراق كالسنديان والبلوط والزيتون والبطم والصنوبر كانت موجودة في بلادنا منذ أكثر من

٨٠ ألف سنة [٢٥]، ولكن كثافة هذه الأشجار كانت تتعرض للتغير بشكل مختلف من فترة لأخرى بحسب الظروف المناخية والتأثيرات الأخرى. وكانت الغابات في سورية تشغل حتى فترة قريبة ٢٠-٣٠% من مساحة سورية بينما هي الآن لا تشغل سوى نحو ٢-٣% من هذه المساحة[٢٦]. وحال العالم الحيواني ليس بأفضل من العالم النباتي، حيث تعرضت الكثير من الحيوانات للانقراض أو هي مهددة بالانقراض كلياً، ومن هذه الحيوانات نذكر الغزال والخنزير البري والضبع والدب السوري والفهد والأسد والوعل والأخدري (نوع يشبه الحمار البري) وكذلك الحمل الأرقش والأحمر. وبحسب (Simonez) فقد استؤصلت الفيلة وأفراس البحر والحمر الوحشية من شمال أفريقية، كما استؤصلت الأسود من تسالية وسورية وآسية الصغرى[٢٧].

ومن الطيور التي انقرضت أو هي مهددة بالانقراض نهائياً، النسر الذهبي والصقر والكدري والدراج والقطا والنعام والحباري وغيرها، إضافة إلى أن الكثير من الكائنات الحية الدقيقة انقرضت أو أنها مهددة بالانقراض.

وهكذا يمكن القول: إن الوطن العربي كان أكثر غنىً وتنوعاً، وكان مخزونه من الجينات أكبر مما هو عليه الآن، ومما لا شك فيه أن انقراض الأنواع وتدهور المحيط الحيوي سينعكس سلباً على حياة الإنسان في هذه المنطقة، وعلى إمكانية حصوله في المستقبل على حاجته من الثروة الغذائية والدوائية والصحية والجمالية، التي يقدمها التنوع للمجتمع البشري، هذا إذا لم يتم الانتباه إلى هذه المشكلة ووضع الحلول المناسبة لها ووقف كل ما يؤدي إلى ندرة الأنواع الحية وانقراضها.

الانتقال من الوسط الحيوي إلى الوسط العقلي:

أصبح المحيط الحيوي في الفترة الأخيرة يختلف عما كان في العصور السابقة، وذلك بسبب تدخل الإنسان وتأثيره فيه، وحتى دور الإنسان كعامل تغيير في القرن العشرين فاق دور مختلف الكائنات الحية الأخرى. واتسعت مساحة هذا التغيير عالمياً بحيث لم

تسلم أي منطقة بحرية أو قارية من وجود آثار الإنسان، مما جعل البعض يستخدم مصطلح "بيوتكنو سفير" للتدليل على الوسط الحيوي في عهد الثورة التقنية العلمية(٢٨).

وانطلاقاً من هذا الفهم، فإنه يتوجب على الإنسان أن يصمم ويكوّن وسطاً تقانياً جديداً في المستقبل، ويجب النظر إلى نشاط الإنسان كجزء متكامل في الوسط الحيوي، والنظر إلى التقانة إلى أنها ليست شيئاً غريباً عن الوسط الحيوي، لكنها مرحلة نوعية جديدة من مراحل تطوره(٢٩). ويمكن القول: إن ظهور الإنسان على سطح الأرض يعني خطوة كبيرة في تطورها، وقد أدّت نشاطاته المختلفة إلى تسريع جميع عمليات التطور إلى حد كبير، وتزايدت حدّة هذا التسارع مع تطور قوى الإنتاج، وتسلح البشرية بوسائل تقانية جديدة، أضف إلى ذلك تأثيرات الإنسان وأعماله غير المنظمة وغير الموجهة والتي حملت معها خطراً كبيراً من الصعوبة بمكان تقدير عواقبه. ونتيجة لكل ذلك فمن المحتم أن يأتي وقت من الأوقات يكون تطور كوكب الأرض ومعه المجتمع البشري موجهاً من قبل العقل(٣٠). وتوجيه تطور بيوسفير كوكب الأرض بما فيه الإنسان أطلق عليه مصطلح الوسط العقلي (Noosphere) أو غلاف التفكير بحسب المفكر الفرنسي تيلار دي شاردن(٣١). بمعنى أن تطور الوسط الحيوي يجب أن يخضع للإدارة والتوجيه من قبل عقل الإنسان من أجل تحسين هذا الوسط وإعادة تكوينه. والوسط العقلي هذا ليس فوق أو خارج الوسط الحيوي ولكنه مرحلة طبيعية من مراحل تطوره. وقد استخدم مصطلح النووسفير بكثرة من قبل العالم الروسي فرنادسكي (١٨٦٣-١٩٤٥)، وله فضل كبير في تطوير البحث التركيبي للمعرفة، أي مشاركة مختلف العلوم في تحليل الدور الجيولوجي للإنسان باعتباره قوة جيولوجية مؤثرة في تكوين وتطور الوسط الحيوي، وهكذا فإن الوسط العقلي يمثل المرحلة الأخيرة من مراحل تطور الوسط الحيوي في التاريخ.

وقد تصور العالم الفرنسي تيلار دي شاردن في كتابه **(إعجاز الإنسان)** غلاف التفكير (نووسفير) بأنه نظام مغلق وكل عنصر فيه "بشكل منفصل" يرى ويشعر ويتمنى ويتألم

مثل الجميع ومعهم في نفس الوقت[٣٢]. والحديث عن الوسط العقلي بهذه البساطة لا يعني أنه مكان محدد أو أنه جزء من مكان معين، بل إن المقصود هو الحديث عن عصر النووسفير، الذي يعني بأن تطور كوكب الأرض يتم بتوجيه من العقل. وهكذا يتسع مفهوم النووسفير ويزداد عمقاً ليشمل مجموعة من المشكلات التي يجب إيجاد الحلول لها لتحقيق إمكانية التطور الموجه للوسط الحيوي. والعقل في عصر النووسفير تقع على عاتقه مسؤولية تطور البشرية المقبل وصيانة حضارتها وتراثها وتحديد الكيفية التي يجب أن يكون عليها هذا التطور، وتحديد أهداف هذا التطور. كما أن دخول البشرية في هذا العصر يعني أن تطور الحياة على الأرض دخل في مسار جديد، خط سيره المقبل يجب أن يؤمن الانسجام والتطور المشترك للإنسان والوسط الحيوي الذي يعيش فيه. وحتى الآن، ما زال الإنسان قادراً على تجاوز الكارثة أو اللعنة الأبدية كما توصف أحياناً. أو بتعبير آخر تجاوز الحدود التي يبدأ معها طريق اللاعودة لأنه وخارج هذه الحدود يدخل الوسط الحيوي حالة جديدة ليس من السهل التكهن بنتائجها،ولا يستثنى من ذلك احتمال أن يصبح الوسط الحيوي مكاناً لا وجود للإنسان فيه.

من كل هذا، يبدو جلياً لماذا يجب على البشرية الآن أن تكون قادرة على تدارك نتائج أعمالها، وتقدير الحالة التي وصل إليها الوسط الحيوي، وأن تدرك قبل فوات الأوان الأعمال الخطيرة التي من شأنها عزل إمكانية التطور المقبل للحضارة البشرية وتجميد هذا التطور.

إذا كانت العلاقة المتبدلة بين المجتمع البشري والوسط المحيط تمتد إلى أعماق التاريخ، فقد حاول الإنسان بشكل دائم ومستمر توجيه وإدارة المحيط الحيوي، وتمثل هذا في البداية في إدارة بعض عناصره ثم بعض أجزائه ثم في نهاية المطاف السعي لإدارة وتوجيه المحيط الحيوي ككل بمقياسه الكوني، وتنظيم العلاقة بين الإنسان ومحيطه. وهذه بدون شك مهمة صعبة وتحتاج إلى جهود الكثير من العلماء.

أخيراً يمكن القول إن الطبيعة وعناصرها المختلفة كانت وستبقى نسيجاً من التناقضات، ولكن الإنسان كان يتدخل وسيبقى يتدخل في الوسط المحيط به كي يطوّعه لمصلحته الخاصة، وهدف العلوم هو ليس في المحافظة على الطبيعة الكونية بالشكل الأول لتكونها وإنما في إيجاد علاقة متبادلة بين الإنسان والطبيعة، تضمن التطور المشترك للوسط الحيوي وللمجتمع البشري كجزء لا يتجزأ منه، خاصة أنه يمكن للوسط الحيوي الاستمرار بدون الإنسان، ولكنه لا يمكن للإنسان الوجود والتطور خارج أو بدون الوسط الحيوي(البيوسفير).

الحواشي

١- كارل ساغان، الكون، **عالم المعرفة**، العدد ١٧٨، الكويت، تشرين الأول ١٩٩٣م، ص ٢٣.

٢- كولوكوف.و.ف. خومنكو.ن.ب.، **حماية الوسط المحيط**، كييف ١٩٨٦م، ص ٣٤ باللغة الروسية.

٣- الأرض والكون، **كتاب المعرفة**، مطبعة داغر، لبنان، الناشر شركة ترادكسيم السويسرية المساهمة ١٩٧١م، ص ٢١.

٤- كولوكوف، خومنكو، **مرجع سابق**، ص ٣٥ و ٣٦.

٥- كارل ساغان، الكون، **مرجع سابق**، ص ٥١.

٦- جورج نيسبت، **الخروج من جنة عدن**، ترجمة حسن كامل بحري، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق ١٩٩٨، ص ١٩.

٧- محمد محمود سليمان، ناظم عيسى، **البيئة والتلوث**، جامعة دمشق ١٩٩٩-٢٠٠٠م، ص ٥٩.

٨- ويلسون. إ. أ. تهديدات للتنوع الإحيائي، **مجلة العلوم المترجمة**، المجلد ٧، العدد ٣، آذار ١٩٩٠م، ص ٣١.

٩- دوغلاس. إيروين، أم الانقراضات الجماعية، **مجلة العلوم المترجمة**، المجلد ١٣، العدد ١، ١٩٩٧م، ص ٢٥.

١٠- ماك الستر إ. ل.، **تاريخ الحياة**، ترجمة د. فؤاد العجل، مطبوعات جامعة دمشق ١٩٧٨م، ص ١٠٢.

١١- محمد سليمان، فياض سكيكر، ناظم عيسى، **مقدمة في الثقافة البيئية**، مطبعة الصفا، دمشق ١٩٩٧م، ص ٦٧.

١٢- نوفروزوف. ز.، **الطبيعة لا تغفر الأخطاء**، موسكو، ميسل ١٩٨٨م، ص ١٣، باللغة الروسية.

١٣- طالب عمران، **الكون يكشف أسراره**، دار معد للنشر والتوزيع، دمشق ١٩٩١م، ص ٧٥.

١٤- ماك الستر، **مرجع سابق**.

١٥- **المصدر السابق**.

١٦- ريتشارد. كريف، تشكل فوهات التصادم على الأرض، **مجلة العلوم المترجمة**، المجلد ٨، العدد ٧، تموز ١٩٩٢، ص ٦٩.

١٧- محمد محمود سليمان، **وسائل النقل البرية وتلوث الغلاف الجوي في المدن**، الندوة الجغرافية الأولى، جامعة دمشق، ١٩٩٣.

١٨- **مجلة البيئة والتنمية**، المجلد الثالث، العدد ١٤، بيروت ١٩٩٨، ص ٣٠.

١٩- إدوارد وولف، **تفادي الانقراض الجماعي للأنواع**، حالة العالم، موسكو ، دار التقدم ١٩٨٩، ص ٢٧٧، باللغة الإنكليزية.

٢٠- روبرت روبرتو، إزالة الغابات في المناطق الاستوائية، **مجلة العلوم المترجمة**، المجلد ٨، العدد ٧، تموز ١٩٩٢، ص ٢٠.

٢١- كوتشريافي. ف. أ.، **الوسط الطبيعي للمدن**، لفوف ١٩٨٤، ص ١٣، باللغة الروسية.

٢٢- ليك.أ. ج.، كونوي.ب.أ.ر، صيد الغزلان في العصر الحجري في سورية، **مجلة العلوم المترجمة**، المجلد ٤، العدد ٣، ١٩٨٨، ص ٦٦.

٢٣- أندرو. م. ت. مور، زراعية سورية على نهر الفرات سبقت العصر الحجري الحديث، **مجلة العلوم المترجمة**، المجلد ٧، العدد ١٠، تشرين الأول ١٩٨٩، ص ١٤.

٢٤- **الجديد حول الشرق القديم**، مجموعة من المؤلفين، موسكو، دار التقدم ١٩٨٨، ص ١٦١-١٨٥.

٢٥- إيغور أداباشيف، **الإنسان والبيئة**، ترجمة عبد الله حبة، دار مير للطباعة والنشر، موسكو ١٩٨٥، ص ٢٣.

٢٦- محمد العودات، **التلوث وحماية البيئة**، الأهالي للطباعة والنشر، دمشق ١٩٨٨، ص ٢٠٢.

٢٧- **المصدر السابق**.

٢٨- إيان. ج. سيمونز، **البيئة والإنسان عبر العصور**، ترجمة السيد محمد عثمان، **عالم المعرفة**، العدد ٢٢٢، الكويت ١٩٩٧م، ص ١٤٣.

٢٩- أستاتين. ل. ب.، بلاغو سكلونوف. ك. ن.، **حماية الطبيعة**، موسكو ١٩٨٤، ص ٣٢، باللغة الروسية.

٣٠- كاشيلوف. م.م.، **تطور الغلاف الجوي** (البيوسفير) موسكو ١٩٨٤، باللغة الروسية.

٣١- مويسييف. ن. ن.، **الإيكولوجية البشرية عيون الرياضيات**، سلسلة إفريكة، موسكو ١٩٨٨، ص ٢٨، باللغة الروسية.

٣٢- ابراهيم نحال، الأنظمة البيئية وعلاقاتها بحياة الإنسان، **مجلة العلوم والتكنولوجية**، العدد الثالث، معهد الإنماء العربي، بيروت ١٩٨٤، ص ٣١.

٣٣- بلاندرين. ر. ك.، بونداريف. ل. غ.، **الطبيعة والحضارة**، موسكو ١٩٨٨، ص ٣٤٥، باللغة الروسية.

الموت كما رآه العراقيون

الدكتور خالد عبد الملك النوري

جامعة الكويت-كلية الآداب ــ قسم التاريخ

الموت كما رآه العراقيون

صاحب الإنسان منذ ظهوره على وجه الأرض، العقل الذي امتاز بـــه عـــن جميـــع الكائنات الحية التي وجدت على الأرض. هذا العقل هو الذي جعل الإنسان لا يقتصـــر في سعيه، من أجل البقاء حياً، على إشباع رغباته وغرائزه المادية فحسب، بل أدى به أيضاً إلى التفكر في الظواهر التي تواجهه سواءً في كنهها أو في الأسباب التي تقـــف وراءها. وقد كان الموت الظاهرة الأبرز لكونها الأكثر والأخطر تأثيراً علـــى حيـــاة الإنسان، فالموت هو الظاهرة التي تضع حداً لحياته مهما طال به الأجل، تلك الحيـــاة التي طالما جاهد للحفاظ عليها ضد عوادي الزمن. ويوصف الموت، فـــي عصرنـــا الراهن، وحسب التقاليد الإسلامية، بأنه "هادم اللذات"[1] أي أنه وبالرغم مـــن إيمـــان المسلمين العميق بأفضلية الحياة الآخرة على الحياة الدنيوية بالنسبة للمؤمنين، فما زال الموت لديهم يحمل وصفاً يدل على أنه ظاهرة غير محبذة.

وقد مرّ التفكير الإنساني بشكل عام خلال بحثه في الظواهر الطبيعية، بعدة مراحل بدء بالتفكير الأسطوري البحت الذي يعزو الظواهر الطبيعية إلى قوى خارقة غير مرئيـــة، ومروراً بالتفكير الفلسفي الذي يحاول اتباع المنطق في تفسير الظاهرة دون الاهتمـــام بالبرهنة عليها علمياً، وانتهاءً بالتفكير العلمي الذي يتقصى الأدلة المحسوسة من أجـــل الوصول إلى نتائج عن الظاهرة. وسوف نضرب مثالاً على تلك المراحـــل الثـــلاث بظاهرة العواصف الرعدية. نرى مثالاً على المرحلة الأولى في التفسير الكنعاني الذي يرى في أن الأمطار يجلبها إله العواصف الرعدية (هدد)، وفي حالة انحباس الأمطار، فإن ذلك يعني أن هذا الإله قد هُـــزم فـــي معركـــة أمـــام إلـــه القحـــط والجفـــاف، موت[2]. تختلف طبيعة التفكير في المرحلة الثانية، ومثال على ذلـــك التفســـير الـــذي أورده الطبيعيون الميلتسيون عن نفس الظاهرة، إذ يحاولون تفســـير زوابـــع الـــبرق والرعد على أنها ريح كانت حبيسة داخل الغيمة ثم شقتها بقوة وعنف لتنطلق خارجـها

لينتج عن ذلك البرق والرعد[٣]. أما العلم الحديث و الذي يميز التفكير الإنساني في مرحلته الثالثة فقد توصل **بالبراهين العلمية** إلى أن الأمطار ليست سوى ظاهرة طبيعية تتحكم فيها عدة عوامل طبيعية كالموقع الجغرافي والتضاريس واتجاه الرياح.

إن الأمر اللافت للنظر هو أن نماذجا للمرحلة الأولى من التفكير الإنساني عن تلك الظاهرة وجميع الظواهر الطبيعية الأخرى بما في ذلك الموت، ما تزال تفرض نفسها على قطاع كبير من سكان العالم في عصرنا هذا، على الرغم من تقدم التفكير العلمي، الذي فسّر معظم تلك الظواهر على أسس من الأدلة العلمية المادية المحسوسة. ولهذا يجب ألاّ نستغرب نمط التفكير الأسطوري الذي استخدمه الإنسان العراقي القديم في تفسيره لظاهرة الموت في العصور القديمة، حيث ساد فيها هذا النمط من التفكير.

يهدف البحث الذي بين أيدينا إلى إلقاء الضوء على صورة الموت في أذهان سكان بلاد ما بين النهرين القدماء. وسوف نستقي المعلومات عن هذا الموضوع من المصادر النصية الأسطورية السومرية والأكدية[٤]، وبخاصة ملحمة جلجامش، بسبب علاقتها المباشرة بالموضوع[٥]. إن ما دفعنا للبحث في هذا الموضوع هو غموض ما نعرفه عنه مقارنة بالمعلومات الواضحة والمتوفرة عن نظرة المصريين القدماء للموت والكيفية التي تعاملوا بها معه. فنحن نعلم أن المصريين القدماء لم يعتقدوا بانتقال الميت إلى حياة أخرى فحسب، بل إنهم آمنوا أيضاً بوجود مبدأ الحساب: العقاب والثواب بعد الموت. كما نعلم أن المصريين القدماء حرصوا أشد الحرص على إبقاء الجسد سليماً بعد موته، ومما يدلّ على ذلك ظاهرة تحنيط الموتى، اعتقاداً منهم بأن خلود الروح يرتبط بذلك ارتباطاً وثيقاً. والواقع، فإن الأدلة الأثرية والنصية حول عادات الموت وطقوسه في مصر وفيرة جداً[٦]، بالمقارنة مع ما نمتلكه من مادة علمية تتعلق بموضوع الموت في بلاد ما بين النهرين. وسوف نحاول التركيز على موضوع الموت اعتماداً على الأدلة النصية من تلك المنطقة، والتي تتركز في النصوص الأدبية الأسطورية أكثر من غيرها[٧].

من هنا تتقافز، في أذهاننا، بعض التساؤلات عن الموت في نظر العراقي القديم، مثل، كيف يعيش الأموات حياتهم الأخرى في عالمهم الجديد؟ هل هناك محكمة يُحاسبون أمامها على أعمالهم ثم على ضوئها يُحدد نمط معيشتهم هناك؟ هل يعيش الأموات في حياتهم الأخرى حياة طبيعية، تشبه تلك التي كانوا يحبونها في عالمهم السابق بمحاسنها ومساوئها؟ هل ينتقل الميت إلى ذلك العالم بجسده وروحه معاً أم بروحه فقط؟ سوف نحاول استخلاص بعض المعلومات من المصادر النصية المتوفرة للإجابة عن هذه التساؤلات، ليس حسب ترتيبها بالضرورة، لنخرج بصورة عن تصور العراقيين القدماء عن المصير الذي ينتظر الميت والوصف الذي ينطبق على عالم الأموات.

الفناء والخلود

يتضح من خلال قراءة جميع النصوص الأدبية العراقية القديمة، أن مبدأ الموت مفروض على جميع البشر، ولا مفر منه. ولكن هناك استثناء واحد فقط من ذلك المصير وهو الذي تحقق لبطل أسطورة الطوفان، زيوسدرا، كما يطلق عليه في النص السومري التي يوجد لها نسخة أخرى متأخرة باللغة الأكدية. ففي نهاية تلك الأسطورة يقرر الآلهة منح الخلود لهذا الرجل مكافأة له على إنقاذه البشرية من الطوفان[٨].

واصطفى الإلهان آنو وإنليل زيوسدرا،

وهباه الحياة مثل إله،

أدخلاه النَفَس الخالد مثل إله.

إن موضوع استثناء بطل الطوفان من تعرض الإنسان لحتمية الفناء كان أمراً شائعاً أيضاً لدى البابليين والآشوريين، في الألف الثاني والأول ق.م. فقد ظهر ذلك واضحاً من النسخة الأكدية للأسطورة التي تحتل الحيّز الأكبر من اللوح الحادي عشر في ملحمة جلجامش. ففي بداية هذا اللوح يبدي جلجامش دهشته أمام الهيئة الإنسانية

الطبيعية لبطل الطوفان رغم تمتعه بالخلود كالآلهة منهياً حديثه كالتالي(٩):

كيف تسنى لك الانضمام للآلهة؟

أنى لك أن تطالب بالحياة الأبدية؟

تبدو حتمية الموت لدى الإنسان العراقي القديم أكثر وضوحاً من خلال مقاطع أدبية مباشرة وواضحة الإيحاء بهذا المعنى، ورد معظمها في ملحمة جلجامش، وهذا أمر بديهي، لأن المحور الرئيس للملحمة حول موضوع أن الإنسان فانٍ لا محالة وأن الخلود من نصيب الآلهة فقط، لذلك فإننا نرى أن جلجامش كان مدركاً لهذه الحقيقة في بداية الأسطورة. وكان جلّ ما يصبو إليه هو الخلود المعنوي، أي أن يقوم بأعمال مجيدة لتخليد ذكراه بين الأحياء بعد موته وليفخر به أبناؤه من بعده. ويبدو ذلك واضحاً في ردّه على صديقه إنكيدو عندما حاول الأخير تحذيره من التصدي لوحش غابة الأرز القوي الذي لا يقهر. فكان رد جلجامش(١٠):

من يستطيع أن يعرج إلى السماء يا صديقي؟

فقط الآلهة تقطن مع شمش إلى الأبد.

يستطيع الإنسان أن يحصي أيامه

وما ينجزه ليس سوى ريح.

أتهاب الموت في هذه المناسبة؟

ثم يصل إلى هدفه قائلاً:

إذا سقطت فسوف أحرز الشهرة.

سيقول الناس: لقد جاهد جلجامش في قتاله

مع شديد البأس خواوا

ويؤكد هذا المعنى في مقطع آخر:

دعني أغزو في غابة الصنوبر

وأعطي البلاد سبباً لتدرك

كيف هو ابن أوروك القوي

دعني أباشر العمل وأقطع الصنوبر

(فـ) أضمن شهرة تبقى للأبد

ويحاول إقناع صاحبه أنكيدو في مقطع آخر أن الإنسان سوف يخلد ذكراه من خلال أعماله حتى ولو أودت به تلك الأعمال إلى مهاوي الردى:

تمسك بيدي ياصديقي ولننطلق

سوف يحترق قلبك في المعركة؛ انسى الموت و[لا تفكر إلاّ في] الحياة(؟)

ثم يقول :

ذلك الذي يثب للأمام ويذود عن جسد (صديقـ)ـه سوف يحافظ على صديقه الوفي سالماً

سوف يكونا قد حققا شهرة لـ [مستقبلـ]هما

وفي أسطورة سومرية تحت عنوان "جلجامش وأرض الأحياء، يعترف جلجامش، وهو يرى كيف أن الناس تموت بطرق مختلفة، بأنه سيواجه نفس المصير مهما بلغ شأوا، ولذا فعليه أن يقوم بعمل يخلّد ذكراه قبل أن يحين أجله[١١]

يموت الرجل في مدينتي محزون القلب،

يهلك الرجل وقلبه مثقل بالهموم،

هأنذا أنظر من فوق السور،

فأرى جثث الموتى...تطفو على النهر؛

وسيحل بي نفس المصير بلا ريب.

مهما بلغ الإنسان طولاً، فلن يدرك السماء.

مهما بلغ الإنسان عرضاً، فلن يغطي الأرض

ومادام لم يعلن الختم والآجِر النهاية المقدرة

فسوف أدخل الأرض، سوف أضع أسمالي،

في مواضعه حيث تُرفع الأسماء للأعلى سوف أرفع اسمي.

تأكيداً لهذا المعنى، يخاطبه الإله أوتو، في أسطورة سومرية أخرى، عنوانها هو "موت جلجامش" مفسراً له حلم راوده في المنام فيقول له[١٢]:

إن تفسير حلمك، أيها السيد جلجامش، هو

لقد قرّر مصيرك يا جلجامش للملْك، (و) لم يقرر للحياة الأبدية.

(لكن)... للحياة، لا يحزن فؤادك،

لا تكن محزوناً، ولا تكن مخبطاً ....

لقد وهبك السيادة على البشر،

منحك قدرة في النزال لا يتمكن معها أحد فراراً،

أعطاك انقضاضاً لا يباريك به أحدٌ،

زودك بقدرة على الهجوم لا يستطيع معها أحد هروباً.

وهكذا فقد كان جلجامش متقبلاً فكرة الموت ومتوقعاً له في أي لحظة على الرغم من أن ثلثاه قد خلق من مادة إلهية(١٣) ولكن الجزء البشري منه جعل الفناء محتماً عليه كباقي البشر. لقد كان جلّ ما يسمو إليه هو الخلود المعنوي، ونجح في ذلك أيّما نجاح. لكن هذا الشعور باللامبالاة تجاه القدر المحتوم تحول إلى آخر مغاير فيما بعد. فقد بدأ جلجامش يسعى لنيل الخلود الجسدي. لم يحدث هذا التبدل في نظرته للموت إلاّ بعد أن عرفه جيداً، وعرف الجانب المظلم منه، كيف لا وقد فقد بالموت أقرب الناس إليه، صديقه أنكيدو، وراقبه يموت متألماً أمامه، ثم ولأنه لم يقتنع بموته لم يقم بدفنه مباشرةً حتى رأى جسده يتحلل أمام ناظريه والدود يخرج من أنفه(١٤)أصبح الخوف من الموت هو هاجسه الوحيد منذ تلك التجربة الأليمة، وطفق يتساءل(١٥):

هل سأموت أيضاً؟ أو لست مثل أنكيدو؟

وبدأ على أثر ذلك رحلة طويلة ومضنية من أجل البحث عن الخلود، رغم محاولة الإله شمش ثنيه عن عزمه مؤكداً له(١٦):

إلى أين أنت ذاهب يا جلجامش؟

فلن تجد الحياة الأبدية التي تنشدها.

وفي مقطع تالي تخاطبه فتاة الحانة بمصداقية تعبّر بوضوح صارخ عن نظرة العراقيين القدماء إلى الحياة والموت قائلة له(١٧):

عندما خلقت الآلهة الجنس البشري

فقد قررت الموت للناس.

واحتفظت لنفسها بالحياة الأبدية.

لذا، فاملأ معدتك يا جلجامش.

ليلاً نهاراً متّع نفسك بشتّى الطرق،

خطّط لمتعتك كل يوم.

ارقص والعب نهاراً وليلاً،

والبس ثياباً نظيفة.

اغسل رأسك دوماً واستحم بالمياه،

افرح بالطفل الذي تحمله بين يديك،

دع زوجك تمتّع نفسها في حضنك.

ولا شك في أن لهذا المقطع دلالة واضحة، وهي أن العراقي القديم كان يؤمن إيماناً راسخاً بأن على الإنسان أن يستمتع، قدر إمكانه، بالحياة التي يعيشها، وعليه أن لا يضيع وقته في غير ذلك، لأن الموت الذي هو قادم لا محالة سوف يضع حداً لكل متع الحياة. على أية حال فإن جلجامش لم يتمكن من تحقيق مبتغاه، وقد أدرك هو بنفسه ذلك بعد فشله في الاحتفاظ بنبتة تجديد الشباب التي كانت هي كل ما حصل عليه من رحلته(١٨). لا نود هنا الاسترسال في دراسة شخصية جلجامش وردود أفعاله، بقدر ما نريد استقراء ردود فعل الإنسان العراقي القديم على الموت وتصرفاته، إزاء الأمور التي تترتب على الموت، من خلال تصرفات جلجامش في الملحمة، وفي الأساطير الأخرى التي يحمل بعض مقاطعها رؤية ما عن موضوع الموت.

هكذا، فإن الحقيقة الأولى التي تتعلق بنظرة العراقيين القدماء عن الموت هي إيمانهم الجازم بحتمية الموت على البشر. وتبدو لنا أحداث ملحمة جلجامش كما لو أن الهدف الرئيس لتأليفها هو تأكيد هذه الحقيقة للجمهور. ذلك أن بطل هذه القصة لم يكن إنساناً عادياً، فقد امتلك قوة خارقة يستطيع أن يقهر بها الوحوش، ولم يتمكن أيّ إنسان من قهره قط، وكان ملكاً عظيماً، وفوق ذلك، كان يتكوّن في جزء منه من مادة إلهية. وقد سعى لنيل الخلود الحسيّ بكل ما يملك من قوة ونفوذ وإمكانات لا يمكن أن تتوفر لمن

هم دونه شأناً من الناس. ومع ذلك خاب مسعاه لسبب مهم جداً، وهو أن الآلهة قد قررت الموت على الجنس البشري عندما خلقته، ولأن جلجامش كان يتكّون من مادة بشرية في جزء من خلقه فهو لم يكن مستثنى من ذلك.

العودة للحياة:

لم يؤمن العراقي القديم إطلاقاً بإمكانية عودة الميت بروحه وجسده معاً إلى عالم الأحياء الذي اعتاد عليه قبل موته. ويحتوي الأدب الأسطوري العراقي القديم على أمثلة غير مباشرة توحي باستحالة عودة الميت إلى الحياة الدنيوية. وكان يعتقد بوجود عالم خاص بالموتى يذهب إليه جميع الأموات، وهو ما يمكننا أن نطلق عليه تسمية العالم السفلي، والذي لا يمكن أن يعود منه أحد[١٩]. ومما يؤكد استحالة عودة الإنسان إلى الحياة الطبيعية، هو ما ورد في إحدى أساطير جلجامش السورية[٢٠]، من أجل جلجامش يناشد الإله إنكي للتدخل من أجل إطلاق خادمه[٢١] إنكيدو من عالم الأموات الذي اُحتجز به، ولم يكن بمقدور إنكي، رغم كونه أحد أكبر ثلاثة آلهة في المجتمع الرافدي، أن يفعل شيئاً أكثر من إحداث ثقب في الأرض لتخرج روح إنكيدو فقط دون جسده ولفترة وجيزة، لمقابلة جلجامش الذي استقبل تلك الروح بالأحضان.

وقد رأينا في الملحمة كيف أن جلجامش كان يأمل في عودة الحياة لصديقه بعد موته فترك جسده كما هو وامتنع عن دفنه لمدة ستة أيام على أمل أن تعود إليه الروح، ولن يقتنع باستحالة ذلك إلا بعد أن رأى دودة تخرج من أنف صديقه المسجى أمام ناظريه[٢٢]. إن استحالة عودة الميت من العالم الآخر، قد انطبقت على الآلهة أيضاً وإن كان بطريقة أكثر غموضاً. فها هي إنانا بعد أن تهبط للعالم السفلي، تُحجز هناك فيتدخل إنكي محاولاً إعادتها إلى الحياة،إلا أن عودتها إلى عامل الأحياء لم يكن ممكناً ما لم يحلّ محلها أحد آخر تختاره هي بنفسها[٢٣].

ولما شرعت إنانا بالصعود من العالم السفلي،

تصدى لها الأنوناكي

"مَن مِن الذين هبطوا للعالم السفلي استطاع أن يصعد سالماً؟

فإن أرادت إنانا الصعود من العالم السفلي،

فعليها أن تقدم بديلاً عنها".

وقبل أن تهبط إنانا إلى العالم السفلي،كانت مدركة للمصير الذي سوف يحيق بها، وهو أن تُحجز هناك. لذلك فهي لم تتردد في توصية وصيفتها بأن تطلب مساعدة الآلهة الكبرى لتتدخل لإنقاذها إن لم تعد من العالم السفلي خلال ثلاثة أيام. وقد كان ردّ أول من لجأت إليه وهو إنليل، على الوصيفة، سلبياً، فهو يصر على أن شرائع العالم السفلي والتي تقضي بأن من يذهب إلى هناك لا يعود مطلقاً، يجب ألاّ تتغير[٢٤].

وحتى عندما يقرّر الموت على إله محدّد فإنه مواجه الموت لا محالة. ومهما حاول أن يهرب من مصيره الذي قررته الآلهة لسبب ما، فإن شياطين العالَم السفلي، الموكل إليها قبض الأرواح، سوف تقبض عليه حتى وإن ذهب إلى آخر العالم، وحتى إن غيّر من شكله، فبإمكانهم التعرف عليه. وهذا ما حدث لدموزي في نهاية أسطورة "هبوط إنانا للعالم السفلي". فقد كان هو الشخص الذي اختارته إنانا ليقيم بدلاً عنها في العالم السفلي. فبعد أن أوحي إليه خلال منامه بأن سوف يموت، يبدأ رحلة الهرب فيختبئ في الحقول بين الزروع، ولكن عفاريت الموت تضغط على أخته لتدل عليه. ولكنه خشية عليها يخرج من مخبئه وينشد إله الشمس (أوتو)، الذي يستجيب له فيحوله إلى غزال، ومع ذلك تعرفوا عليه فهرب منهم لحظيرة الأغنام حيث أدركوه فيها وقبضوا على روحه بقسوة[٢٥].

يجب ملاحظة أن الأحداث في الأسطورة السابقة تتعلق بكائنين إلـهيين يُفترض أن الموت لم يقدر عليهما تلقائياً كما قُدّر على البشر[٢٦]. فإن إنانا هنا أو عشتار في الرواية البابلية، ربّة مخلّدة، ثم أنها نزلت بمحض رغبتها إلى العالم السفلي كما لو أنها

ذاهبة في رحلة ذات هدف محدد[٢٧]، أي أنها لم تمت بالطريقة التي يعرفها البشر. كذلك لم يُعرف من الأدب العراقي القديم أن أي إنسان مات، قد افتُدي بنفس الطريقة التي افتديت بها إنانا. أما دموزي فنزوله للعالم السفلي كان نتيجة قوانين صارمة لذلك العالم، لا يمكن الحياد عنها حتى وإن تعلّق الأمر بالآلهة، وكان من سوء حظ دموزي أن يكون البديل الذي اختارته زوجه إنانا لأسباب ليس هنا المجال للبحث فيها.

وهكذا يتبين لنا أن العراقيين القدماء آمنوا باستحالة عودة الميت بجسده إلى الحياة الدنيوية مرة أخرى، لكنهم مع ذلك كانوا يعتقدون بإمكانية صعود أرواح الموتى دون أجسادها فقط إن أتيح لها ذلك. ويعتبر المثال الذي استشهدنا به أعلاه والذي يتضمن السماح لروح إنكيدو بالصعود للأعلى استجابة لرغبة سيده جلجامش، كدليل على الإيمان بمثل هذا الاعتقاد. ولعل الإشارة الوحيدة إلى إمكانية خروج الميت إلى عالم الأحياء بجسده، كان في المقطع الذي تهدّد به عشتار بتحطيم أبوابْ العالم السفلي وإطلاق الموتى حتى يصعدوا ويأكلوا الأحياء[٢٨]. ولكن حتى في هذا المثال، بإمكاننا أن نلاحظ أن هؤلاء الأموات لو أتيح فعلاً لهم الصعود لعالم الأحياء تنفيذاً لتهديد عشتار، فهم لن يعودوا كما كانوا أناساً أسوياء التفكير طبيعييّ الهيئة. فحسب تهديد عشتار فإن هؤلاء العائدين سوف يكونون دون عقولهم التي تميز الإنسان الحي، ويتبين ذلك من العمل الذي كان سيقومون به عند إطلاقهم وهو أكلهم للأحياء من الناس. لذلك فحتى هذا المثال قد يؤكد على الاعتقاد الذي كان سائداً بين العراقيين القدماء، وهو استحالة عودة الميت للحياة بجسده وروحه معاً، لأن العودة للحياة هنا تعني أن يعود الإنسان طبيعياً متمتعاً بكامل مزاياه الإنسانية في شكله وعقله وروحه.

تكمن أدلة أخرى على إيمان العراقي القديم بإمكانية صعود الروح فقط على هيئة شبح، في مجموعة من النصوص الطقسية، التي تحتوي على معلومات تشير إلى اهتمام العراقيين القدماء بالعناية بأرواح الموتى ضمن طقوس يومية وسنوية، حتى يضمنوا-عدم صعودها إليهم مسببة القلق لنفسها والأذى للأحياء. بهذه الطقوس التي

تقام عادة في المنازل، حيث يدفن الأموات غالباً تحت أرضياتها، كان العراقيون يعتقدون أن أرواح هؤلاء الأموات كانت، في الواقع، تعيش معهم[٢٩].

بشكل عام، فقد بينت النصوص بصراحة أن الآلهة لن يلقوا المصير نفسه الذي يواجهه البشر وأن الخلود من نصيبهم. ولكن تأييداً منا لرأي نائل حنون القائل بأن التفكير الأسطوري الشعري قلما يكترث بالتناقض المنطقي العقلي[٣٠]، فإننا نرى في أن للأحداث التي استشهدنا بها من أسطورتي "هبوط إنانا للعالم السفلي" و"موت دموزي" دلالة بالغة على إيمان العراقي القديم بحقيقتين رئيسيتين أخريتين تتعلقان بالموت: أولاهما أنه عندما يموت شخص فلا يمكنه أن يعود للحياة مرة أخرى، فقد كان تدخّل إنكي لإنقاذ إنانا عملاً شاذاً لم يكن أي إله آخر ليسمح به. الحقيقة الأخرى هي أن أي شخص محدد يُكتب عليه الموت، فلن ينجو منه كيفما تخفى وأينما اختبأ وهذا ما حدث لدموزي.

العالم السفلي:

وعلى الرغم من أن العراقي القديم لم يؤمن، كما بينا، بعودة الميت للحياة الأولى، فهو قد آمن بحياة أخرى يعيشها الميت في عالم آخر، هو عالم الأموات، الذي ظنوا أنه يقع إلى الأسفل من عالم الأحياء، ولذلك يمكن تسميته بالعالم السفلي. وقد أطلق العراقي القديم عليه عدة تسميات وأوصاف في اللغتين السومرية والأكدية ومن ضمنها "إرْكَلّو"[٣١] التي وردت في عدة مقاطع من الأدب الأسطوري بنفس المعنى، ومثال على ذلك المقطع الذي ورد في أسطورة "هبوط عشتار للعالم السفلي"[٣٢].

عشتار التي تقيم في إركلو في مقر إركلو، حيث لا يعود من يذهب هناك.

ارتبطت هذه التسمية، إركلو، بوصف آخر هو "طريق اللاعودة"[٣٣]، وكمثال آخر[٣٤]:

إلى البيت المظلم،حيث مقر إركلو، على طريق لا عودة منه.

كذلك يتضح أن هذين المثالين بأن ذلك العالم قد وصف أيضاً بـ "البيت المظلم"(٣٥) في النصوص الأسطورية الأكدية(٣٦).

حزمت ابنة سن أمرها متوجهة إلى البيت المظلم إلى مقر إركلو.

استخدمت كلمة "أرض" في اللغتين السومرية والأكدية للدلالة على العالم السفلي أيضاً، فضلاً عن معناها الأصلي "الأرض". ونستشهد بمقطع من أسطورة "هبوط إنانا للعالم السفلي" كمثال على الاستخدام السومري للكلمة لذات الغرض(٣٧):

حزمت إنانا أمرها متوجهة من الأعلى العظيم إلى الأسفل العظيم.

تعبير "الأسفل العظيم" في المثال السابق ليس هو الترجمة الحرفية للكلمة السومرية التي وردت في النص "كِ جَ ل" فالكلمة تعني حرفياً "الأرض العظيمة" ولكن سياق الحديث في النص كان يدل على عالم الأموات وليس عالم الأحياء، وهو في هذه الحال يقع أسفل الأرض وليس فوقها. وفي الاستخدام الأكدي نورد هذا المثال من ملحمة جلجامش(٣٨).

لّما فتح (إنكي) ثغرة في الأرض صعدت روح إنكيدو من العالم السفلي كنفس الهواء.

اُستخدمت كلمة أرض في هذا المثال مرتين، في الأولى كانت تعني "أرضاً" بمعناها الشائع ولكن في المرة الأخرى فقد وضُح من السياق أنها لم تكن تدل على شيء غير ما هو واقع أسفل الأرض، أي "العالم السفلي" وخصوصاً من خلال إطلاق الكلمة على المكان الذي صعدت منه روح إنكيدو بعد فتح الثغرة في سطح الأرض نفسها. وفي مثال آخر من أسطورة "**هبوط عشتار للعالم السفلي**"(٣٩) .

هبطت عشتار للعالم السفلي ولم تصعد.

في كل من أسطورتي "هبوط عشتار" و"نرجال وإريشكيجال" الأكديتين، تكرر استخدام الكلمة السومرية المستعارة "كُرنُجي"(٤٠).

ما إن هبطت عشتار إلى كرنجي، لم يرطب ثور بقرة، ولم يخصب حمراً أتاناً.

وأيضاً[٤١]:

سوف أرسلك (يا) كاكا إلى كرنجي إلى مقر إيريشكيجال التي تقطن في إركلو.

استخدمت كلمة "كور"[٤٢] في الأسطورة السومرية "هبوط إنانا" لتدل أيضاً على العالم السفلي[٤٣]:

غادرت إنانا السماء، هجرت الأرض، (و) غلىكور هبطت.

إضافة إلى جميع تلك المصطلحات والأوصاف التي تفرد بها العالم الآخر في الأدب الأسطوري العراقي القديم، فهناك تسميات أخرى وردت في نصوص أخرى غير أسطورية، كبعض نصوص التعاويذ السحرية، ومثال على ذلك التعبير "أرَلّو" [٤٤] وهي أيضاً كلمة سومرية مستعارة لبعض النصوص الأكدية[٤٥].

لقد جُلبت جثته هو الذي كُتب عليه أن يهبط إلى أرلو.

وهكذا ، بإمكان الباحث أن يلاحظ وفرة التعابير والأوصاف التي أطلقها العراقيون القدماء على العالم الآخر، الذي اعتبروه عالماً خاصاً بالأموات يعيشون فيه حياتهم بعد الموت، ولا أمل لهم بالخروج منه ولا أن يعودوا لحياتهم السابقة.

لم يغفل الأدب العراقي القديم عن إعطاء وصف عام للعالم السفلي في أكثر من مناسبة، وهذا الوصف يرتبط إلى حد كبير بأحوال الأموات في ذلك العالم، ومن ذلك نورد مقطعاً آخراً من ملحمة جلجامش يصف فيه إنكيدو العالم السفلي كما رآه في حلمه، الذي رأى فيه أيضاً أنه مات، ونزلت روحه إلى هناك، حيث بدأ الحديث عن مخلوق أسطوري مخيف اقتاده إلى ذلك العالم[٤٦]:

قبض عليّ وساقني إلى البيت المظلم، مسكن الإله إركلو،

إلى ذلك البيت الذي من يدخله لا يخرج....

حيث طعامهم غبار وشرابهم طين،

وكالطيور يكتسون بالريش،

لا يرون النور ويسكنون في ظلمة.

نرى هنا كيف أن الظلام هو أبرز صفة تميّز ذلك العالم. وليس لدينا شك في أن استحالة الخروج منه لمن دخله ليست سوى كناية عن استحالة عودة الميت للحياة، أو بتعبير آخر عودة الروح لجسدها. وما يلفت النظر في هذا المقطع، هو أن الأرواح هنا لا تحظى بطعام وشراب لائقين. وهذا النص لا يوضح فيما إذا كان ذلك هو مصير جميع الموتى أم بعضهم لأسباب محددة. ومما يجدر ذكره أن هذا الوصف تكّرر في أساطير أخرى، ولكننا استشهدنا به دون غيره لأن به تكملة يُشار بها إلى وجود أرواح بعض علية القوم من الملوك، والكهنة فيما تبقى من النص، حيث يتبين أنهم كانوا أفضل حالاً في طعامهم وشرابهم[٤٧]. بقي علينا أن نعلم أن الأموات هناك كان يكسوهم الريش لأمر لا نستطيع الادعاء أننا على دراية به.

الحساب بعد الموت:

يقودنا موضوع الحال السيئ، الذي كان عليه بعض الموتى، حسبما يصفه آخر نص استشهدنا به، إلى التساؤل عمّا إذا كان هؤلاء قد كانوا يعاقبون لأعمال سيئة قاموا بها مسبقاً قبل موتهم، أم كان لعنائهم سبب آخر. وهذا بدوره يثير تساؤلاً آخراً عمّا إذا كان العراقي القديم قد آمن بمبدأ الحساب بعد الموت. ولم يكن من العسير أن يتوصل بعض الباحثين، في دراسات سابقة، إلى أن العراقيين القدماء لم يؤمنوا بوجود محكمة للناس بعد موتهم[٤٨]. فقد لوحظ من خلال النصوص أن مصير روح الميت ، ونوع المعاملة التي يتلقاها في العالم السفلي، لا يتوقفان أبداً على عمله الدنيوي سواء أفعل خيراً أم شراً. وتشير بعض النصوص إلى أن الأموات يعيشون بأرواحهم فقط في ذلك العالم بنفس مراتبهم وطبقاتهم الاجتماعية والاقتصادية التي كانوا عليها في حياتهم

الأولى، ولا تغير أعمالهم الدنيوية شيئاً من هذا الواقع[49]. فالإحسان والخير لن يحسّنا من عيش روح فاعلهما في حياته الأخرى، إن كان قد واجه شظف العيش أصلاً في حياته الأولى، ولن تعاني البؤس روح فاعل الشر لهذا السب، طالما أن صاحبها قد عاش حياة الرفاهية في السابق. قد يؤكد ما ورد في حلم إنكيدو، الذي استشهدنا به في هامش رقم (٤٦)، هذا المعنى إلى حد ما، ولكن نائل حنون، يستشهد بنص آخر يمكن أن تُستقى المعلومات منه بشكل أكثر وضوحاً، وهو نص سومري جنائزي يحمل عنوان "موت أورنّمو"، الذي سيحتوي على وصف تخيلي لما رآه هذا الملك في عالمه الجديد، حينما نزلت روحه إلى هناك. فقد رأى الملك كيف أن الملوك والكهنة السابقين، قد احتفظوا بمناصبهم وسلطاتهم (على أموات البشر بالطبع)، وقد ذكر من أولئك، بوضوح، اسم جلجامش، الذي كان السومريون يؤمنون بأنه شخصية حقيقية[50].

وفي نهاية أسطورة "موت جلجامش" السومرية يبدأ جلجامش، عند دخوله للعالم السفلي بعد موته، بتقديم الهدايا لشخصيات محددة: من بينها أسماء آلهة وأخرى يرى كرامر أنها تمثل أسماءً بعض الكهنة، الذين كانوا ماتوا قبل فترة وجيزة من وضع/ كتابة الأسطورة، ويبدو أن هؤلاء كانوا مجموعة من كبار الكهنة الذين احتفظوا بمكانتهم بعد موتهم، في العالم السفلي، وكانوا شخصيات مبجّلة إلى درجة حرص جلجامش على إبداء احترامه لهم على النحو المذكور في الأسطورة[51].

قام جلجامش بن ننسون،

بإعداد التقدمات للآلهة....[52]

للميت...، للميت سنغو،

المخّو، أينتو

البشيشو

تعد خاتمة شريعة حمورابي[53] أحد الأمثلة الواقعية على عدم إيمان العراقي القديم

بوجود عقوبة أخروية يواجهها الإنسان بعد موته. ففي هذه الخاتمة يدعو حمورابي الآلهة إلى صب اللعنات على من يقوم بمحو قوانينه، وإبطال أحكامه. فقد سطر حمورابي هنا عشرات اللعنات، جميعها دنيوية، بما في ذلك الموت المفاجئ. ومن الأمثلة على تلك العقوبات: تجريد المعاقب من الملك، إضرام الثورات ضده، إصابته باليأس والويل، الإقصار من عمره وجعل أيامه المعدودة أيام ظلام وقحط، وتخريب مملكته ومدنه، محو ذكراه في البلاد، تجريده من الحكمة والمعرفة، طمر أنهاره وينابيعه ــ إرسال الفيضانات المدمرة على بلاده، تحطيم قوة جيشه وأسلحته في القتال،ــ تقويض أركان مملكته، تسليمه إلى يد أعدائه، إفناء شعبه، إصابته بالوباء الخبيث وبالمرض الذي لا شفاء منه. نرى أن جميع تلك العقوبات التي دعى بها حمورابي على من يريد كانت تقع في حياة الإنسان وليس بعد موته. وكانت من بينها دعوات بالموت مثل: "أن يجعل أيامه قليلة العدد" و "أن يموت فجأة" وأن "تنساب روحه انسياب الماء" و "أن تأتي عليه كلمة شمش المهلكة سريعاً فتقتلعه من بين الأحياء في الأعلى" و"عسى أن يلعنه إنليل باللعنات المؤكدة حتى تقضي عليه في الحال". وتعدّ هذه الدعوات التي تدعو بالموت على الملعون هي الأقسى بين جميع تلك الدعوات الأخرى، رغم ما تبدو عليه تلك من قساوة. ونرى في اللعنة النهائية التي يقول فيها: "وأن يظل يندب حياته حتى تنتهي، أفضل إشارة على أن العقاب الحقيقي كان هو عقاب الدنيا، وأن ذروة تلك العقوبات كان الموت، ولا شك في ذلك. فالموت بالنهاية هو هادم اللذات.

ولكن حسب هذا المنطق، فإنه بإمكان الشر أن يسود على الخير، طالما أن المسيء لم يكن ليخشى حساباً تفرضه عليه قوة عليا، أو يخاف عقاباً ينتظره حال موته. إن صحّ ذلك، فإن نظرة العراقيين القدماء كانت أقرب إلى النظرة العبثية للحياة وجدواها، وهذا قد يبدو صحيحاً إلى حد ما، بالنظر إلى الأسباب التي اعتقدوا أن الآلهة قد خلقت الإنسان من أجلها، وهي خدمة الآلهة فقط.[٥٤] فالبشر هنا خدم ليس لهم حقوق، وحينما

يتمتعون بامتيازات معينة أو ينجون من كارثة مدمرة أو يعمهم خير وفير، فإن ذلك لم يحدث لأن أياً من ذلك كان حقاً لهم بقدر ما كان رغبة إلهية أو مكرمة من أحد الآلهة الصديقة المحبة للإنسان.(٥٥) كذلك كان اللوم يقع دوماً على الإنسان بشكل عام ودون تحديد عند وقوع الشر، وذلك قد يكون منطقياً نوعاً ما إذا علمنا أن إحدى الأساطير الأكدية تردّ الإنسان في خلقه إلى مادة فاسدة، ألا وهي دم وحش أسطوري هزمه الإله الذي خلق الكون. حسب هذه النظرية التي أبرزها عالم الأديان المقارنة، إلياد، نفترض أن العراقي القديم كان يؤمن بأن الإنسان شرّير بطبعه مهما يفعل خيراً، وأنه ملام منذ أن خلق بسبب المادّة التي خلق منها،(٥٦) وبذلك يتساوى فاعل الخير مع فاعل الشر في نهايتها القاسية، وهي الموت. فالموت هنا هو أقسى عقوبة يمكن أن ينالها الإنسان، أما الحياة الأخرى فهي ليست سوى استمرار لحياته الأولى ولكن في عالم آخر مختلف تماماً عن سابقه. إذاً، ليس للأعمال التي قام بها الإنسان في دنياه أي تأثير على حياته في العالم الآخر.

إذا لم يكن هناك ثواب وعقاب أخروي، فهل يعني ذلك أن الإنسان العراقي كان معفىً من أية التزامات تجاه الآلهة وتجاه المجتمع الذي ينتمي له؟ بالطبع لا، فقد آمن العراقي القديم بوجود هذا المبدأ في حياته الدنيوية التي كانت في نظره هي أساس الحضارة والتقدم، وهي المجال الواسع الرحب الذي يستحق البذل فيه والعمل من أجل النجاح والازدهار فيه. هذا لعالم لا يمكن أن يضاهيه أي عالم آخر، حتى وإن كان العالم الآخر الذي يُعتَبر، لا محالة، مستقبل الإنسان وليس له أن يهرب منه. ولكن هذا العالم المستقبلي كان غامضاً مبهماً. وبالرغم من كل المحاولات الأدبية الشفوية التي بُذلت في سبيل سبر أغواره، فقد ظلّ هناك شكّ في مصير الإنسان فيه. ويدل على ذلك الطقوس التي كان يقوم بها العراقي القديم من أجل تحقيق الراحة لأرواح أمواته في عالمهم الآخر، وهو موضوع سوف نتحدث عنه أدناه.

لقد كان العراقي القديم، كما بينّا، قانعاً بحياته الأولى مكتفياً بها، كنصيب له من العالم الذي ينتمي له، ذلك أنه كان شخصاً عملياً يحب الحياة المتوفرة له ويحاول الاستمتاع بها قدر استطاعته. لذلك فقد كان جل ما يُثاب عليه الإنسان هو أن تطيل الآلهة في عمره، مع قدر وافر من صفاء العيش الذي يتمثل في التمتع بالصحة الموفورة والحصول على مساعدة الآلهة وحمايتها عند الخطر والمركز الاجتماعي والثروة وكثرة الأبناء، وغيرها من أمور دنيوية. أمّا أكبر عقاب يناله فهو الموت. وإذا جاء الموت مبكراً أو مفاجئاً فذلك يعني أن العقاب كان شديداً. وكدر الحياة بجميع أوجهه كان يُعدّ عقوبة إلهية أيضاً.(٥٧)

إذاً فقد كان ذلك هو الثواب والعقاب، فما الذي كان يُحاسب عليه العراقي القديم لينال أياً من تلك النتيجتين؟ تشير أسطورة خلق الإنسان بنصيها السومري والأكدي إلى أن الآلهة قد قامت بخلق الإنسان من أجل خدمتها فقط. ويعني ذلك بأن عمل الإنسان الرئيس هو خدمة الآلهة، ومن ثمَّ فمن لا يخدم الآلهة فهو قد أخطأ بحقها وبالتالي استحق عقابها. ولقد فُهم من تلك الأسطورة ما يجب على الإنسان أن يؤديه للآلهة من خدمات، كأن يقوم بإعداد طعامهم ومسكنهم وجميع احتياجاتهم، التي لا تختلف عن حاجات الإنسان في شيء. ويستطيع الباحث أن يستشعر أن في الأسطورة رغبة غير مباشرة في حثّ الإنسان على بذل الجهد المحمود في إعمار الأرض، ولا شك لدينا في أن ربط هذا العمل بخدمة الآلهة ليس سوى أداة تحفيز لهمة الإنسان. لكن الإنسان العادي البسيط، والذي يمثل النسبة الأكبر في المجتمع قديماً وحديثاً، فهم ذلك بشكل حرفي، واعتبر بناء المعابد والاهتمام بصيانتها والذبح لآلهتها، خدمةً للآلهة، وساعد على شيوع هذا الفهم استفادة كهنة تلك المعابد من تلك الممارسات، بسبب ما كانوا يحققوه من تنامي في ثرواتهم ونفوذهم الروحي، الذي تطور لاحقاً إلى سلطان مادّي. لقد أدّى تسنّم الكهنة على رأس السلطة أحياناً إلى المبالغة في فرض الضرائب على الناس. وربما كان ذلك بحجة إجبارهم على أداء فرائضهم تجاه الآلهة. ولعلّ ذلك

ينطبق على الوضع الذي ساد خلال الحكم الجائر للكهنة الذي سبق حكم الحاكم المصلح أورو-كاجينا في لجش، قرب نهاية عصر فجر السلالات السومري.

لقد فجّر الإصلاح الذي قام به أورو-كاجينا،(٥٨) معانيَ وقيماً جديدة تهم المجتمع الإنساني ككل. وبدأ الإنسان يحرص عليها أيضاً لإرضاء الآلهة. لا يعني ذلك بالطبع أن العراقي القديم لم يكن يعرف تلك القيم قبل إصلاح أورو-كاجينا، ولكن بالنسبة لنا، فإن هذا الإصلاح يمثل أقدم دليل نصّ على ذلك. بل إن محتوى نص هذه الوثيقة يدّل على شيوع مثل تلك الأعمال الإصلاحية في السابق، وأنه اعتمد على نماذج سابقة عليه في التاريخ العراقي القديم. يشير هذا الإصلاح بوضوح إلى أن الحاكم قام بإنصاف المظلومين و المستضعفين في مجتمعه، حيث انتزع لهم حقوقهم، من قبضة الحكام الكهنة. كما قام على الجانب الآخر بردع الأقوياء عن ظلمهم. إن ما يهمنا من ذلك هو أن أورو-كاجينا قد قام بهذه الإصلاحات بناءً على رغبة الآلهة. فعمل القوي للخير تجاه المستضعف، إذاً، يُعدّ استجابة لرغبة الآلهة يستحق عليها الثواب. تتكرر مثل هذه الإشارات في جميع القوانين والشرائع العراقية القديمة التي تلت ذلك الإصلاح، بما في ذلك شريعة حمورابي. بناءً على ذلك أصبح الفوز برضى الآلهة، حسب معتقد العراقي القديم، بهدف استحقاق ثوابها وتجنب عقابها لا يكون بخدمتها طقسياً فحسب، بل يتعداه لعمل الخير تجاه الناس الآخرين.

بما أن مفهوم الحساب لدى العراقيين القدماء كان ذا طابع دنيوي، فقد أبعدنا الحديث عنه عن موضوعنا الرئيس المتعلق بالموت. ولولا أن الموت هو أشد عقاب يمكن أن يواجهها المذنب لما اعتبرناه ذا علاقة بموضوع البحث. ولعل من الملائم أن نبحث في موضوع المصير الذي يتعرض له الميت في ذلك العالم الغامض المظلم.

مصير الميت:

لقد كان في الوصف الذي بدر عن أنكيدو للعالم السفلي كما رآه في حلمه، إلقاء لبعض الضوء على نظرة العراقي القديم لمصير الميت فيه[٥٩]. وفي أكثر من أسطورة تطلق عشتار تحذيراً مرعباً إن لم يُستجب لطلبات محددة لها قائلة[٦٠]:

سوف أقيم الموتى، وسيلتهمون الأحياء،

وسيفوق عدد الموتى عدد الأحياء

لم يكن ذلك بالطبع وصفاً حميداً لأرواح الموتى، ولم يبدُ أن عشتار قد فرّقت بين الموتى في ذلك، فحديثها كان معمماً على الجميع. يبدو لنا هنا أن الأموات لم يكن لديهم عقل أو أنهم لا يفكرون بشكل سليم كالأحياء، وإلاّ لما سعوا لأكل لحوم البشر الأحياء. الوصف الذي ورد في أسطورة "جلجامش وإنكيدو والعالم السفلي" قد يؤكد فكرة غياب العقل عن هؤلاء. إن ما يهمنا من هذه القصة بعض المقاطع ذات العلاقة لموضوع البحث، وأولها المقطع الذي يضع فيه جلجامش محاذير أمام إنكيدو عندما عزم الأخير على النزول طوعاً للعالم السفلي، من أجل إحضار أدوات تخّص سيده[٦١]:

إذا ما نزلت للعالم السفلي....

لا تلبس ثياباً نظيفة....

لا تتطيب،

كيلا يتجمعوا عليك جراء الرائحة.

لا ترم عصا الرماية،

لكيلا يطوقوك.

لا ترفع عصا بيدك،

لكيلا ترفرف حواليك أشباح الموتى.

لا تلبس في قدميك نعلاً،

لكيلا تحدث ضجيجاً.

لا تقبل زوجتك التي تحب،

ولا تضرب زوجتك التي تكره....

يتضح لنا من هذه النصائح أن العالم السفلي، حيث تعيش أرواح الموتى، لم يكن عالماً طبيعياً والحياة فيه لا تشبه حياة الأحياء، وأن على الحي الذي يذهب إلى هناك ألا يتصرف تصرف الأحياء، لكيلا تحيط به أرواح الأموات وتأخذه إليها. إن فكرة تزاحم أرواح الموتى حول الأحياء تذكرنا بقصص الرعب الحديثة، التي بلا شك قد أخذ فكرتها من الأساطير اليونانية التي بدورها تأثرت بأدب الشرق الأدنى القديم. وقد يكون هناك إيحاء في النص الذي استشهدنا به بأن تكالب الأموات بهذا الشكل على الشخص الحي كان سيؤدي إلى موته. قد يفهم ذلك من خلال العاقبة التي ألّمت بإنكيدو بعد أن خالف نصائح جلجامش(٦٢):

وعندما أراد إنكيدو الخروج من العالم السفلي...

قبض العالم السفلي عليه.

وجزع جلجامش لذلك وذهب عند الآلهة متوسلاً لديهم أن يعيدوه، ومحتجاً على طريقة حجزه في ذلك العالم، بأنه لم يمت موتاً طبيعياً. فهو لم يقتل في صراع عادي، وكان الإله إنكي هو الوحيد الذي استجاب لتوسلات جلجامش ولكن بقدر محدود، فهو لم يسمح بعودة إنكيدو من ذلك العالم إلا بروحه فقط، وذلك يعني أن إنكيدو قد مات فعلاً بفصل روحه عن جسده، وفصل الروح عن الجسد هو أهم علامة تميّز الموت لدى العراقي القديم.

وعند لقاء جلجامش بروح إنكيدو طرح عليه التساؤلات ذات دلالة بالغة فيما يتعلق بحال أرواح الموتى في العالم السفلي. تعبّر هذه التساؤلات عن قلق عميق تجاه مصير الإنسان بعد موته، يبديه السائل الذي هو بلا شك يتجاوز جلجامش إلى مؤلف الأسطورة خصوصاً، والإنسان العراقي القديم عموماً. ولم تكن إجابة إنكيدو، كما يبدو لنا على الأقل، تبدي تفاؤلاً تجاه المصير(٦٣):

إن أخبرتك عن أحوال العالم السفلي وكيف وجدته

يجب أن تجلس (و) تبكي، وسأجلس أنا وأبكي!

[زوجتك] التي لمست وسرّ قلبك،

تأكلها الحشرات الضارة [مثل رداء قديم.

[وابنك الذي] لمست وسُرّ قلبك،

[يجلس في شق] يعلوه الغبار.

يشير هذا المقطع إلى مصير بائس تعرض له شخصان مقربان جداً لشخصية كانت تحظى باحترام وتقدير شديدين في الأدب العراقي القديم، كشخصية جلجامش، وهما زوجه وابنه، رغم عدم وضوح ارتكابهما لأعمال تضر بهما، إضافةً إلى أنهما كانا ينتميان لطبقة الملوك التي يفترض أن أرواح أفرادها سوف تحافظ على مستواها الاجتماعي في العالم الآخر. قد يوحي هذا المقطع بأن روح الميت سوف تعاني البؤس في العالم السفلي في جميع الأحوال. لكن يبدو أن الأمر ليس كذلك فيما تبقى من إجابات إنكيدو لسيّده عن حال أرواح الموتى في ذلك العالم، فهو يتحدث عن أرواح تأكل الخبز النظيف وتشرب المياه النقية(٦٤)، ويبدو هنا نوع من التناقض حول هذا المصير قد يعكس غموضاً والتباساً في ذهن الإنسان العراقي القديم حول هذا الموضوع، ولكن المقطع الأخير من هذه الأسطورة يكاد يكون حاسماً في إعطاء فكرة أكثر وضوحاً عنه(٦٥):

رأيته، ذلك الذي رأيتَ أنت جسده ملقىً في العراء،

روحه لا ترقد (بسلام) في العالم السفلي.

رأيته، ذلك الذي رأيتَ أنت، الذي لا أحد يموّن روحه،

فهو يتغذى من بقايا الطعام وفتاة الخبز الملقى في الشوراع.

نفهم من هذا الحديث وبشكل مباشر أن من لم يُوار جسده التراب بعد موته وتُترك جثته ملقاة فوق سطح الأرض، فإن روحه ستقلق ولن تستقر في العالم السفلي المخصص للأموات، وستظل تهيم، في العراء، ما لم تُدفن. أمّا الروح التي لا تتلقّى تموينا كافياً من طعام وشراب من أهل صاحبها الأحياء، فإنها لن تحصل إلاّ على أسوء أنواع الطعام والشراب في مثواها، وهذا يقودنا إلى موضع هام يتعلق بطقوس الموتى عند العراقيين القدماء. إذاً فهناك أمران قد يؤديان إلى إقلاق الروح ومعاناتها بعد الموت وهما:عدم دفن الميت أولاً وثانياً عدم الاهتمام بتوفير الطعام والشراب له[٦٦]، وهو ما سوف نتحدث عنه في الأسطر اللاحقة.

كان الاعتناء بدفن الموتى وإقامة طقوس معينة لخدمة أرواحهم، من أبرز المهام التي حرص العراقي القديم على أدائها إلى جانب خدمة الآلهة، وتمثلت هذه العناية بعمليين رئيسيين، الأول: هو دفن الميت والآخر: أداء بعض الطقوس اليومية من بينها تزويده بالطعام والشراب وتقديم القرابين للآلهة. فيما يتعلق بالدفن، فقد كان العراقي القديم يخشى انتقام أرواح أقربائه الذين لم يؤدِ لهم مراسم الدفن كما يجب وذلك لإيمانه بأن هذه الأرواح لن تستقر في العالم السفلي، حيث ينبغي لها أن تكون. وهذا القلق لتلك الأرواح قد يؤدي بها إلى أن تحوم حول الأحياء من أقربائها، وتسبب لها الأذى كنوع من الانتقام لعدم اهتمامهم براحتها. فسكينة روح الميت وراحتها هنا تعتمد بدرجة رئيسة على بقاء الجسد مستقراً في موضعه تحت الثرى. إذاً فالضرر في حال عدم الدفن يقع على الطرفين، الميت وأهل الميت. كما أن نبش القبر بعد دفن الميت يُعدّ

عملاً سيئاً وقد يؤدي إلى عواقب غير حميدة لروح الميت، ونقتدي هنا بنسائل جفنون الذي استشهد بنص تاريخي يؤيد هذا الاعتقاد وهو عبارة عن نص لأحد الملوك الآشوريين، يوضح مدى اهتمامه بدفن أحد قادته المقربين متوعداً من يعمل على إقلاقه وهو مضطجع بالويل والثبور[٦٧]. ويبدو من ذلك أن نبش القبور قد يضر بتلك الأرواح، ولعل حرص الجيوش في التاريخ العراقي القديم، على نبش قبور أعدائها يعبر عن ذلك. بل إن هذه الجيوش وخصوصاً في العصر الآشوري الحديث كانت لا تعطي فرصة للأعداء لدفن موتاهم عن طريق جمع جثثهم في أكوام وجعلها كذلك لمدة طويلة[٦٨].

كان العمل الرئيس في شعائر الموت، هو القيام بتزويد الميت بطعام والشراب يومياً حتى لا تلجأ روحه إلى الخروج لعالم الأحياء، بحثاً عن الفضلات لتقتات عليها. ولقد رأينا في بعض النصوص التي استشهدنا بها أعلاه، أن بعض أرواح الموتى كانت تأكل التراب وتشرب الطين، وفي خاتمة شريعته دعا حمورابي بالظما على من يعمل على محو قوانينه[٦٩]. ويبدو أن العراقي القديم كان يحرص أشد الحرص على أداء تلك الشعائر حتى لا تخرج أرواح موتاه على هيئة أشباح مؤذية إلى عالم الأحياء[٧٠]، وحتى يضمن وجود من يقوم بذلك من أجله، بعد موته لكيلا تعاني روحه هو بعد موته من تلك الأوضاع البائسة، التي تتعلق لخدمة أرواح الآخرين بسد جوعه وظمأه. ونري هنا أيضاً أن الهدف من إقامة تلك الشعائر ليس لخدمة أرواح الآخرين كالأسلاف فحسب، بل أيضاً لضمان الحصول على مساعدة الآخرين كالأبناء مثلاً، عن طريق احترام تلك الشعائر من خلال التراحم والتواصل بين الأجيال.

يتوصل فان دير تورن، من خلال قراءته لملحمة جلجامش، إلى أن أداء مثل تلك الشعائر كانت يومية كما كان يفعل جلجامش لروح والده يوميا، ويبرر عدم ذكر تلك الشعائر كثيرا في النصوص الغير أسطورية، هو أنها كانت شعائرا عادية جداً ومألوفة بحيث لا تعدّ شيئاً يستحق الذكر[٧١]. كذلك توصّل هذا الباحث من خلال بعض

نصوص التعاويذ، إلى عدة أمور أخرى تتعلق بتلك الشعائر من بينها، أن الابن الأكبر هو من كان يقود تلك الشعائر، وهي من واجبات الابن البار، وتقام عادة في المنزل حيث يُدفن الموتى أسفل أرضيته، ولكن عند الضرورة يمكن أن تقام في أي مكان آخر كما اضطر لفعله جلجامش لروح أبيه لأنه كان في حالة الترحال[٧٢].

خاتمة:

وصفوة القول أن نظرة العراقي القديم لظاهرة الموت وما يترتب عليها تتلخص بما يلي:

١- آمن العراقي القديم بحتمية الموت بالنسبة إلى البشر مهما طال بهم الأمد، ونحن نرى ذكر أسماء أشخاص ذوي أهمية وملوك ينسب إليها أنها عاشت لفترة طويلة تصل لآلاف السنين في أحد المصادر التي عُرفت باسم سجلات إثبات الملوك.[٧٣] ومع ذلك فقد كان نهاية هؤلاء هو الموت في نهاية المطاف حسب نفس المصدر. وقد كان رجل الكوخ (زيوسدرا) هو الكائن البشري الوحيد، في نظر العراقي القديم، الذي استثني من ذلك المصير وكتب له الخلود كالآلهة.

٢- من يُكتب عليه الموت في وقت محدد ولسبب محدد فلن يستطيع الفكاك منه مهما حاول أن يفعل ولو كان إلهاً، وذلك ما انطبق على تموز عندما اختارته زوجه إنانا ليهبط بدلاً عنها للعالم السفلي.

٣- لم يؤمن العراقي القديم بإمكانية عودة الميت للحياة ،فما أن تنفصل الروح عن الجسد فلن يكون بإمكانها أن تعود إليه مهما حدث. بل إن ذلك قد ينطبق على الآلهة إلى حد كبير مع بعض الاستثناءات وتحت قيود وقوانين مشددة، كما رأينا في حال إنانا (عشتار).

٤-لم يؤمن العراقي القديم بوجود حساب بعد الموت يُثاب بموجبه المحسن ويُعاقَب المسيء، بل كان الإنسان يُثاب بما يحب خصوصاً بإطالة عمره مع تمتعه بالصحة الموفورة ويُعاقب بما يكره وخصوصاً بالموت، خلال حياته الدنيوية. وكان يظن أن روح الميت سوف تهبط للعالم السفلي بنفس المرتبة الاجتماعية التي كان عليها في حياته الأولى.

٥-اعتقد العراقي القديم أنه بعد أن تنفصل الروح عن الجسد، تذهب لتقيم في عالم مخصّص لإقامة الموتى أُطلق عليه عدة تسميات واُتفق على أنه يقع في أسفل سطح الأرض، لذا فهو يُسمّى العالم السفلي.

٦-يتصف العالم السفلي، في نظر العراقي القديم، بالظلام الدائم وتبدو فكرة العراقي القديم عنه غامضة ومبهمة نوعاً ما.

٧-يتعدّى هذا الغموض حول عالم الأموات إلى الفكرة عن حالهم فيه، فالنصوص تصور وضعاً بائساً لبعض الأموات وضعاً مريحاً للبعض الآخر دون وضوح سبب مباشر في نفس تلك النصوص في كثير من الأحيان.

٨-تؤكد بعض النصوص على اعتقاد العراقي القديم بأن أرواح بعض الموتى تعاني من القلق والظمأ وعدم الراحة والاستقرار لسببين واضحين هما: عدم دفن الميت والآخر عدم إقامة شعائر يومية له تتمثل في تزويده بالطعام والشراب اللازمين لغذاء روحه في مستقره أسفل الأرض.

قائمة بالاختصارات:

م. س.: المرجع السابق.

ANET J. P. Pritchard, ***Ancient Near Eastern Texts Related to the Oid Testament***, Princeton, 1969.

CAD Chicago ***Assyrian Dictionary***, Edited by l. J. Gelb and others, Chicago, 1964ff.

SM S.N. Lramer, ***Sumerian Mythology***, Philadelphia, 1961.

SP G. C. de Moor, ***The Seasonal Patterns in the Ugaritic Myth of Batu***, AOAT, 1971.

الحواشي

(١) نص الحديث: "أكثروا من ذكر هادم اللذات: بمعنى "مزيل اللذات" أو "هاذم اللذات"، بمعنى "قاطع اللذات". وفي الحالتين فالتعبير يدل على "الموت" انظر جلال الدين السيوطي "**الجامع الصغير**٢، رقم ١٣٩٦.

(٢) حول أسطورة بعل وموت انظر جـ حداد وس."مجاعص" **أناشيد البعل**"، بيروت، ١٩٩٥م، ٩٧-٤٨٠ و:

C.H. Gordon *the Loves and Wars of Baal and Anat,* Princeton. 1943; and J.C. de Moor. SP, 1971.

(٣) لعل أول من نزع لهذا النمط من التفكير هم الطبيعيون الميلتسيون، عن هؤلاء وعن هذا التفسير انظر برهييه (مترجم جـ طرابيشي)، **تاريخ الفلسفة** جـ١، بيروت ١٩٨٧، ٥٦-٦٣.

(٤) اللغة السومرية كانت هي لغة النصوص الأدبية السائدة في الألف الثالث ق.م، بينما أصبحت اللغة الأكدية وهي لغة مشرقية قديمة، لغة تلك النصوص الرئيسية خلال الألفين الثاني والأول ق.م. ولذلك تعتبر النسخ السومرية هي النموذج الأقدم لأي أسطورة عراقية قديمة.

(٥) تم كتابة ملحمة جلجامش في الألف الثاني والأول ق.م. علماً بأن الاعتقاد السائد هو أنها قد ألفت في وقت سبق ذلك بكثير ، والنسخة المتوفرة حالياً كتب معظمها باللهجة الأشورية الحديثة، بينما كُتب بعض مقاطعها باللهجة البابلية القديمة والاثنتان هما لهجتان للغة الأكدية. ونظراً لأهمية هذا العمل من الناحية الأدبية ومن ناحية المواضيع التي تحتويها، إضافة إلى كونها أقدم عمل أدبي متكامل، فقد اهتمت الأمم الحديثة بترجمة الملحمة إلى لغاتها الحديثة بما في ذلك اللغة العربية،

وتعدّ ترجمة طه باقر (ملحمة جلجامش، بغداد ١٩٨٦) هي أبرز الترجمات العربية لها.

(٦) انظر ي. تشريني (مترجم: أحمد قدري) الديانة المصرية القديمة، القاهرة، ١٩٩٦، ١٢٢-١٣١.

(٧) اهتمام النصوص الأدبية ذات الطابع الديني أكثر من غيرها بموضوع الموت هو أمر طبيعي، فالموت ظاهرة يومية اعتاد عليها الناس إلى درجة إهمال ذكره في النصوص العملية التي دوماً يكون لها اهتمامات أخرى، اقتصادية أو إدارية أو سياسية.

(٨) انظر ص. كريمر (مترجم: طه باقر)، من ألواح سومر، بغداد، ١٩٥٦، ٢٥٨.

(٩) اخترنا إحدى أحدث الترجمات المباشرة عن لغة الملحمة الأصلية وهي:

S. *Dalley*, *Myths from Mesopotamia*, Oxford, 1991, 39-153؛ انظر أيضاً الترجمة العربية (نجوى نصر) لهذا الكتاب س. دالي، أساطير من بلاد ما بين النهرين، بيروت، ١٩٩٧، ٦٥-١٨٩.

(١٠) حول هذا المقطع والذي يليه، انظر: ١٤٤ *Ibid*.

(١١) انظر ص. كريمر، م.س.، ٢٩٤؛ كذلك: S.N. Kramer, *ANET*,1969,48.

(12)*Ibid*., 50.

(13)S. Dalley, *Op. Cit*., 51.

(١٤) يقول جلجامش في هذا المقطع: "بكيته ليل نهار، ولم أسمح بدفنه. ألم يكن باستطاعة صديقي أن يقوم من الموت عند سماعه لصوتي؟ سبع ليال وسبعة أيام، حتى سقطت دودة من أنفه". انظر *Ibid*., 104.

(15) ***Ibid.***, 95.

(16)***Ibid.***, 149.

(17)***Ibid.***, 150.

(١٨) فنزل إلى الماء واغتسل. ثم تنشقت أفعى أريج النبتة. فانسلت بهدوء وأخذت النبتة. وبينما حملتها ورحلت، خلعت جلدها المحرشف. وعليه جلس جلجامش وبكى". انظر ***Ibid***,m 108-109.

(١٩)تعبير "العالم السفلي" ليس هو الترجمة الحرفية لجميع التعابير السومرية والأكدية الدالة على عالم الأموات ولكنه الوصف الأبلغ والأعم لهذا المكان سوف يتبين لنا، في معرض حديثنا عن أوصاف هذا العالم، أدناه.

(٢٠) أسطورة "جلجامش وإنكيدو وعالم الأموات". انظر ص. كريمر، م. س. ٣٢٤-٣٣٠و.: S.N. Kramer, SM, Philadelphia. 1961, 34-37.

يوجد أيضاً نسخة أكدية لهذه الأسطورة ولكن ألحقت بنهاية أسطورة جلجامش بما لا يتفق مع السياق العام لها، انظر S. Dalley, ***OP.Cit.***, 120ff.

(٢١) ظهر إنكيدو في هذه الأسطورة كخادم لجلجامش في نسختها السومرية والأكدية رغم أنه كان يوصف كصديق وندّ له في معظم أحداث ملحمة جلجامش يبرر ص. كريمر (م. س.٤٠ و S.N. Kramer, ***Op.Cit***) ذلك بأن التحوير بين الشخصين حدث في مرحلة لاحقة على يد الكاتب البابلي لملحمة جلجامش.

(٢٢) انظر الهامش ١٤ أعلاه.

(٢٣) من الأسطورة السومرية "هبوط إنانا للعالم السفلي". انظر م. س. ٢٦٣-٢٧٩*. لهذه الأسطورة نسخة أكدية ولكن يغيب عنها حدث رجوع الربة (وهي عشتار في اللغة الأكدية) إلى عالم الأحياء.

(٢٤) S. N. Kramer, 1969,ll . 180-192,pp55-56.

(٢٥) تصف الأسطورة هذا الحدث كالتالي: "دخل العفريت الأول الحظيرة، طعنه على خده بمسمار ثاقب، ...وضربه الثاني على خده بمحجن الراعي...لن يعيش دموزي بعد ذلك، حظيرة الغنم في مهب الريح، لقد مات دموزي". انظر ص. كرامر (مترجم: نهاد خياطة)، **إنانا ودموزي**، نيقوسيا، ١٩٨٦، ١٨٢-١٨٣.

(٢٦) لم ير ص. كرامر (١٩٥٦، ٣٢٣)، عمل هبوط الآلهة أو إنكيدو إلى العالم السفلي، طوعاً على أنه موتاً ولكنه احتجازاً فرضه آلهة العالم السفلي عنوة على هؤلاء. يتفق مع هذه الرؤية نائل حنون (**عقائد ما بعد الموت**، بغداد، ١٩٨٦، ٥٦-٥٧) الذي يلاحظ أن موت إنانا في الأسطورة السومرية لم يكن يعني أكثر من شل قدرتها على الحركة التي سرعان ما عادت إليها بمجرد رش ماء الحياة على جسدها. كذلك يرى نائل حنون (م.س. ٤٦-٤٨) أن مقتل الآلهة في أساطير الخليقة لم يؤدِ إلى فنائهم بشكل مطلق بل ظلوا موجودين وممثلين بعناصر الكون الرئيسية.

(٢٧) يرى نائل حنون (م.س.، ١٩٨٦، ٦٧) أن الغموض ما زال يكتنف الأسباب التي دعت إنانا (عشتار) للهبوط طوعاً إلى العالم السفلي. في هذا الصدد يرجح ص. كرامر (١٩٨٦، ١٥٨) أن إنانا (عشتار) كانت تطمح لأن تصبح ملكة العالم السفلي إلى جانب الأعلى العظيم.

(٢٨) ورد هذا التهديد على لسان عشتار بضعة مرات وفي عدة مناسبات من ضمن ذلك وعيدها لحارس بوابة العالم السفلي في الأسطورة الأكدية "**هبوط عشتار للعالم السفلي**". انظر نص هذا المقطع أدناه في معرض حديثنا عن مصير الميت. كذلك انظر S. Dalley, *Op. Cit.*, 155.

(٢٩) عن هذا الموضوع انظر أدناه في معرض حديثنا عن مصير الميت.

(٣٠) انظر نائل جنون، م.س. ٧٥-٧٦.

(31)*CAD7*, 177-178.

(٣٢) ينتمي هذا المقطع إلى نسخة أكدية أقدم من النسخة التقليدية للأسطورة وتعـــود للعصر الآشوري الوسيط. انظر *LKA* 62r. 13f.

(٣٣) ورد هذا في السياق في النصوص الأكدية بنسخها الآشورية الحديثة، التعبير لا يتَ ج ا رِ ت بمعني "لا عودة" وهي كلمة آرامية مســـتعارة ج ا ر ت "يحضـــر من، يعود". انظر *CAD7*, 325.

(٣٤) ظهرت هذه العبارة في أكثر من أسطورة أكدية. انظـــر S. Dalley, *Op.Cit.*, 89. 155, and 168.

(٣٥) انظر ترجمة الكلمة الأكدية (آشورية حديثة)، أي ط و بمعنى "يصبـــح مظلمـــا" في: *CAD4*, 412.

(36)Dalley, *Op,Cit.*, 155.

(37) N. Kramer, 1961, 118, n,87.

(38)Dalley, *Op,Cit.*, 123.

(39) *Ibid*, 158.

(40)*CAD8*, 564.

(41)Dalley, *Op,Cit.*, 155 and 158.

(42)*Ibid*, 176 and 168.

(٤٣) حول المعاني المحتملة لكلمة "كور" السومرية انظر لكل من:

S.N. Kramer, 1961, 13, 37f., and 76; Th. Jacobsen, ***The Treasure of Darkness***, London, 1976, 53; and s. N. Kramer and J. Maier, ***Myths of Enki, the Crafty God***, Oxford, 1989, 82-83.

(44)S.N. Kramer, 1961, 118, n, 87.

(45) *CAD1*, 226.

(46)S. Dalley, *Op,Cit.*, 88.

(٤٧) يقرأ المقطع الخاص بعلية القوم كالتالي: "ونظرت إلى البيت الذي دخلت، فرأيت التيجان مكومة...أولئك المتوجين الذين كانوا قد حكمـوا الأرض فـي الأزمنـة الماضية. أعدّ كهنة آنو وإنليل اللحوم المطهية بانتظام وحضّروا الخـبز وميـاه القرب الباردة. في بيت الغبار الذي دخلت، كان يسكن كهنة إينو ولكار...إلـخ". انظر *Ibid*,.

(٤٨) نائل حنون، م.س. ١٣٥.

(٤٩) م. س.، ١٤٥

(٥٠)م. س.، ١١٥

(51) S. N. Kramer, 1969, 51.

(٥٢) ذكر في النص عدد كبير من أسماء الآلهة ليس هنا المجال لكتابتها، أما الأسماء التي وردت في باقي الأسطر فهي التي تخص الكهنة حسبما يعتقد كرامر: *Ibid*, 51, n, 24.

(٥٣) فوزي رشيد، **الشرائع العراقية القديمة**، بغداد، ١٩٨٧، ١٦٨-١٧٤؛ و Th. J. Meek, *ANET*, 1969, 177-180.

(٥٤)اتفقت أساطير خلق الإنسان السومرية والأكدية على أن الآلهة خلقـت الإنسـان ليخدمها. عن الأساطير السومرية حول هذا الموضوع انظر فـراس السـواح، **مغامرة العقل الأولى**، نيقوسيا، ١٩٨٦، ٤٥-٤٩. كذلك انظر *A.Heidel, The Babylonian Genesis*, London, 1963, 46-53 عن أسطورة الخلق البابليـة

التي يوجد بها مقطع عن خلق الإنسان والدافع لذلك.

(٥٥)اشتهر كل من إله المياه إنكي (إيا) وإله الشمس أوتـو، بانحيازهما، لصالح الإنسان في كثير من المناسبات لإنقاذه من شر خطط له الآلهة مسبقاً، من ذلك قيام إنكي بالبوح لرجل الكوخ بالطوفان الذي خطط له الآلهة لإغراق البشرية. انظر ص. كرامر، ١٩٥٦، ٢٥٠-٢٥٩.

(56)M.Eliade (Trans.: W.R. Trask), ***A History of Religious Ideas I***, London, 1979, 72-73.

(٥٧)انظر: جورج رو (مترجم: ح.ع. حسين)، **العراق القديم**، بغداد، ١٩٦٣، ١٤٣-١٤٦.

(٥٨) عن إصلاح أورو-كاجينا انظر: طه باقر، **مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة: الوجيز في تأريخ حضارة وادي الرافدين**، بغداد، ١٩٨٦، ٣٢١-٣٢٢؛ وفوزي رشيد، م.س.، ١٠-١٥.

(٥٩) انظر هامش ٤٦ أعلاه.

(٦٠) انظر هامش ٢٨ أعلاه.

(٦١) انظر كرامر، ١٩٥٦، ٣٢٤-٣٣٠؛ و: S.N. Kramer, 1961, 34-37.

(٦٢) م. س.؛ و ***Ibid***.

(٦٣)م. س.؛ و ***Ibid***.

(٦٤) يقول إنكيدو هنا: "رأيت والد الاثنين (من الأبناء) يأكل خبزاً وهو جالس على قرميدتين، ورأيت والد الثلاثة يشرب الماء من قربة جلدية...إلخ". انظر S, Dalley, *Op,Cit.*,124. ومما يجدر ذكره أن هذا المقطع لم يرد إلاّ في النسخة الأكدية من القصة التي أُلحقت بنهاية أسطورة جلجامش. من هذا النص يُفهم أن

البعض كان يحصل على طعام وشراب جيدين ولكن السبب لا يبدو جلياً.

(٦٥) م. س.، ٣٢٤-٣٣٠؛ و S.N. Kramer, 1961, 34-37.

(٦٦) حول هذا الموضوع انظر كل من نائل حنون، م.س.، ٢٢١-٢٣٠؛ و:

K. Van der Toom, ***Family Region Babylonia, Syria, and Israel***, Leiden, 1996, 48-62.

(٦٧) نائل حنون، م.س.، ٢٣٠.

(68) H.W.F. Saggs, ***The Might that was Assyria***, London, 1984, 26lff.

(٦٩) فوزي رشيد، م. س.، ١٧٢.

(٧٠) نائل حنون، م.س.، ٢٨١.

(71) K. Van der Toom, ***Op,Cit***., 49.

(72) ***Ibid***., 48, 52, and 58-62.

(٧٣) عن هذا المصدر ، انظر طه باقر، م.س.، ٢٨٩-٣٠٣.

التجارة الكنعانية (الفينيقية) في البحر المتوسط

الدكتور أحمد حامدة

قسم التاريخ ــ جامعة دمشق

التجارة الكنعانية (الفينيقية) في البحر المتوسط

تتمثل الحياة الاقتصادية عند الفينيقيين بالزراعة والصناعة والتجارة، ولا نملك إلا معلومات مباشرة قليلة تتعلق بهذا الموضوع .

ونظراً لأهمية التجارة الفينيقية ودورها في انتشار الحضارة إلى العالم القديم، فقد آثرنا معالجة هذا الموضوع. ونستطيع أن نستدل أهمية التجارة عند الفينيقيين من:

الأوديسية لهومروس، ومن حوليات الملوك، والكتابات الآشورية المأثورة، ومن انتشار الآلهة الفينيقية(*)، ومن نقش نينوى، ومن نصوص متعددة في الكتاب المقدس: (الكتاب الأول من أخبار الملوك – سفر حزقيال – سفر اشعيا)، ومن مصارد متفرقة استنتجناها من النقوش الفينيقية، ومن المحطات التجارية الفينيقية التي انتشرت في أرجاء البحر المتوسط، وخصوصاً من قرطاجة، والتي عكست إلى حد "بعيد"الوضع الاقتصادي للوطن الأم.

من المعروف أن الفينيقيين كانوا أول من أنتج أربع مواد أساسية كانت مفقودة لدى بلدان حوض البحر المتوسط وهي:

الأخشاب والقمح والزيت والخمور، وعرف الإغريق الأرز اللبناني تحت اسم الأرز الفينيقي[1].

وجدير بالذكر أن غابات لبنان الكبرى لم تصدر الأخشاب فحسب، بل أنتجت

(*) نكرر ما ذكرناه مراراً، التسمية "الفينيقية" هي تلك التي أطلقها الإغريق على كنعانيي "الساحل الشامي" لا سيّما الأوسط منه. ولا نجد أثراً للتسمية "الفينيقية"، في وثائقنا المحلية. وأول مصدر يوناني يطلق التسمية "أوديسية، هومروس" وبعد ذلك هيكاتيوس الملتيسي وهرودوتس إلخ... "رئاسة التحرير"

القار (الزفت)، والصمغ (الراتنج) أيضاً لسد شقوق السفن، واستطاع الفينيقيون بواسطة الأرز الفينيقي، وبناء السفن الشهير، والملاحة المكتسبة من البابليين بمساعدة النجوم أن يكونوا ملاحين مهرة لعصرهم. كما أن الزيوت لم تستخدم كمواد غذائية فقط، بل استخدمت كمواد عطرية أيضاً.

لقد امتدت التجارة الفينيقية من الشرق إلى الغرب، وكان البحر المتوسط بحراً فينيقياً قبل أن يصبح بحراً يونانياً أو بحراً رومانياً. ولما توسعت الأسواق عمل الفينيقيون سماسرة للبضائع من كل الأصناف والأنواع، حيث كانت تنقل هذه البضائع من الشرق إلى الغرب بواسطة السفن [٢].

وازدهرت التجارة مع المستعمرات والمحطات التجارية وبخاصة مع قرطاجنة، ووصلت حتى شمال إفريقية، وصقلية، وأسبانية، وسواحل الأوروبية، وتكونت مراكز تجارية في كورنثوس، وتاهيرا، وكاثيرا، وتاسوس [٣].

وصدّر الفينيقيون موادهم وبضائعهم، وحصلوا مقابل ذلك على المعادن والأواني الفخارية، وحتى الكهرمان الشمال أوربي، والقصدير الإنكليزي، وتاجروا أيضاً بالعبيد والخيول والبغال والعاج والحجارة الثمينة، والأقمشة وخشب الأبنوس من بلاد العرب، ووصلوا عبر البحر الأحمر إلى مراكز تجارة الذهب الأفريقي.

بالإضافة إلى ذلك، قامت علاقات تجارية امتدت إلى داخل فلسطين لعبور البحر الأحمر، وحتى الجنوب الغربي لشبه جزيرة العرب، والسواحل الأفريقية المقابلة لها [٤].

لقد كان الفينيقيون ما بين ١٢٠٠ ق. م إلى ٨٠٠ ق. م قوة تجارية لا منافس لها، وعملوا آنذاك على احتكار التجارة العالمية، وشحنوا منتجات مصر وبابل وآشور وسورية إلى العالم اليوناني وإلى شمال أفريقية، وصقلية، واسبانية، وحتى سواحل الأوروبية [٥].

وأتى الدوريون الذين اقتحموا بلاد اليونان في القرن الثاني عشر ق.م كقوة بريـــة، إلا أنهم لم يكونوا متدّربين على الاستفادة من الموانئ و الخلجان والطبيعة التي أنعـــم الله بها على السواحل الإيجية، كما لم يتقنوا أعمال التجارة في حالتهم البربرية المتوحشة، وكانوا عاجزين عن أن ينتجوا بأنفسهم ويقدموا ثمن البضاعة، إلا أنهم رغم ذلك كانوا يطلبون أجود منتجات الشرق، لذلك سمحوا للتجار الفينيقيين أن يعرضـــوا بضائعـــهم للبيع في الساحل الدوري. وهكذا دخل الفينيقيون إلى العالم اليوناني، وأسسّوا محطـات تجارية في كورنتوس، وتاهيرا، وكاتيرا، و تاسوس [٦] .

دامت سلطة الفينيقيين المطلقة على البحر المتوسط، وبحر إيجة، والبحـــر التـيراني ثلاثمائة سنة كاملة، إلا أن تجارتهم الرئيسية كانت مع بلاد اليونان، ولم يكـــن عنــد اليونانيين أي شيء يقدمونه للفينيقيين على موادهم الكمالية إلا المعادن والعبيـد. وقــد أظهر الفينيقيون حبهم الشديد لليونانية الشقراء زرقاء العينين، وعندما يســتطيعون أن يحصلوا على شيء ثمين يشتهونه ليس عن طريق التجارة فكانوا يختطفونه دون تردد.

إلى جانب خبرة الفينيقيين في الملاحة البحرية، استخدموا علم الفلك واستفادوا منه فـي هذا المجال، وأخذوا معرفتهم الفلكية عن البابليين، وبذلك تمكّنوا من الإبحار في الميـاه المجهولة، وبواسطتها اهتدوا إلى طريقة سير النجوم.

وجاء القرن الثامن قبل الميلاد، وأحسّ سكان اليونان الجدد بمزايا وطبيعة وطنـــهم وبنوا السفن، وبدؤوا يتنافسون مع الفينيقيين أولاً في مياههم الخاصة في بحر إيجة، ثم ابتعدوا بعد ذلك إلى صقلية، وجنوب إيطالية، ومصر، وبذلك أخـــذوا مـــن المعرفـــة الفلكية للفينيقيين، وأجروا تطبيقاتهم، واستفادوا من الملاحة بشكل مستقل، وهكذا دخلوا منافسين للفينيقيين وخرجوا فائزين عليهم، وانسحب الفينيقيون بالتدريج من بحر ايجـة، وبحثوا عن أسواق أخرى في غرب البحر المتوسط [٧].

ولم يكن مستغرباً أن تزداد ثروة وغنى المدن الفينيقية، مما حـــدا بالآشـوريين إلـــى

الزحف بقواتهم حتى الساحل الفينيقي، وأخضع آشور بانيبال(٨٨٣ ق. م-٨٥٩ ق. م) كلاً من صور وصيدا وجبيل وأرواد، وفيما بعد تكرّر وصول الملوك الآشوريين إلى ساحل البحر المتوسط، ودفعت المدن الفينيقية قسماً من أرباحها التجارية على شكل أتاوات وضرائب للآشوريين عن طريق القوة.

وعلى الرغم من ذلك فلم تتضرر التجارة الفينيقية، وهناك تقارير ونقوش بارزة في حوليات الملوك الآشوريين تظهر النجاحات التي حققها الآشوريون، وعدد الغنائم الآشورية. وهذا يدل على ثرواتهم الساحلية، وهناك نقش بارز لا يعطي فقط صورة للسور المحيط بالمدن الفينيقية، بل يظهر قسماً من الأسطول الفينيقي[٨].

ويجدر بالذكر أن نوعين رئيسيين ظهرا على نقوش آشورية بارزة من نينوى، يظهران هروب لولي من مدينة صور: النوع الأول يعالج أغراضاً حربية واضحة ويشغل مؤخرة السفينة الخلفية، ومقدمة السفينة بارتفاع سطح الماء، حيث انتظم البحارة في صفين فوق بعضهما البعض، وامتد المجدفون من السطح الداخلي نحو البحارة وعلقوا الدروع على السطح العلوي، وارتفعت معدات الشرع لفتح الشراع فوق السفينة.

أما النوع الثاني فربما كان سفينة تجارية، يظهر جندياً للدفاع، وكلا الطرفين كان مرتفعاً، ووزع عمال الزورق كما في النوع الأول، لكن فقدت معدات الشراع فوق هيكل السفينة.

إضافة إلى ذلك وجدد نموذج ثالث لزورق صغير، وعلى نقش صارغون الثاني في خورسباد، أحد عمال الزورق الخلفيين يحمل رأس حصان، والمجدفون يجلسون في صف واحد بينما لم يُلاحَظ المحاربون ولا الدروع.

نستنتج من النقوش المذكورة ومن شكل السفينة التجارية أن سفن النقل البسيطة والمتواضعة لم تكن محمية وخلت من وسائل الدفاع.

هذا وقد اتبّع الفينيقيون مبدأ الإمكانية في رحلاتهم البحرية، وعملوا على جعل مراسيهم لا تبعد أكثر من سفر يوم واحد عن بعضهم، وبذلك يستطيع المرء أن يمضي ليله في البر، وعلى الرغم من ذلك فلم يخافوا أمام الأهداف البعيدة، واستخدموا الجزر معاقل لهم في البحر المفتوح، وبذلك كانت هذه الجزر قواعد استراتيجية للفينيقيين(٩).

وتضاءل مجد الفينيقيين مع دخول الآشوريين إلى الساحل الفينيقي، لكنه لم ينطفئ، واستمر الفينيقيون في السيطرة على المعاملات التجارية والاقتصادية ما بين موانئهم الخاصة ومصر وشمال أفريقية وبحر الغرب، وحققوا من جراء ذلك أرباحاً هائلة، وتوزعت إيراداتهم على شكل إتاوات وضرائب مع شريكهم الملك الآشوري، ولم يكن مستغرباً أن ثارت وتمرّدت المدن الفينيقية على الظلم الآشوري. وكانت سيادة الآشوريين وخلفائهم البابليين الجدد (عائقة) جداً، فهم لم يحدّدوا التجارة الفينيقية، بل تقاضوا إضافة إلى ذلك نصيب الأسد من الأرباح.

وسقطت نينيوى عام ٦١٢ ق. م ، وبادت بابل عام ٥٣٨ ق. م واستقبل ذلك بالترحاب والتهليل في مدينتي صيدا وصور، واعتلى الفرس العرش واستبشر الناس بالمجد والشهرة وأفضل الأيام للفينيقيين، وأصبح ملك صيدا حليفاً للفرس، وأمير البحر في الأسطول الفارسي، وتبيّن فيما بعد سيطرة الأخمينيين، وجشع القواد الفرس اللامحدود، ووجد الفينيقيون أنفسهم في الوضع نفسه الذي كان في ظل الآشوريين، وأصبح الفرس من الآن فصاعداً مسؤولين عن التجارة البحرية للعالم القديم. لكن ما بقي لهم من الأرباح وما بذلوه من جهود بعد دفع الضريبة للملك الكبير وقواده الجشعين هو قليل من التعب، لذلك لم يكن مستغرباً أن نجد صيدا وصور وأرواد وطرابلس تقف إلى جانب القواد الفرس المتمردين، أو إلى جانب مصر، وهذا يمكن أن يؤدي بالتالي إلى تدمير مدنهم.

ومن المدهش أيضاً ما رأيناه من معظم المدن الفينيقية التي فتحت أبوابها أمام

الاسكندر المقدوني عدا مدينة صور، التي بدأت مقاومة مستميتة، بينما استسلمت صيدا راضية للإسكندر، وساهمت فيما بعد بطريقة فاصلة في قرار مدينة صور بالمقاومة، وذلك بسبب التنافس الشديد بين هاتين المدينتين.

واحتفظت فينيقية في ظل الفترة الهلنستية بمركزها، ولم تعد التجارة البحرية في أيدي الفينيقيين لوحدهم، بل شاركتهم رودوس بقسم كبير، وأصبحت الإسكندرية مركزاً لتجارة العالم القديم، ومع ذلك كان أمراء البحر الكبار هم فينيقيين، فمثلاً فيلوكليس أمير البحر لديميتزيوس بوليوكيتس هو من مدينة صور، كذلك ازدهرت المدن الفينيقية في أيام البطالمة، ومن ثم السلوقيين المتأخرين. وانفتح العالم اليوناني مجدداً لهم، وتدفقت الدماء الهندوأوربية في هذه المرة من اليونان ومقدونية، وهذا أعطى الشعب القديم انتعاشاً جديداً، وأصبح هيلينياً في الواقع، لكنه لم ينسَ بهذا إرثه .

أما في الفترة الرومانية، فقد شغل الفينيقيون واليونانيون حيزاً كبيراً من التجارة في الدولة (المملكة- الإمبراطورية) الرومانية (١٠) .

كان لموقع فينيقية على الساحل الشرقي للبحر المتوسط، وطبيعة أرضها التي تكوّنت من أرض ضيقة محصورة بين مصب نهر العاصي شمالاً ونهر بيلوس وفلسطين جنوباً، ويحدها من الشرق جبال اللاذقية وسلسلة جبال لبنان، ونظراً لاقتراب الجبال من البحر باحتياجات السكان ، كما أن انتشار السلاسل الجبلية جعل اتصال السكان بالداخل وفيما بينهم صعباً إلى حد كبير، مما حدا بهم للتوجه نحو البحر، يعيشون على أسماكه في بداية الأمر، ثم اتخذوه سبيلاً للتجارة مع الأقطار المطلة عليه، حتى برعوا في هذا المجال. وساعدهم على ذلك أمور متعددة أهمها إلفتهم للبحر الذي عاشوا على شواطئه، ووفرة أخشاب الأرز على الجبال المجاورة لهم مما مكنهم من استخدامها، كذلك لعب صفاء السماء دوراً في استعانة الفينيقيين بالنجم القطبي في أسفارهم.كل ذلك ساهم في نجاح الفينيقيين في التجارة.

وكانت البضائع الخفيفة الوزن تنقل براً على ظهور الدواب، بينما كانت الطرق البحرية والنهرية تستخدم كلما سنحت الفرصة لنقل البضائع الثقيلة مثل الخشب[١١].

وتوضح النقوش الآشورية سفناً نهرية صغيرة يقودها فينيقيون، وهي تفرغ حمولتها من الخشب في بلاد ما بين النهرين.

كما يتردد ذكر تجار جبيل في الكتابات المصرية ابتداء من المملكة القديمة فصاعداً وليس مستبعداً أن تكون الملاحة والتجارة والتبادل الفكري قد استمر بين المنطقتين بدون انقطاع حتى استقلال فينيقية.

وقد شجعت الإمبراطوريتان المصرية والآشورية هذه التجارة كما رأينا، لما كانت تعود عليهما من فوائد اقتصادية. وقد تركت المدن الساحلية تمارس هذه التجارة بحرية وبدون تدخل من هاتين القوتين[١٢].

لقد برع الفينيقيون في صناعة الصباغ الأرجواني، وجاء اسمهم (الفينيقيون) بسبب شهرتهم بهذا الصباغ، الذي يكلف الحصول عليه وقتاً ومالاً كثيراً.وجدير بالذكر أن الفينيقيين لم يتاجروا بهذا الصباغ بل تاجروا بالأقمشة المصبوغة به. لقد استوردوا الحرير الغالي الثمن من الصين، وصبغوه بالأرجوان الفينيقي الصنع، وكلف كل نصف كيلو غرام من الحرير حوالي ثمانية وعشرين ألف دولار[١٣].

أما الصوف والأقمشة الأخرى، فقد جلبوها من المناطق المجاورة لفينيقية، وكانت أسعارها سخية، والكتان الخفيف استوردوه من مصر.

وقد عرف الأرجوان الأحمر، والقرمزي الذي كان أرخص أنواع الأرجوان ومع ذلك فظل مرتفع الثمن . وكان يحتفظ به دون غيره لملابس الأعياد، ويستخدمه الوجهاء وذوو المناصب الحكومية والدينية [١٤].

لقد كان تصنيع الأرجوان على طول الساحل الفينيقي بكامله، وفي مستعمرات فينيقية كثيرة إلا أن أرجوان مدينة صور بقي هو الأغلى ثمناً، واستعمل في روما رمزاً للإمبريالية، ومُنِعَ من الاستعمال العام بين الآونة والأخرى [١٥].

دليل آخر على تجارة الفينيقيين يقول النص ما يلي:

(نحن بني كنعان من صيدا، من مدينة الملك، التجارة قذفتنا إلى هذا الساحل البعيد أرض الجبال، نحن ضحينا بشاب للآلهة العلوية والإلهات العاليات في السنة التاسعة عشرة لحيرام ملكنا العظيم، وذهبنا من إيزيون وحبير في البحر الأحمر، وسافرنا مع عشر سفن، وصرنا في البحر جميعاً(معاً) سنتين اثنتين حول الأرض التي لهم، وافترقنا فجأة بسبب عاصفة، ولم نبق مع رفاقنا، وجئنا إلى هنا اثنا عشر رجلاً وثلاث نساء إلى الساحل الذي أنا عليه أمير البحر أراقبه، لترضى الآلهة العلوية والإلهات العاليات.) [١٦] .

يفيدنا النص المذكور في أن التجارة قذفت بهم إلى البلاد البعيدة من جهة أخرى يشير إلى منصب أمير البحر الذي كان عمله مراقبة البحر .

كما يوضح لنا نقش أبي بعل الذي يعود للقرن العاشر قبل الميلاد واكتشف في مدينة جبيل وجود علاقة تجارية قديمة بين مصر ومدينة جبيل، يقول النص الآتي:

(هذه الصورة (اللوحة التذكارية) حضّرها أبي بعل ملك جبيل، ابن يحيملك ملك جبيل في مصر، لإلهته بعلة جبيل، وسنيه على جبيل) [١٧].

لقد اشتهر الفينيقيون بمهارتهم في الأعمال النحاسية والبرونزية والمعادن الثمينة، وكانوا يحصلون على النحاس من قبرص وبعض البلاد الآسيوية، وعلى الذهب والفضة من أثيوبية، وربما من آسية الصغرى، وكان الطلب على هذه المعادن والقصدير كبيراً، ولذلك سعى الفينيقيون للحصول عليها أينما كانت متوفرة. ورغم أنه لم يعثر على بقايا معامل المعادن حتى الآن، إلا أنه ربما يعثر عليها في المستقبل، وذلك لأن ذكر مصاهر الحديد والنحاس يرد في نقوش العمران الجنائزية، كما تظهر عليها صور المطارق والمقابض وأدوات أخرى مماثلة، كما أن هناك إشارات في كثير من الكتب القديمة على مهارة هؤلاء العمال الفينيقيين في هذا المجال [١٨]. هذا

وقد امتاز الفينيقيون في صنع وتصميم أدوات الزينة المعدنية من الفضة والذهب: والدليل التالي يخدمنا في هذا الموضوع:

نقش بت نعم المكتشف في مدينة جبيل والذي يعود للقرن الرابع قبل الميلاد. يقول النقش الآتي:

(في هذا التابوت (أرقد) أنا بت نعم، أم الملك عزي بعل ملك جبيل، ابن فلط بعل كاهن بعلة (جبيل)، بثوب وقلنسوة (غطاء الرأس للسيدات) علي (على رأسي) وعلبة أحمر الشفاه الذهبية لفمي مثل أمهات الملوك اللواتي كن قبلي.) (١٩).

يرشدنا النص المذكور إلى صناعة الملابس، واستعمال أدوات الزينة، ووجود الذهب والعلب الذهبية الموجودة ضمن الأثاث الجنازي الذي كان يدفن مع الأموات .

كذلك وجدت أنواع من العقود والأقراط والقلائد والأساور ليس في فينيقية وقبرص فقط بل في قرطاجة وسردينية. أما أدوات الزينة فقد وجدت في إسبانية، وظهر بأنها من صنع فنيين محليين تأثروا بالفينيقيين.

كما وجدت الأواني والأدوات الفخارية وبأعداد كبيرة في كثير من الأماكن الفينيقية(٢٠).

بالإضافة لما تقدم، لدينا نقش تبنيت المكتشف في مدينة صيدا، والذي يعود لنهاية القرن السادس قبل الميلاد، ويمكن أن نستنتج من النص أن بعض الملوك، السابقين قد كنزوا في قبورهم الذهب والفضة والأشياء الثمينة، ونتساءل كيف حصل هؤلاء الملوك على الذهب والفضة والأشياء الثمينة، ولا نجد إلا جواباً يشير إلى ممارستهم للتجارة وجمعهم الكنوز والثروات التي ترافقهم إلى الأبد.

يقول النقش ما يلي:

(أنا تبنيت كاهن عشتروت ملك الصيدونيين، ابن اشمن عزر كاهن عشتروت ملك

الصيدونيين، أرقد في هذا التابوت، لتكن من كنت إي إنسان يطأ هذا التـــابوت؟ لا لا تفتح عليّ (لا تكشفني) ولا تزعجني، لأنه لا أحد أدى لنا (أرانا) فضة، لا أحد أدى لنا (أرانا) ذهباً، أو أي شيء ثمين، غير أنني أرقد في هذا التابوت. لا لا تفتـــح علـــيّ، وإزعاجاً تزعجني، فلن تكون لك ذرية (أولاد) في الحياة تحت الشمس، ولا قبر بيـــن الأموات.) (٢١).

أما نقش كيلامو الذي يعود للقرن التاسع قبل الميلاد والمكتشف أثناء الحفريـــات فـــي زنجرلي فيرشدنا إلى الفضة والذهب والكتان والحيوانات التي كانت تربى آنذاك وهـذا كله يساهم في عملية التجارة سواء أكانت داخلية أم خارجية يقول النص ما يلي:

(....أنا كيلامو بن حيا، جلست على عرش أبـــي، أمـــام الملـــوك الأقدميـــن عـــوى الموشكابيم مثل الكلاب، وأنا لمن (للواحد) كنت أباً، ولمن (للثاني) كنت أمـــاً، ولمـــن (للثالث) كنت أخاً، ومن ما رأى من قبل شاة، جعلته صـــاحب قطيـــع غنـــم، ومـــن ما رأى من قبل بقرة جعلته مالكاً قطيع بقر ومالكاً فضة ومالكاً ذهباً، ومـــن مـــا رأى الكتان منذ صغره، كسوته في أيامي بثوب ......) (٢٢) .

كذلك اشتهر الفينيقيون بصناعة العاج والحفر على العظام، وقد وجد صنـــــدوق مـــن العاج في مدينة أور، يعود للقرن السابع قبل الميلاد، وجد على غطاء هذا الصنـــدوق نقش فينيقي اكتشف أثناء التنقيبات الإنكليزية في تل المقير في أور، في جنوب ما بيـن النهرين. يقول النقش ما يلي:

(هذا الصندوق أهدته أمه بعل، بنت فطاس، عبدة .... هدية لآلهتها عشترت، لتباركـها في أيامها. سيدنا ... ابن يساد.) (٢٣).

أما عن مهارة الفينيقيين في الأعمال النحاسية والبرونزية فلدينا النقش التـــالي الـذي اكتشف في مدينة كيتيون (لارنكا اليوم) ويعود للقرن الرابع قبل الميلاد:

(في اليوم الرابع والعشرين من شهر ميرفا، في السنة السابعة والثلاثين لحكم بومـــي

ياتون ملك كيتيون ودالي، ابن الملك ياتون ملك كيتيون ودالي. التمثال هذا الذي وهبته وقدمته من النحاس (البرونز) ياش زوجة بعلات ياتون، خادم معبد عشترت، ابن سمعا، ابن يأتون، لربتها عشترت، لتسمع دعاءها) (٢٤).

لقد كان الملك في المدن الفينيقية ملكاً حكم البلاد، وكاهناً للآلهة، وقائداً أعلى للجيش، وبناء للمعابد والتحصينات والأسوار، كما كان تاجراً كبيراً ويستدل من الوثائق الكتابية أن الملك كان على رأس التجارة، ولعب دوراً ملحوظاً فيها فكان أكبر مالك للسفن، كما وجد تحت تصرفه عدد من العملاء التجاريين الذين يحققّون عمليات تجارية لحسابه وبتكليف منه في البر والبحر(٢٥). وإليه يعود تحديد وإقرار الملاحة البحرية والتجارة، ولهذا كان ينظر إليه على أنه التاجر الأول في المملكة، ويخدمنا بهذا الخصوص الدلائل التالية:

- حكم حيرام الأول(٩٦٩ ق. م- ٩٣٦ ق. م)، وقد ربح بسبب التجارة في البحر المتوسط والبحر الأحمر ثروات كبيرة استثمرها في إقامة المباني الضخمة (٢٦).
- وكتب نجيب ميخائيل ابراهيم قائلاً: خاض الملك مغامرات مستمرة بسبب نشاطاته التجارية على وضعه كملك (٢٧).
- ومن رسالة حثية اهتمت بنقل الحبوب في إحدى المجاعات في الساحل الجنوبي من الأناضول استنتج نوغايرول Nougayrol أن ملك أوغاريت كان يأمر عند شحن كل سفينة أنه يؤخذ حوالي ٥٠٠ طن من على ظهرها (٢٨)، وهنا يشك المرء في هذا الرقم كما يشك في حمولة السفينة.
- لدينا النص KTU ٤.٣٣٨ ، الذي نستنتج منه أن الملك كان يقوم باستئجار السفن من أجل التجارة ونقل المواد التجارية (٢٩). يقول النص ما يلي:

  - ٥٤٠ شيكلاً

- فضة من أجل السفن
- التي انضمت إلى سفن (اسطول أوغاريت التجاري)
- إلى ملك جبيل
- ٥٠ شيكلاً فضة
- أخذ ملك جبيل
- من أجل سفينة
- ٤٠ شيكلاً فضة
- أجارها

كذلك لدينا الوثيقة KTU .٢.٣٨ [٣٠]، التي تمثل رسالة موجهة من ملك صور إلى ملك أوغاريت، وتظهر عمق العلاقات بين أوغاريت وجبيل، كما تشير إلى وجود علاقات تجارية نشيطة بين ملك أوغاريت من جهة، وكل من مصر وجبيل وعكا من جهة أخرى.

قوانين المعاملات التجارية البحرية:

يعتبر الفينيقيون أول من وضع قوانين المعاملات التجارية البحرية، التي عرفت باسم Rhodian Law، نسبة إلى جزيرة رودوس. وينص القانون على أن أية خسارة يتكبدها قبطان بحري نتيجة محاولاته لإنقاذ سفينته إذا تعرضت للخطر (غرق مثلاً)، لابد أن يتقاسمها جميع أصحاب البضائع الذين لهم بضائع في هذه السفينة بنسب معينة، ومثلاً إذا اضطر قبطان سفينة لرمي بضاعة أحد التجار في البحر في سبيل إنقاذ سفينة من غرق محدّد فإن خسارة هذا التاجر يتحملها كل التجار الذين لهم بضاعة في السفينة وصاحب السفينة. وكان هذا القانون مطبقاً في كل أنحاء حوض

البحر المتوسط ويعرف في القانون البحري الحديث باسم Gross Average (٣١)

العملة الفينيقية:

بدأ استخدام العملة في التجارة في بلاد الإغريق في القرن السابع قبل الميلاد، وشاع في بداية القرن السادس ق. م . إلا أن الفينيقيين لم يهتموا بفكرة استخدام العملة مبكراً، رغم ميولهم ونزعاتهم التجارية القديمة واتصالاتهم الكثيرة واحتكاكهم مع أقوام بدائية في معاملاتهم التجارية، أكسبتهم مهارة في استخدام أسلوب المقايضة. وحتى عندما كان الفينيقيون خاضعين لسيطرة الفرس لم يقوموا بأية محاولة لصك عملة، لأنهم لم يروا فائدة من ذلك، ولأن تجارتهم مع بلاد الإغريق كانت قد اضمحلت تماماً.

وحوالي منتصف القرن الخامس ق. م، ضُرِبَت أول عملة فينيقية في صور، وتبعتها صيدا وأرواد وجبيل في أواخر القرن الخامس ق. م أوائل القرن الرابع ق. م وربما يدل على هذا الضعف السياسي الذي أصاب الإمبراطورية الفارسية وانبعاث التجارة الفينيقية مع بلاد الإغريق. أما باقي المدن الفينيقية فلم تضرب عملتها حتى الفترة الهلنستية، وقد كانت هذه النقود مصنوعة من الفضة أو البرونز، أما العملة الذهبية السائدة آنذاك فكانت الدارية daric، نسبة إلى دارا الفارسي(٣٢).

أما المدن الفينيقية في الغرب، فقد بدأت صك عملتها في وقت لاحق، وكانت أول نقود قرطاجية تتكّون من ذهب على الطريقة الفينيقية، ومن دراخما فضية على مقياس عملة آتيكة، وقد ضربت هذه النقود في صقلية في نهاية القرن الخامس ق.م، عندما كانت قرطاجة في حاجة إلى نقود لتدفع المرتبات لجنودها، وقد صكت هذه المجموعة من النقود على الطريقة الفينيقية من ذهب وبرونز والكتروم (مزيج طبيعي من الذهب والفضة).

أما العملات الفضية فقد كانت نادرة حتى أواخر القرن الخامس ق.م، حين استولى

حميلكار على مناجم الفضة الإسبانية، ومنذ نهاية القرن الثالث ق.م سادت النقود البرونزية في قرطاجة وانتشرت إلى أماكن عديدة حتى بريطانية .

أما المدن الفينيقية الأخرى في الغرب، التي كانت تمتلك عملات خاصة بها وذلك قبل القرن الثالث ق.م، فتتمثل في صقلية التي بدأت في صك عملتها في القرن الخامس ق.م، وقادش، وأبيزا (القرن الثالث ق.م)، وكانت قرطاجة تملك دار صك في قرطاجة الجديدة في إسبانية، وكان معظم عملاتها من الفضة (٣٣).

وفيما يلي لدينا نقش من مدينة كيتيون (لارنكا اليوم) يعود للقرن الرابع أو الثالث ق.م، والنقش عبارة عن قائمة بمصاريف إدارة أحد المعابد في كيتيون، يقول النص:

(مصاريف شهر ايتانيم هي: بهلال شهر ايتانيم ٢ قفا وربع لآلهة الهلال. للبنائين الذين بنوا معبد عشترت في كيتيون قفا...... للحراس الأماميين. والناس الذين يحرسون على الباب ٢٠ قار. وللناس من فئة بعر الذين أدوا الخدمة المقدسة في هذا اليوم قفا. للصبيين الاثنين ٢ قفا. للذباحين الاثنين (كاهني الأضاحي) قار واحد. للرجلين الاثنين الذين(جلبوا الولد إلى ....) مع الحراس الأماميين ١ قفا و.... للصبيان الثلاثة ٣ قفا. للحلاقين العاملين بالخدمة المقدسة ٢ قفا. للنحاتين الذين عملوا الأعمدة في معبد ميكل ( ).

لرئيس الكتاب عبد اشمن ورفاقه في هذا اليوم ٣ قار وقفا.

للوطيين والعملاء ٣ قار و ....)

نستنتج من النص المذكور وجود وحدات نقدية ثلاث هي:

أ- قفا: وهي وحدة نقدية غير معروفة القيمة، إلا أنها أكبر من قار واحد.

ب- قار: هي وحدة نقدية صغيرة.

ج- فا: نوع آخر من النقود، وعلى الأغلب أقل قيمة من قار (٣٤).

كذلك نقش إكليلي يعودللقرن الأول قبل الميلاد، محفوظ الآن في متحف اللوفر بباريس يفيدنا في التعرف على وحدة وزنية هي دارايكان والمقصود بها دراخما أي دراهم وقد صيغت بالجمع من اليونانية، وهناك دراهم فضية منخفضة القيمة. يقول النص ما يلي:

(في اليوم الرابع للاحتفال الديني، في السنة الرابعة عشرة من عمر صيدا، تقرر في اجتماع الصيدونيين: أن يكلل شمع بعل بن مجان، الذي هو مدير المعبد (رئيس الطائفة)، فوق معبد الآلهة، وعلى مباني حوش (فناء) معبد الآلهة، بإكليل ذهبي وزنه/٢٠/ دارايكان من الذهب الخالص، لأنه بنى حوش (فناء)معبد الآلهة، وعمل كل ما عليه من خدمات، ليكتب هذا القرار الناس الذين يجلسون عندنا في الأمام، فوق معبد الآلهة، على شاهدة ذهبية (منقوشة) ويضعونها في رواق معبد الآلهة، ولتكون الطائفة كفيلاً على هذه الشاهدة. سوف يدفع مواطنو صيدا /٢٠/ دارايكان (وليتعين) من الفضة للآلهة (بالفضة الخالصة)، ليعرفوا أن الطائفة تعرف أن تدفع هدية لمن أدى خدمة أمام الطائفة.)[٣٥].

لدينا نقش من مدينة لابيثوس يعود للقرن الثالث ق.م [٣٦] يرشدنا إلى وحدة وزنية هي كار، وهي غير معروفة.

التجارة والتنظيم التجاري:

تستلزم التجارة وجود تنظيم محدّد لها، وقد عرفت مؤسسة "تمكار" في فينيقية في النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد. وقد وجد نظير لها في أوغاريت "مكارم"[٣٧] ، وهذا يعني عدداً كبيراً من التجار الباعة وقد وجدوا في أوغاريت.

وعندما تظهر التمكار في السجلات الأوغاريتية، فهي تظهر مشتركة مع جماعات مهنية تابعة للملك، وترتبط هي الأخرى مع التابعين.

كان التمكار مستخدماً عند الملك، يستلم الأرض ويستخدمها مقابل أن يبقى موضوعاً

تحت تصرف الملك خلال حياته، ويقوم بتنفيذ الصفقات التجارية الملكية، إضافة لذلك كان عليه أن يقوم بتقديم خدمات أخرى ليست لها أية علاقة مع مهنته الأصلية. وتقرير المكافأة لا يقوم على توزيع الأراضي فقط، بل على المنتجات الطبيعية من المخازن الملكية أيضاً[٣٨] .

ويتكون التجار من مجموعات يصعب فصلها بعضها عن بعض:

١-التجار الذين كانوا في أوغاريت.

٢-التجار الذين كانوا خارج أوغاريت.

تتفرغ المجموعة الأولى للملك، بينما تقوم الثانية بتتبع النشاطات والفعاليات الخاصة الحقيقية والأصلية. وكان هؤلاء التجار الذين يعملون داخل أوغاريت كوسطاء وسماسرة ومحصلي ضرائب، أما الذين كانوا خارج أوغاريت كتجار للملك، إلا أنهم لم ينسوا أرباحهم الخاصة.[٣٩]

هذا ونعرف من أرواد في فترة متأخرة أن إدارة ميناء أرواد تألفت من أربعة أشخاص عرفوا باسم (الليمينارك)، وكان الليمينارك في أيدي موظفين مدنيين طبقاً للتقاليد اليونانية، أما في نهاية فترة السيادة الرومانية، فقد كان تعيين الليمينارك يتم من موظفين تعينهم الحكومة الرومانية.[٤٠]

وهكذا امتازت المنتجات التجارية الفينيقية بنموذجيتها والإقبال عليها، وأعمال المعادن التي مدحها هومروس، ووجدت قشور من البرونز والمعادن الثمينة في أماكن كثيرة، والشواهد على انتشارها الواسع، وقد كشف أصلها الفينيقي نفسه ليس فقط بالشكل، بل بالمنقوشات. واستورد النحاس من قبرص وداخل بلاد الشرق الأدنى، والقصدير من إسبانية، والفضة من آسية الصغرى وأثيوبية، والذهب من أثيوبية، وقد صنعت هذه المادة بمهارة في ورشات يشرف عليها الفينيقيون، وعهدت بعد ذلك إلى التجار.

وكانت المدن الفينيقية مراكز مزدهرة للصناعة التحويلية التي أعدت للتصدير قبل كل شيء، ولعبت المدن الفينيقية دوراً كبيراً في تجارة الوساطة، إذ كانت مراكز تجارية، أتت من داخل بلاد الشرق الأدنى إلى مراكز منطقة البحر المتوسط، وكانت قبل كل شيء ذات خصائص جوهرية ومتخصصة بالزراعة، كما وصلت الأعمال البرونزية على هذه الطريقة. وبالعكس جلبت بضائع الغرب إلى الشرق، وظهر جزء منها أثناء حفريات مراكز بلاد ما بين النهرين.

هذا في البحر، أما في البر فقد اعتمدت التجارة التي شكلها الأمراء أو التجار داخل البلاد على القوافل، ومن ثم توجهت إلى الساحل وفي البحر نقلت بوسائل نقل خاصة، حيث اعتمدت على الأسطول الكبير.

الهوامش

(1) Hitti, Philip K., ***History of Syria including Lebanon and Palestine, London,*** 1951, p. 79 – 98.

(2) ***Ibid***, p. 98;

(3) Moscati, s., ***Die Phönizier von 1200 vor Christus bis zum untergang Kartagos***, zürich, verlag,، 1966, p.151. Baramki, D., ***Die Phönizier***, Stuttgart, 1965, p. 77 .

(4) Klengel, H. , ***Händel und Handler im alten Orient***, Hermann Böhlaus Nachf. Wien. Köln. Graz, p. 205 – 207.

(5) Baramki, D., ***Die phönizier***, Stuttgart, 1965, p.77.

(6) ***Ibid***, p. 77.

(7) ***Ibid***, p. 77 – 78.

(8) Klengel, H., ***Handel und Händler im alten Orient***, ……, p. 209.

(9) Moscati, S., ***Die phönizier von 1200 v.chr. bis zum untergang Kartagos***, ….., p. 162 – 163 .

(10) Baramki, D., ***Die phönizier***, Stuttgart, 1965, p. 79 – 81.

(١١) د. حسن عبد العزيز أحمد، **مجلة الدارة**، العدد الرابع، السنة الخامسة، حزيران 1985، الرياض- السعودية ، ص 162- 175.

(١٢) المرجع السابق، ص١٦٢-١٧٥.

(13) Klengel, H., ***Handel und Händler im alten Orient***, …., P. 212-215; Hitti, Philip K., ***History of Syria***…, P. 95.

(14) Schmökel, Hartmut, ***Kulturgeschichte des alten Orient***, Mesopatamien, ***Hethiterriech, Syrien – Palestina***, Urartu, Alfred Kröner Verlag, Stuttgart, 1961, P. 207.

(15) Reinhold, Meyer, ***History of Purple as a Status Symbol in Antiquity***, Bruxelles, 1970, p. 71-73.

(16) Gordon, Cyrus H.-Waltham, Massachusetts, *The Authenticity of the*

phoenician Text from Parahyba, P. 78 in: Or NS, 37, 1968, P. 75-80; Friedrich, Johannes, ***Die Unrechtheit der phönizischen Inschrift aus Parahyba,*** P. 421-424 in: Or NS, 37, 1968, P. 421-424; Frank Moore Cross, Jr. ***The phoenician Inscription from Brazil.*** A Nineteenth – century Forgery, Cambridge, Massachusetts, P. 437-460 in: or NS, 37, 1968, 437-460; Gordon, Cyrus H.- Waltham, ***Reply to Professor Cross,*** P. 461-463 in: Or NS, 37 1968, P. 461-463; Or NS, 37, 1968, P. 78.

(17)***Kai***, I., 5-1-2, P.1; KAI, II., P. 7-8;

أحمد حامدة، **مدخل إلى اللغة الكنعانية الفينيقية**، جامعة دمشق، ١٩٩٧، الطبعة الثانية، مطبعة الداوودي، ص٦٣.

(١٨) د. حسن عبد العزيز أحمد، **مجلة الدارة**، العدد الرابع، ص١٨٠.

(19)***KAI***, I., 11.1.2.3.4; KAI, II., P. 16.

حامدة، **مدخل إلى اللغة الكنعانية الفينيقية**، ص٧٥.

(٢٠) د. حسن عبد العزيز أحمد ــ **مجلة الدارة** ص١٨٠.

(21)***KAI***, I, 13.1.2.3.4.5.6.7.8; ***KAI***, II., P. 17; حامدة، **مدخل**، ص٨٢.

(22)***KAI***, I., 24.9.10.11.12.13; ***KAI***, II., P. 30; حامدة، **مدخل**، ص١٠٤.

(23)***KAI***, I., 29.1.2; ***KAI***, II., P. 47; حامدة، **مدخل**، ص١٠٨.

(24)***KAI***, I., 33.1; ***KAI***, II., P. 51; حامدة، **مدخل**، ص١١٦.

(25)Heltzer, M., ***Goods, Prices and the organization of trade in Ugarit, Wiesbaden***, 1978, P. 121-122;

أ. ش. شفمان، **ثقافة أوغاريت**، دمشق، ١٩٨٨، ص٢٦.

(26)Bibel, 1 ***Könige***, 9-14; ***Könige***, 10, 11; Golo Mann und Alfred Heuß, ***Propyläen. Weltgeschichte***, zweiter Band, 1962, P. 76.

(٢٧) نجيب ميخائيل إبراهيم، **مصر والشرق الأدني القديم**، المجلد الثالث، الطبعة الثانية، دار المعارف بمصر، ١٩٦٤، ص٥٠.

(28)***Archiv für Orientforschung***, Berlin, (Später) Graz, XIX, 1959-1960, P. 194-195.

(29)Von Soden, W. H., ***Studies in Akkadian of Ugarit dating and Grammar*** ... 40, 1991.; Dietrich, M., Loretz, O., ***Mantik in Ugarit keilalphabetische texte der opfer – Schaumen Sammlungen nekromanite***. Alsap 3- 1990.

(30)Manfried Dietrich, Hans Martin Kümmel, Oswald Loretz und Heinrich Otten, ***Texte aus der Umwelt des Alten Testament,*** Band I, Rechts-und Wirtschaftsurkunden, Historisch – chronologische Texte. II, Band I., Lieferug 5, 1985, ***Gütersloher Verlagshaus Gerd Mohn,*** P. 507.; M. Dietrich, O., Loretz, J., Sanmartin, ***Die Keilalphabetischen Texte aus Ugarit***, 2.30.

(٣١) د. حسن عبد العزيز أحمد، **مجلة الدارة**، العدد الرابع، ١٩٨٠، ص١٧٧.

(٣٢) **المرجع السابق**، ص١٧٧.

(٣٣) **المرجع السابق**، ص١٧٨.

(34)***KAI***, II., P. 54-55; Hamdeh, A., ***Die sozialen Strukturen im Phönizien des ersten Jahrtausends vor Christus***, Würzburg, 1985, P. 84-85, 87; حامدة، **مدخل**، ص١٢٢-١٢٥.

(35) ***KAI***, II., P. 73-74; حامدة، **مدخل** ، ص١٧١-١٧٤.

(36) ***KAI***, II., P. 60-62; حامدة، **مدخل**، ص١٣٤-١٣٧.

(37)Gordon, UT, Glossary, 1477, P. 433; Aistleitner, J., ***Wörterbuch der ugaritischen Sprache,*** Berlin, 1963, 1567 p. 184.

(38)Heltzer, M., ***Goods and prices and the Organization of Trade in Ugarit***, Wiesbaden, Dr. Ludwig Reichert Verlag, 1978, P. 121-125.

(39)Ibid, P. 125-139.

(40)Jean – Paul Rey – coquais, ***Une Nouvelle Inscription de Rouad***, P. 73-76 in: Les Annales archeologiques Arabes Syriennes; Damas, 1968, P. 69-76.

حسّان بن مالك بن بحدل

ودوره في حفظ الخلافة في بني أميّة

الدكتور أحمد الحسن

جامعة الكويت ــ قسم التاريخ



حسّان بن مالك بن بحدل ودوره في حفظ الخلافة في بني أميّة

المقدمة:

يعتبر **حسَّان** بن مالك بن بحدل من الشخصيات التي لعبت دوراً فعالاً في صدر الإسلام وفي نصرة بني أمية، الذي بلغ قمته عند قيامه بدور رئيس في حفظ الخلافة فيهم، بعد أن كادوا يفقدونها بعد وفاة معاوية بن يزيد بن معاوية سنة ٦٤ هـ – ٦٨٣م، ولذا اهتمت هذه الدراسة بتتبع مشاركة **حسّان** في الاحداث السياسية، وذلك منذ ظهوره على مسرح الأحداث في معركة صفين سنة ٣٧هـ –٦٥٧م ومروراً بعهد الخلفاء الأمويين: معاوية بن أبي سفيان (٤١-٦٠هـ / ٦٦١-٦٧٩م)، ويزيد بن معاوية (٦٠-٦٤هـ / ٦٦١-٦٨٣م) ومعاوية بن يزيد (٦٤-٦٤هـ / ٦٨٣-٦٨٣م) ومروان بن الحكم (٦٤-٦٥هـ / ٦٨٣ - ٦٨٤م) وأخيراً عبد الملك بن مروان الذي توفي **حسّان** في عهده في حدود سنة (٧١هـ –٦٩٠م).

والذي شجعنا على دراسة هذه الشخصية، على أهميتها التاريخية أننا لم نجد بحثاً تخصص بدراسة شاملة لها وتأثيرها في الأحداث المختلفة في صدر الإسلام.

وقد اعتمدت هذه الدراسة على مصادر مختلفة أهمها كتاب "أنساب الأشراف" لأحمد بن يحيى بن جابر البلاذري(ت ٢٧٩هـ –٨٩٢م)، وكتاب "تاريخ الأمم والملوك" لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ –٩٢٢م)، فقد زودنا هذان المصدران بمعلومات وافرة عن **حسّان** ودوره في الأحداث السياسية في عهد الخلفاء الامويين الأوائل، والتي لا نجد لها مثيلاً في المصادر الاخرى.

أولاً: نسب حسّان بن مالك بن بحدل الكلبي:

ينتسب حسّان بن مالك إلى أحد بطون قبيلة كلب وهو بطن حارثة بن جندب[١] ، وقبيلة كلب بدورها تنتسب إلى قضاعة التي يرجع نسبها إلى معد بن عدنان[٢]، وينتسب حسّان – في أغلب المصادر – إلى أبيه مالك[٣]، ولكن بعض المصادر الأخرى تنسبه إلى جده"بحدل" مباشرة[٤].

وبنو كلب من القبائل العربية التي سكنت الشام منذ فترة ما قبل الإسلام [٥].

ثانياً: دور حسّان قبل الخلافة الأموية:

لا تذكر المصادر شيئاً عن ولادة حسّان ونشأته. وأول ذكر له في المصادر ظهر في معركة صفين، بين جند العراق بقيادة علي بن أبي طالب وجند الشام بقيادة معاوية بن أبي سفيان[٦]، وقد يرجع إغفال المصادر لذكره قبل صفين، إلى عدم مشاركته في الأحداث الهامة في الدولة الإسلامية، التي يهتم المؤرخون عادة برصدها.

وكان حسّان في معركة صفين يقاتل مع جند الشام أميراً على إحدى فرق الجيش[٧] التي إختلفت المصادر – عند ذكرها – إلى روايتين متعارضتين، فرواية ابن خياط اعتبرته اميراً على قبيلة قيس دمشق، [٨] بينما رواية ابن مزاحم اعتبرته أميراً على قضاعة دمشق [٩]، ونرى أن الأقرب للصواب رواية ابن مزاحم، ذلك أن الواقع الاجتماعي في ذلك الوقت يعتد بالقبلية والعصبية؛ فمن المستبعد أن يُولّى شخصٌ أميراً على قبيلة لا ينتسب إليها، خاصة في مواطن الحروب والقتال التي تبلغ الحاجة للعصبية القبلية قمتها في التناصر ــ فليس من الحكمة أن يختار معاوية بن أبي سفيان أميراً على قبيلة لا ينتسب لها، وهو في وضع أشد ما يحتاج إلى تماسك جيشه وثباته في أرض المعركة، ويضاف إلى تأييد، هذا الرأي ما أكدته المصادر الأخرى لرواية ابن مزاحم[١٠]، بينما لا نجد في المقابل تأكيداً لرواية ابن خياط في المصادر.

ومما تقدم، نستنتج أن أول ظهور لـ حسّان على الساحة كان ظهوراً في مركز القيادة، مما يعكس قدراته الشخصية والقيادية وأهليته لهذا المنصب، والثقة التي يتحلى بها عند أمير الشام معاوية، ليوكل إليه بهذه المهمة في هذا القتال.

ولا نجد تصريحاً مباشراً في المصادر عن حسّان لموقفه في جانب معاوية، ولكن لاشك أنه يرجع إلى قناعة أهل الشام عامة ــ وحسّان واحدٌ منهم ــ بضرورة التعجيل بأخذ القصاص ممن شارك في قتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه، الذين انضموا إلى جيش الإمام علي، ويرفض جند الشام بيعة عليّ بالخلافة حتى يقتص من القتلة [١١]. وكان الإمام عليّ يرى تأجيل النظر في أمر القتلة حتى تستقر شؤون الدولة الإسلامية، فينفذ الحد على القتلة في الوقت المناسب، دون أن يترتب على ذلك فوضى في الدولة الإسلامية[١٢]، ولذا نشب الصراع بين مؤيدي كلٍ من الطرفين.

ثالثاً: دور حسّان في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان:

تولى معاوية بن أبي سفيان الخلافة بعد اغتيال الإمام عليّ سنة ٤٠ هـ - ٦٦٠م، وتنازل خليفته الإمام الحسن عن الخلافة لمعاوية سنة ٤١ هـ – ٦٦١م وهو العام الذي سُمّي بعام الجماعة [١٣].

وكان حسّان من المقربين لمعاوية، وذلك يرجع إلى عاملين رئيسين:

- العامل الأول: أن حسّان يعتبر زعيم قبيلة بني كلب، التي كان [١٤] لها ثقل كبير في بلاد الشام [١٥]، فمعاوية يحرص على كسب ولائه.
- العامل الثاني: هو اقتران معاوية بعائلة بني بحدل، فقد تزوج معاوية بعمة حسّان، وهي ميسون بنت بحدل والدة يزيد.[١٦] فيعتبر حسّان بسبب هذه المصاهرة خالاً ليزيد.

وتجلّى قرب حسّان من معاوية في مظاهر مختلفة، فقد كان من جلسائه [١٧]، كما أقطعه معاوية أرضاً بدمشق عُرفت بقصر البحادلة [١٨]، وأبرز تمييز له ظهر في تعيينه والياً على فلسطين، التي ظل والياً عليها حتى وفاة معاوية، [١٩] سنة ٦٠ هـ ــ ٦٧٩م.

رابعاً: دور حسّان في عهد يزيد بن معاوية:

إن مكانة **حسّان** أخذت تبرز بوضوح أكثر في عهد يزيد. فقد اعتُبر **حسّان** من الذين كان يستشيرهم يزيد ويأخذ بآرائهم [٢٠]. وظهر ذلك جلياً عند استشارة يزيد لـ **حسّان** ــ بالذات ــ بتوليه العهد لابنه معاوية فشجعه على ذلك، فكان لهذا التشجيع الأثر على يزيد الذي يظهر من استدعائه لابنه معاوية بعدها، وبيعته بولاية العهد، ثم يعلن ذلك للناس فيبايعونه بولاية العهد [٢١].

ولا نعرف سر تشجيع **حسّان** ليزيد بمبايعة معاوية بولاية العهد، ولعل السبب في ذلك اعتباره أنه ابنه الأكبر، وكذلك لحفظ الخلافة في بني معاوية بن أبي سفيان، الذين يعترف لهم أهل الشام بالطاعة والولاء.

وحصل **حسّان** في عهد يزيد على سلطات أكثر، فقد أضاف له يزيد ولاية الأردن إضافة إلى ولاية فلسطين، التي كانت تحت تصرفه منذ عهد معاوية[٢٢].

خامساً: دور حسّان في عهد معاوية بن يزيد ومروان بن الحكم من سنة (٦٤هـ - ٦٨٣م) إلى سنة (٦٥ هـ - ٦٨٤م):

توفي يزيد بن معاوية سنة ٦٤ هـ ــ ٦٨٣م فخلفه ابنه معاوية، ولكنه لم يمكث بها إلا مدة قصيرة، [٢٣] ثم تنازل عن الخلافة وترك للناس أن يختاروا من يشاؤون بدلاً منه [٢٤].

في هذه الفترة تضاربت الروايات عن مكان **حسّان** أثناء هذا الحدث: ففي أحدها ورد أنه كان في دمشق، وأن معاوية بن يزيد عندما اعتزل طلب منه أن يضبط الأمور

حتى يتفق المسلمون على خليفة، ولكن حسّان غادر دمشق إلى فلسطين، ثـــم الأردن عندما رأى أن اتجاه البيعة في دمشق بقيادة الضحاك بن قيس تميل إلى ابن الزبـــير، وليس إلى بني أمية [٢٥]، وفي روايات أخرى أن معاوية بن يزيد طلب من الضحـــاك بن قيس أن يقوم بذلك [٢٦]، وأن حسّان أثناءها كان في فلسطين. [٢٧] فمن الاعتبـارات المفترضة التي تؤيد الرواية الأولى أنه ليس من المستبعد أن يكون حسّان في دمشـــق عندما علمَ بوفاة يزيد ليشهد مجريات الأمور عن قرب، وهو انتقال الخلافة من يزيـــد إلى ابنه معاوية، خاصة أنه ابن يزيد، ويُضاف إلى ذلك أن طلـــب معاويـــة ــ عنـــد تنازله ــ من حسّان أن يضبط الأمور ليس غريباً لثقل حسّان لدى بني أمية وأهليتـــه للقيام بهذا التكليف.

ولكن مع ذلك نرى أن الرواية الراجحة هي الرواية الثانية للدلائل الآتية:

١- أن الضحّاك بن قيس كان أميراً على دمشق في عهد يزيد. [٢٨] فهو أولـــى أن يُناط به التكليف لضبط الأمور في دمشق ــ عاصمة الخلافة ــ لقربه منـــها، وهو أكثر خبرة بها لأن حسّان كان بعيداً عن الأوضاع في دمشق، فقد كـــان والياً على فلسطين في عهد معاوية، ثم والياً على فلسطين والأردن في عـــهد يزيد، ولا يأتي إلى دمشق إلا زائراً. ويؤكد هذا بطريق غير مباشر مـــا روي عن أن معاوية بن يزيد لم يغير شيئاً مما كانت عليه الأمور في عهد والده يزيد [٢٩]، مما يعني استمرارية قيام الضحاك بإمرة دمشق.

٢- أن مكانة الضحاك لا تختلف عند بني أمية عن حسّان، فـــهو المنـــاصر لـــهم ولحكمهم منذ عهد الفتنة بين الإمام علي ومعاوية [٣٠]، فليس ببعيد أن يُعطى له هذا التكليف، خاصة أن هناك سابقة مشابهة لهذا ــ إلى حد ما ــ عند الفـــراغ السياسي في العاصمة، وذلك عندما أوكل إليه معاوية بن أبي سفيان ــ قبيـــل وفاته ــ ضبط الأمور في دمشق حتى يأتي يزيد ــ الذي كان غائباً عن دمشق ــ ويُبَايَع بالخلافة [٣١].

٣- أن تحرك الضّحاك بن قيس في ممالأة ابن الزبير وتأييده لم يكن ليؤتي ثماره ويرجح كفة ابن الزبير في دمشق لولا أنه في موقع القوة، وليس تحت إمرة **حسّان** الذي له تأييد مطلق لبني أمية.

٤- ما رواه الطبري [٣٢] أنه عندما بلغ **حسّان** أن الضحاك يؤيد ابن الزبير، أرسل إليه ليغير رأيه، وهذا يقتضي أنه لم يكن في دمشق، وقد علم بموقف الضّحاك في تأييد ابن الزبير لاحقاً.

عموماً مع اعتبار أيٍّ من الروايتين، فإن **حسّان** كان في فلسطين سواء جاء إليها من دمشق، [٣٣] أم كان فيها أصلاً عند تنازل معاوية عن الخلافة، وظهرت الفوضى في الدولة الإسلامية.

وقد لعب **حسّان** دوراً مهماً جداً في فترة الفتنة هذه لحفظ الخلافة في بني أمية، وأنه بجهوده استطاع أن يقلب موازين القوى، بينما تكاد جميع البلدان تُجمع على بيعة ابن الزبير [٣٤]. واتخذ **حسّان** تدابير مختلفة للوصول إلى هذا الهدف: فقد ترك فلسطين وتوجّه إلى الأردن ذلك أن "**ناتل بن قيس**" وهو أحد قادة قبيلة جذام هدّده وهمّ بالثورة ضده لهواه في ابن الزبير [٣٥]، ففضل تركها إلى الأردن [٣٦]، حيث ظهر أن له تأثيراً وثقلاً أكبر فيها، فيستطيع في الأردن أن يلعب دوراً أكبر في نصرة بني أمية. ولكن مع ذلك لم يستسلم لهذه التهديدات، فقبيل مغادرته أناب مكانه روح بن زنباع وهو أيضاً من قادة قبيلة جذام وطلب منه أن يقاتل بأنصار بني أمية من قومه مناوئيه، ولكن روحاً لم يستطع أن يقاوم الثورة التي قادها ناتل بن قيس، الذي استطاع أن يُخرج روحاً بن زنباع من فلسطين ثم يبايع لابن الزبير[٣٧].

وبوصول **حسّان** بن مالك إلى الأردن بدأت كفة بني أمية تميل تدريجياً نحو الخلافة بعد أن كادوا يفقدونها.

وقد كانت أول خطوة اتخذها **حسّان** في الأردن، هي ضمان نصرة أهل الأردن لبني

أمية، وذلك عن طريق إقناعهم بأحقية بني أمية وأنصارهم في الخلافة، وأن ابن الزبير ومؤيديه على باطل.

اتبع **حسّان** أسلوب الحوار والمناقشة مع أهل الأردن للوصول إلى هذا الهدف، فاتخذ من إقرار أهل الأردن بأن جند الشام الذين قاتلوا أهل المدينة في وقعة الحرة نصرة ليزيد (٣٨) أنهم كانوا على حق، بينما أهل المدينة على باطل، وكذلك من رفض ابن الزبير الاعتراف بخلافة يزيد، فهو ومن أيده في عدم الاعتراف بخلافة يزيد على باطل أيضاً، وبعد هذا الإقرار الذي اعترفوا به بأنفسهم عقّب **حسّان** مقرراً نتيجة طبيعية مبنية على هذا الإقرار: "لئن كان يزيد بن معاوية وهو حي حقاً يومئذٍ أنه اليوم وشيعته على حق وإن كان ابن الزبير وشيعته على باطل أنه اليوم على باطل وشيعته".

فاقتنعوا بهذه النتيجة وأبدوا استعدادهم للقتال لنصرة بني أمية ضد من أيّد ابن الزبير(٣٩).

وبناءً على هذا اعتبرت الأردن الولاية الوحيدة التي لم تبايع ابن الزبير بعد أن جلعت لابن الزبير البيعة من جميع الأمصار الإسلامية (٤٠) الأخرى، مما يعكس ثقل المهمة التي تصدى لها **حسّان** ليغير هذا التوجه من ابن الزبير إلى بني أمية.

عندما ضمن **حسّان** نصرة أهل الأردن بعث كتاباً إلى الضحاكِ بن قيس ـ الذي بُلّغ لابن الزبير ـ من منطلق القوة يطلب فيه من الضحاك أن يتخلى عن بيعة ابن الزبير الذي خلع خليفتين ـ يزيد وابنه معاوية ـ ويدعوه إلى الرجوع إلى طاعة بني أمية ونصرتهم لأحقيتهم بالخلافة، وما قدموه له من خدمة ومنحوه من مكانة.

وطلب **حسّان** من الضحاك أن يقرأ الكتاب على الناس وفي نفس الوقت احتاط **حسّان** لهذا الخطاب حرصاً منه أن يصل إلى الناس لأنه لم يكن هدفه مخاطبة الضحاك فقط، لوجود احتمال قوي برفض ما في الكتاب ورفض قراءته على الناس، ولذا طلب

حسّان من الرسول أن يقرأه على الناس في حالة رفض الضحاك فعل ذلك [٤١]، ولم يكتف بذلك فقط، بل إنه أرسل أيضاً إلى بني أمية يخبرهم بما كتب للضحاك وما أمر به رسوله أن يفعله، ويطلب منهم أن يحضروا هذا الموقف [٤٢].

ونرى أن **حسّان** أراد عدة أهداف من هذه التحركات منها:

١- محاولة تغيير رأي الضحاك في ابن الزبير ببيان أخطائه التي تمنع أهليته للخلافة، في مقابل أحقية بني أمية وفضلهم عليه.

٢- محاولة تغيير توجه من أيّد الضحّاك في ميلهم لابن الزبير.

٣- إشعار أنصار بني أمية في دمشق أنهم ليسوا وحدهم في هذا التأييد، وأن لهم سنداً في الشام ينصرهم في تأييدهم هذا.

٤- إثارة الاضطراب في دمشق لإشعار أنصار ابن الزبير أن الأمر غير مستقر لابن الزبير فيها، ومحاولة تغيير الوضع السياسي تجاه بني أمية.

وقد أثبتت مجريات الأحداث صحة توقع **حسّان** بأن الضحاك سيرفض قراءة خطابه على الناس، وفي الوقت نفسه عندما قام رسوله وقرأ خطاب **حسّان** على الناس كان له التأثيرات الإيجابية المختلفة لصالح بني أمية، ولذا لما قُرئ الكتاب على الناس في دمشق تشجع من يرى رأي **حسّان** من الأشراف، فأعلنوا موافقتهم لما ورد في الخطاب من تأييد لبني أمية ورفض ابن الزبير، ومن هؤلاء سفيان بن الأبرد الكلبي، ويزيد بن أبي النمس، والوليد بن عتبة بن أبي سفيان، متحدّين بذلك الضحاك بن قيس الذي عُيِّن والياً على دمشق من جهة ابن الزبير، وأخذ الوضع يزداد اضطراباً عندما قام أحد الأشراف وهو عمرو بن يزيد الحكمي وأيّد ابن الزبير، ورفض خطاب **حسّان** فأدى ذلك إلى انقسام الناس في دمشق إلى قسمين، ما بين مؤيد لابن الزبير ومؤيد لبني أمية[٤٣].

وأمام هذا الوضع المضطرب وجد الضحاك بن قيس أن دمشق لم يعد فيها تأييدٌ قوي لابن الزبير أو هو الغالب، فاضطر للميل إلى جهة بني أمية، فاجتمع بهم معتذراً عن تأييده لابن الزبير، واتفق معهم على مراسلة **حسّان** بن مالك للاجتماع في مدينة الجابية، لاختيار رجل من بني أمية خليفة للمسلمين[٤٤]، فأصبح **حسّان** مرجعاً للطرفين للحكم في الاستخلاف والاختيار، الأمر الذي يظهر نجاحه في خطواته التدريجية، كما يبرز ثقله في الأحداث الجارية في الشام وفي مناصرة بني أمية، حتى إنه أطلق على من يناصر بني أمية "بحدلي"[٤٥].

وبالفعل توجه الطرفان: أتباع الضحاك، وأتباع بني أمية إلى الجابية، ولكن في الطريق غيَّر الضحاك رأيه بتأثير من أحد قادة القبائل القيسية، الذي دعاه إلى مناصرة ابن الزبير وقتال مناوئيه، فاتجه إلى منطقة مرج راهط،[٤٦] بينما أكمل بنو أمية وأنصارهم الطريق إلى الجابية، حيث التقوا بـ **حسّان** ومؤيديه من أهل الأردن [٤٧].

ومكث بنو أمية وأنصارهم في الجابية أربعين يوماً يتناقشون في اختيار مرشح للخلافة، وكان **حسّان** هو المشرف العام على هذا الاختيار، حتى قيل إنه سُلِّم عليه بالخلافة خلال هذه المدة[٤٨].

لقد كان رؤساء الناس وأشراف القبائل مختلفين في الاختيار، وكان أبرز المرشحين، خالد بن يزيد، ومروان بن الحكم، أما **حسّان** فكان يحاول التأثير بأن يُختار خالد بن يزيد بن معاوية، ذلك أن خالداً من "بيت معدن الملك والرئاسة"[٤٩]، وأن مع خالد سيكون لـ **حسّان** وغيره من كبار القادة تأثير كبير في توجيه السياسة والحكم ــ لحاجة خالد إليهم بسبب قلة تجربته وصغر سنه ــ بينما مروان ليس بتلك الحاجة إليهم، لأنه مستغن عنهم بأقربائه وأبنائه[٥٠]، بالإضافة إلى كفاءته الشخصية. ولا يُستبعد أن الصلة النسبية بينه وبين خالد لها أثرها في هذا الميل، ولكن هذا التوجه لم يجد تأييداً قوياً من القادة الآخرين، وهم الأكثرية مثل: الحصين بن نمير السكوني،

وروح بن زنباع الجذامي، وزمل بن عمرو العُذري، وعبد الله بن سعد الفزاري، وعبد الله بن عصاه الأشعري، وجبويل بن يسار السكسكي، الذين رأوا أن مروان بن الحكم هو الرجل الذي يستطيع مواجهة ابن الزبير لأنه شيخ قريش، وله فضله في السن والتجربة، بينما خالد بن يزيد، لصغر سنه لا يقاوم ابن الزبير (٥١).

ولما رأى **حسّان** أن رأي الأغلبية يميل إلى مروان تنازل عن رأيه وقبل بالحل الوسط، ذلك بأن يختاروا مروان وبعده خالد بن يزيد (٥٢)، ونرى أن الذي أضعف موقف **حسّان** في اختيار خالد هو قوة حجة الرأي المقابل، بالإضافة إلى ما تم الاتفاق عليه بينه مع الأهل الأردن، حين حاورهم في نصرة بني أمية بأن يُبعد عنهم اختيار خالد أو عبد الله ابني يزيد بن معاوية للخلافة (٥٣)، وأن الهدف الأساسي كما صرّح **حسّان** في الاختيار أن لا تخرج الخلافة من البيت الأموي إلى عبد الله بن الزبير الذي خلع الخلفاء... بغض النظر عن أي شخصية معينة من هذا البيت (٥٤).

وبعد أن تم الاتفاق على مروان خطب **حسّان** في الناس مبيناً المرشح الذي اتفق عليه القادة، ذاكراً صفاته التي تؤهله للخلافة فهو: "كبير قريش، وابن عم الخليفة المظلوم ــ عثمان بن عفان ــ والطالب بدمه"، فسارع الناس إلى بيعة مروان بالخلافة(٥٥).

وانضم **حسّان** تحت قيادة مروان الذي سار لمحاربة أنصار ابن الزبير في مرج راهط سنة (٦٤ هـ - ٦٨٣م)، التي وقعت بها حرب بين الطرفين كان **حسّان** فيها قائداً للخيل مع مالك بين هبيرة (٥٦)، وقد انتهت المعركة بمقتل الضحاك وهزيمة أنصار ابن الزبير في الشام، مما أدى إلى خضوع الشام تحت حكم مروان (٥٧) ما عدا مدينة قرقيسياء التي تحصّن فيها زفر بن الحارث المؤيد لابن الزبير (٥٨)، ثم استطاع مروان إخضاع مصر سنة ٦٥ هـ ــ ٦٨٤م(٥٩)، وبعدما أخضع مروان مصر أراد أن يبايع لابنه عبد الملك كوليٌ للعهد ومن بعده لابنه الآخر عبد العزيز، ونرى **حسّان** يوافق على ذلك، ولكن تضطرب الروايات في تبرير موقف **حسّان** أمام هذه الموافقة التي

تبدو غريبة، لأنه كان حريصاً على البيعة لخالد بين يزيد، خاصة أن بعض الروايات أشارت إلى أنه قد تم الاتفاق في الجابية على البيعة لولاية العهد لخالد بن يزيد، ثم لعمرو بن سعيد، وهنا إشكاليتان لابد من تحقيقهما:

الأولى: تحقيق إن كانت البيعة قد تمت فعلاً لولاية العهد لخالد بن يزيد، ثم لعمرو بن سعيد في الجابية.

الثانية: تحقيق موقف **حسّان** في قبوله للبيعة بولاية العهد لعبد الملك ثم لعبد العزيز، وعدم حرصه على البيعة لخالد بن يزيد.

أما المسألة الأولى: فقد وردت روايات تبين أنه تم الاتفاق في الجابية على بيعة مروان بالخلافة، ثم خالد بن يزيد، ثم عمرو بن سعيد [٦٠]، ومن جهة أخرى نرى دلائل مختلفة تشير أنه لم يبايع الناس في الجابية إلاّ مروان، وأبرز هذه الدلائل الخطبة التي خطبها **حسّان** في الجابية مبيناً ما تم الاتفاق عليه، والتي لا تذكر سوى بيعة مروان، ولا تشير إلى بيعة خالد أو عمرو بولاية العهد [٦١]، وعلى ضوء ذلك بايع الناس مروان.

وللتوفيق بين هذين الرأيين نرى أنه قد بايع الناس لمروان فقط بالخلافة وذلك في بيعة الجابية العامة، وأما ما يتعلق بالبيعة لخالد ثم عمرو فإنه كان اتفاقاً بين الرؤساء المجتمعين على ذلك [٦٢] وبين مروان، كما أنه وعدٌ أعطاه مروان لـ **حسّان** بأن يبايع لخالد بعده بالخلافة [٦٣]، وكذلك وعدٌ آخر أعطاه لعمرو بن سعيد بالبيعة له بعد خالد ليضمن نصرته [٦٤].

ويُرجّح هذا التوجه دلائل مختلفة بالإضافة إلى خطبة **حسّان** المشار إليها آنفاً، منها أننا لا نجد اعتراضاً من أحد من الزعماء الذين اجتمعوا في الجابية ـ أو من أحد من الناس عموماً ـ لبيعة عبد الملك وعبد العزيز بولاية العهد، إذ لو كانت البيعة متضمنة

استخلاف خالد وعمرو لوجدنا من يرفض ذلك، لأن في عنقهم بيعة لا يمكن أن يخونوها، أو على الأقل يتجاهلوها.

وجاء في بعض الروايات، أن مروان حين أراد البيعة لابنه قال لـ **حسّان**: "إن كلاً من خالد بن يزيد وعمرو بن سعيد يدّعيان أن لهما الخلافة بعدي" [٦٥]، وهذا يدل على أنه لو كانت بيعة وعقداً لما استخدم أسلوب الادعاء باعتبارها بيعة معلومة لدى جميع المؤتمرين في الجابية، وهي بيعة في عنق مروان من جهة، وفي عنق من بايعه من جهة أخرى وليس ادعاء.

وفي المقابل لا نجد لـ **حسّان** موقفاً صلباً يحتّج به على مروان بهذه البيعة التي فيها ولاية العهد لخالد، مما يدل أيضاً أنها ليست بيعة ملزمة بايعه الناس على أساسها، وكذلك لا نجد اعتراضاً من خالد بن يزيد على ذلك أو احتجاجه بهذه البيعة الملزمة لمروان، أو احتجاج عمرو بن سعيد أيضاً بهذه البيعة التي تمت في الجابية. وكان موقف الأخير فقط العتاب لـ **حسّان** حين أعلن البيعة لعبد الملك وعبد العزيز [٦٦]، ويؤكد هذا قوله لعبد الملك ــ بعد ذلك ــ أن أباه وعده بالخلافة بعده [٦٧]، مما يشير على أنه وعد شخصي وليست بيعة عامة ملزمة.

هذه كلها دلائل تشير إلى عدم وجود بيعة عامة ملزمة لمروان أو ملزمة أيضاً لمن بايعه بولاية العهد لخالد ثم عمرو بن سعيد، ويخسم البلاذري الأمر في هذه الإشكالية مبيناً في رواية له أن البيعة ــ في الجابية ــ لم تقع إلاّ لمروان [٦٨].

وأما فيما يتعلق بالإشكالية الثانية وهي موقف **حسّان** من البيعة لعبد الملك وعبد العزيز بولاية العهد فسنورد الروايات التي ذكرت في المصادر في هذه المسألة، ونحاول التوصل إلى أرجح الروايات. فيذكر اليعقوبي [٦٩] أن مروان بن الحكم استدعى **حسّان** ولامه على ما بلغه عنه بأنه بايع لعمرو بن سعيد بولاية العهد، فأنكر **حسّان** ذلك، ثم أمره مروان بالبيعة لولاية العهد لعبد الملك ثم لعبد العزيز فبايع لهما،

وهذه الرواية يُشك في صحتها، ذلك أنه من المعروف أن **حسّان** كان حريصاً على بيعة خالد بن يزيد، ولم يكن مهتماً بالبيعة لعمرو بن سعيد، بل إنه لما عاتبه عمرو بن سعيد عن إعلانه بالبيعة لعبد الملك ثم لعبد العزيز وإهماله، رد عليه رداً عنيفاً قائلاً: "اسكت يا لطيم الشيطان"(٧٠).

ويورد البلاذري (٧١) في إحدى رواياته بهذا الشأن أن مروان قال لـ **حسّان**: "إنه قد بلغني أنك تقول إني اشترطت على مروان أن يبايع لخالد بن يزيد بولاية العهد، فحداه ذلك إلى الجد في بيعة ابنيه ـ أي ابني مروان ـ ليكذب ما أُبلغ عنه"، وهذه الرواية كالسابقة، ففيها نظر، إذ إن أمر حرص **حسّان** على بيعة خالد كان معروفاً ومعلناً عند مروان وغيره من الزعماء الذين اجتمعوا في الجابية، ولم يكن سراً يخفيه **حسّان** أو يتبرأ منه ـ كما ذكرنا من قبل.

وأما المسعودي، (٧٢) فيورد أن مروان استدعى **حسّان** فـ "أرغبه وأرهبه" ليبايع لعبد الملك ثم لعبد العزيز، فدعاه ذلك إلى الخطبة في الناس وطلب البيعة لابني مروان، وهذه رواية عامة قد يُقبل منها جانب الترغيب من مروان لـ **حسّان** ليستميله ويشجعه على البيعة لابنيه، أما جانب التخويف فسنناقشه بعد قليل عند بيان السبب الراجح لمبايعة **حسّان** لابني مروان وتجاهل خالد وعمرو.

والرواية التي نراها أقرب للصواب تلك التي ذكرها البلاذري في أكثر من موضع، هي أن مروان قرر أن يبايع لابنيه بولاية العهد فاستنجد بـ **حسّان** بن مالك ليقطع الأمل على كل من خالد بن يزيد وعمرو بن سعيد، اللذين كانا مرشحين في مؤتمر الجابية لولاية العهد، فأبدى **حسّان** استعداده دون اعتراض أو مناقشة، وجمع الناس وخطب فيهم قائلاً: "بلغ أمير المؤمنين ويبلغنا أن رجالاً يتمنون الأماني ويدعون الأباطيل، ويحدثون أنفسهم بما لم يجعله الله لهم، وما أولئك بالراشدين ولا المسددين،

فقوموا أيها الناس فبايعوا لعبد الملك ابن أمير المؤمنين ولعبد العزيز من بعده(٧٣)"، فقام الناس فبايعوا مسارعين غير متقلين من عند آخرهم حتى لم يبقَ منهم أحد (٧٤).

إن هذه الرواية هي التي تليق بمكانة **حسّان** بن مالك التي ظهرت بارزة في عهد مروان، حيث اتفق المؤرخون على أنه هو الذي "شد الخلافة لمروان"(٧٥)، أما إكراه مروان لـ **حسّان** على البيعة لابنيه فهو احتمال قوي، فقد ذكره اليعقوبي(٧٦) والمسعودي(٧٧)، وأقرب إلى إعذاره من تبعة حرصه على البيعة لخالد بولاية العهد ثم تركها لغيره دون سبب وجيه، كما يتبين من رواية البلاذري ـ التي ذكرناها آنفاً ـ ولكن لو نظرنا إلى الوضع السياسي، حين تم إعطاء ولاية العهد لابني مروان لوجدنا أنه من الصعب أن يقوم مروان على إكراه **حسّان** على البيعة لابنيه، مع أنه أخضع الشام ومصر تحت سيطرته، ذلك أن مروان مازال أمامه عقبة صعبة وهي القضاء على قوة ابن الزبير، خاصة في الحجاز والعراق (٧٨). لذا لا يمكن لمروان أن يقوم بتصرف يفقد فيه ولاء **حسّان** ونصرته، ذلك أن **حسّاناً** سيد قبيلة كلب (٧٩)، ولديه سند قوي يعتمد عليه بطابع العصبية القبلية فيستطيع إثارة القلاقل والمشاكل لمروان لو أراد، وفي الوقت نفسه فإن مروان مازال بحاجة إلى نصرة **حسّان** وقبيلته، خاصة أن القبائل القيسية لا يضمن مروان ولاءها الكامل له، حيث أوقع بها وقتل كثيراً من زعمائها في معركة مرج راهط(٨٠)، ومما يزيد الأمر ترجيحاً لنفي الإكراه أن **حسّان** ظل من أكبر أعوان عبد الملك بعد مروان ـ بعد ذلك ـ وشارك في القتال زعيماً ضد مناوئيه (٨١).

ولكن مع هذا إذا نفينا إكراه **حسّان** على البيعة لابني مروان، فما هو التبرير المنطقي لإهمال **حسّان** لخالد الذي كان حريصاً على توليته الخلافة في مؤتمر الجابية؟ فمن المؤسف أننا لا نجد جواباً مباشراً في المصادر يوضح سبب ترك **حسّان** لخالد وبيعته لابني مروان، والذي نرجحه أن موقف **حسّان** هذا يُفهم من نتيجة الخطبة التي خطب فيها الناس طالباً منهم البيعة بولاية العهد لابني مروان. فالمسعودي (٨٢) يذكر: "فلم

يخالفه في ذلك أحد"، وفي رواية البلاذري [٨٣]: "فقام الناس فبايعوا مسارعين حتى آخرهم"، وفي رواية له أخرى أيضاً: "فقام الناس فبايعوا مسارعين غير متقلين من عند آخرهم حتى لم يبقَ منهم أحد"[٨٤]، وذكر الطبري [٨٥]: "فقام الناس فبايعوا من عند آخرهم".

هذه الأخبار تشير إلى دلالتين هامتين:

أولهما: مكانة **حسّان** عند الناس، فلم يعترضوا قوله أو يرفضوا طلبه.

والثانية: أن الناس كانوا راضين بهذا الطلب، بل متحفزين له، فقد قاموا ببيعة ابني مروان ولم يتخلف منهم أحد، وهذا يعني أن الجو العام كان مهيئاً لبيعة ابني مروان، وإهمال خالد وعمرو بن سعيد، فيقرب وضع **حسّان** هنا في هذا الموطن ما حدث في الجابية، فـ **حسّان** لم يرد ان يخالف توجه الأغلبية، خاصة أن الوضع السياسي يتطلب تلاحم أهل الشام ضد ابن الزبير وأنصاره، فلم يرد **حسّان** إثارة فتنة مادام الأمر لم يخرج من "البيت الأموي"، ونرى أن السبب الرئيسي الذي أضعف من وضع خالد بين الناس ما فعله مروان من تصرفات للتقليل من شأنه وإسقاطه من أعين أهل الشام، فقد تزوج بوالدته لهذا الغرض، فأصبح خالد بن يزيد في حجره، مما أدى إلى تصغيره في أعين الناس [٨٦] ــ بسبب العرف السائد في ذلك الوقت ــ ولذا يذكر الطبري [٨٧] أنه "قيل لمروان أن تزوج أم خالد ــ وأمه ابنة أبي هشام بن عتبة ــ حتى تصغّر شأنه لا يطلب الخلافة، فتزوجها".

كما قام مروان بشتمه والسخرية منه أمام أهل الشام[٨٨]، فهذه التصرفات كان لها أثرها في اهتزاز شخصيته بين أهل الشام، ويبدو أن خالداً كان مقراً في نفسه أن الخلافة أصبحت بعيدة المنال عنه، حيث لا نجد لخالداً اعتراضاً أو موقفاً يعاتب فيه **حسّان** على إبعاده عن الخلافة هذه المرة كما فعل في الجابية، عندما أظهر لومه

وعتابه لـــ **حسّان**[٨٩]، في الوقت الذي نجد عمراً بن سعيد يواجه **حسّان** بعتاب شـــديد على خطبته المذكورة التي أبعده بها عن الخلافة[٩٠].

سادساً: دور حسان في عهد عبد الملك بن مروان:

توفي مروان بعد حكم دام قرابة العشرة أشهر [٩١] وخلفه ابنه عبد الملك سنة ٦٥ هـــ ـــ ٦٨٤م، فكانت لـــ **حسّان** مكانته المتميزة، ولا شك أن لدور **حسّان** فـــي إيصـــال الخلافة لعبد الملك أثراً في هذه المكانة التي تظهر في اعتباره سميراً[٩٢] لعبد الملـــك، كما كان عبد الملك يستعين بـــ **حسّان** في المواطن المختلفة، وفي الوقت نفســه ظـل **حسّان** نصيراً كبيراً لعبد الملك والبيت الأموي، لذا نجده يشـــارك عبـــد الملـــك فـــي حصاره لعمرو بن سعيد الأشدق في دمشق عندما خرج عليه، وكذلك نرى حسّان قائداً في الحصار الذي حاصر به عبد الملك زفر بن الحارث [٩٣] المؤيد لخلافة عبد الله بن الزبير في مدينة قرقيسياء، حتى تم الصلح بين الطرفين سنة ٧١ هـــ ـــ ٦٩٠م [٩٤].

سابعاً: وفاة حسان بن مالك:

أورد البلاذري أن "عجم أهل دمشق" اشتكوا عند الخليفة عمر بن عبد العزيـــز علـــى **حسّان** بن مالك بخصوص كنيسة اقتطعت له ولكنها في حقيقة الأمر هي ملـــك لـــهم، مطالبين باسترجاعها [٩٥]، مما يدل ـــ بناءً على هذه الرواية ـــ أن وفاة **حسّان** تأخرت إلى عهد عمر بن عبد العزيز ـــ الذي حكـــم مـــن ســـنة (٩٩-١٠١هـــ / ٧١٧-٧١٩م)[٩٦] أو بعد ذلك، وهذا مستبعد لأننا لا نجد ذكراً لـــ **حسّان** بعد مشاركته فـــي حصار زفر بقرقيسياء سنة (٧١هـــ /٦٩٠م).

ونرى أن الأقرب إلى الصواب اشتكاء عجم أهل دمشق عند الخليفة عمر كان علـــى أولاد **حسّان** بن مالك وليس على **حسّان** نفسه، ذلك لورود رواية أخرى تبين أن عمـــر بن عبد العزيز لما تولّى الخلافة أخرج أبناء الأشراف (ومنهم **حسّان**) الذين اقطعـــوا

كنائس كانت لبطارقة الروم وردها إلى العجم [٩٧]، ويؤيد هذا الترجيح ما ذكره الصفدي أن **حسّان** توفي في حدود سنة ٧٠هـ ــ ٦٨٩م [٩٨].

الخاتمة:

بيّنت هذه الدراسة أن **حسّان** بن مالك يُعَدُّ من الشخصيات الهامة والمؤثرة في أحداث تاريخ صدر الإسلام، وقد تجلّت هذه الأهمية في نصرته لبني أمية منذ ظهوره على ساحة الأحداث السياسية حتى وفاته، ودوره في إيصال الخلافة إلى معاوية بن يزيد بن معاوية، ثم حفظها في بني أمية خلال الفوضى التي عصفت بالعالم الإسلامي بعد وفاة معاوية بن يزيد سنة ٦٤هـ ــ ٦٨٣م، بسبب فراغ منصب الخلافة إلى عبد الملك بن مروان سنة ٦٥هـ ــ ٦٨٤م، الذي بقيت الخلافة في نسله حتى سنة ١٢٧ هـ ــ ٧٤٤م.

وكما دلّت هذه الدراسة أن **حسّان** شخصية قيادية تمتاز ببُعد النظر، وحُسن التخطيط للهدف الذي يريد تحقيقه، كما ظهر واضحاً في جهوده لمواجهة التوجه العام لبيعة ابن الزبير في الدولة الإسلامية وتحويل الكفة إلى بني أمية.

علاوة على ذلك، فقد ناقش البحث في ثناياه مواضيع إشكالية مختلفة بسبب تناقض الروايات فيها، منها مسألة ولاية العهد لخالد بن يزيد بن معاوية، وموقف **حسّان** بن مالك منها، وكذلك تاريخ وفاة **حسّان** بن مالك بن بحدل.

المصادر والمراجع والحواشي

١- هشام بن السائب الكلبي (ت٢٠٤هـ ــ٨١٩م)، **نسب معد واليمن الكبير**، تحقيق ناجي حسن، جزآن (بيروت، ١٩٩٨)، جـ٢، ص٥٩٥، ٥٩٦.

٢- ابن الكلبي، **جمهرة النسب**، تحقيق ناجي جسن (بيروت، ١٩٨٦)، ص١٨.

٣- ابن الكلبي، **نسب معد**، جـ٢، ص٥٩٦، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت٢٧٩هـ ــ ٨٩٢م) **أنساب الأشراف جـ٤**، ق١، تحقيق إحسان عباس (بيروت، ١٩٧٩)، ص٣٥٧، ٤٤٤، ٤٤٧، محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ ــ ٩٢٢م)، **تاريخ الأمم والملوك** ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرون، ١٠ أجزاء (بيروت، ١٩٦٠-١٩٧١)، ج٥،ص٥٣١،٥٣٥، محمد بن أحمد الذهبي (ت٧٤٨هـ -١٣٧٤م)، **سير أعلام النبلاء**، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، ٢٥جزء(بيروت ،١٩٨٢)،ج٣، ص٥٣٧، خليل بن أبيك الصفدي (ت٧٦٤هـ -١٣٦٢م)، **الوافي بالوفيات**، تحقيق هيلموت ريتز وآخرون، ٢١ جزء، (استانبول، دمشق، ويسبادن)، (١٩٣١-١٩٨٤)، ج١١، ص٣٥٩،

M.Talbi, art, **HASSAN B. MALIK’** EI2, Vol.3, P. 270.

٤- أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي (ت٢٨٤هـ -٨٩٧م)، **تاريخ اليعقوبي**، جزآن (بيروت، ١٩٨٠)، ج٢، ص٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٥، ٢٥٧، علي بن الحسين الأصفهاني(ت٣٥٦هـ – ٩٦٦م)، **الأغاني**، ٢٠ جزء (بيروت -بدون تاريخ) ج٧، ص١١١.

M. Talbi, art, **HASSAN B. MALIK**, EI2, Vol. 4, p. 492.

٥- محمد بن عمر الواقدي (ت٢٠٧هـ- ٨٢٢م)، **المغازي**، تحقيق مارسدن جونس، ٣ أجزاء (القاهرة، ١٩٦٥)، ج٢، ص٥٦١، عبد الله بن عبد العزيز البكري (ت٤٨٧هـ -١٠٨٥م) **معجم ما استعجم**، تحقيق مصطفى السقا، ٤أجزاء (بيروت، ١٩٨٣)، ص٢٥،٢٦،٥٢، وقد انتشرت هذه القبيلة في أماكن مختلفة في بلاد الشام في صدر الإسلام من أهمها دمشق وحمص والأردن، انظر الطبري، تاريخ، ج٥، ص٥٣٣،٥٧٣،٥٣٩.

J. W. Fuck, art **"Kalb B. Wabra"**, EI2, Vol. 4, p. 492.

٦- انظر التفصيل عن معركة صفين، الطبري، **تاريخ**، ج٥، ص١٠-٥٠.

٧- نصر بن مزاحم(ت٢١٢هـ، ٨٢٧)، **وقعة صفين**، تحقيق عبد السلام هارون(القاهرة، ١٣٨٢هـ)، ص٢٠٧، خليفة بن خياط (ت٢٤٠هـ، ٨٥٤م)، **تاريخ ابن خياط**، تحقيق أكرم ضياء العمري(بيروت، ١٩٧٧)، ص١٩٦.

٨- **تاريخ**، ص١٩٦.

٩- **صفين**، ص٢٠٧؛ Patrica Crone, Slaves on horses, (Cambridge, 1980) p. 93.

١٠- علي بن الحسن بن عساكر(ت٥٧١هـ-١١٧٦م)، **تهذيب تاريخ دمشق**، تحقيق عبد القادر بدران، ٧ أجزاء (بيروت، ١٩٧٩)، ج٤، ص١٤٨، ويذكر الذهبي أنه كان على قضاعة الشام، **تاريخ الإسلام حوادث وفيات ٦١-٨٠هـ**، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ص ٩٢.

١١- الطبري، **تاريخ**، جـ٥، ص٥، ٦، وفي رواية أخرى للطبري بأن أهل الشام طلبوا من الإمام علي بن أبي طالب أن يسلِّم لهم قتلة عثمان ليقتصوا منهم ثم يعتزل عن الخلافة ويترك الأمر شورى ليختار المسلمون من يشاؤوا، انظر **نفسه**، ص٧.

١٢- الطبري، **تاريخ**، جـ ٤، ص٤٣٧.

١٣- ابن خياط، **تاريخ**، ص٢٠٣؛ أبو الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي (ت٥٩٧هـ ــ ١٢٠١م)، **المنتظم في تواريخ الملوك والأمم**، تحقيق سهيل زكار، ١٣ جزء (بيروت، ١٩٩٥)، جـ٤، ص٧.

١٤- ابن الكلبي، **نسب معد**، جـ٢، ص٥٩٦؛ ابن عساكر، **دمشق**، جـ٤، ص١٤٨.

١٥- إبراهيم بيضون "**مؤتمر الجابية: دراسة في نشوء خلافة بني مروان**"، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام في العهد الأموي" (عمّان، ١٩٨٩)، ص١٤٩ــ١٥١؛

H. Kennedy, **the Prophet and the Age of the Caliphates** (London, New York, 1992) P. 87.

١٦- ابن الكلبي، **نسب معد**، جـ٢، ص٥٩٦؛ ابن خياط، **تاريخ**، ص٢٥٥.

١٧- محمد بن مكرم بن منظور (ت ٧١هـ ــ ١٣١١)، **مختصر تاريخ دمشق الكبير**، تحقيق رياض عبد الحميد مراد وآخرون، ٢٩ جزء (دمشق، ١٩٨٤)، جـ١٦، ص٤٠.

١٨- **المصدر نفسه**، جـ٤، ص١٤٨؛ الذهبي، **سير**، جـ٣، ص٥٣٧.

١٩- الطبري، **تاريخ**، جـ٥، ص٥٣١.

٢٠- اليعقوبي، **تاريخ**، جـ٢، ص٢٥٢، ٢٥٣.

٢١- البلاذري، **أنساب**، جـ٤، ق١، ص٣٥٧؛ **نفسه**، تحقيق م شلنجر (القدس، ١٩٣٦)، جـ٤، قسم ٢، ص٦٣؛ Kennedy, **Caliphates**, P. 90.

٢٢- **المصدر نفسه**، ص٦٥، **نفسه**، تحقيق س جواتياين (القدس، ١٩٧١)، جـ٥، ص١٢٩، ١٣٢؛ الطبري، **تاريخ**، جـ٥، ص٥٣١؛ الأصفهاني، **الأغاني**،

جـ١٧، ص١١١.

٢٣- اختلفت الروايات في مقدار المدة التي حكم فيها معاوية بن يزيد فقيل عشرون يوماً، وقيل أربعون يوماً، وقيل ثلاثة أشهر، وقيل أيضاً أربعة أشهر، انظر اليعقوبي، **تاريخ**، جـ٢، ص٢٥٤؛ البلاذري، **أنساب جـ٤**، ق١، ص٣٥٦.

٢٤- البلاذري، **أنساب**، جـ٤، ق١، ص٣٥٦؛ الطبري، **تاريخ**، جـ٥، ص٥٣١.

٢٥- البلاذري، **أنساب**، جـ٤، ق١، ص٣٥٩.

٢٦- **المصدر نفسه**، ص٣٥٦.

٢٧- **المصدر نفسه**، جـ٥، ص١٣٢؛ وانظر أيضاً الطبري، **تاريخ**، جـ٥، ص٥٣١.

٢٨- ابن خياط، **تاريخ**، ص٢١٩، الأصفهاني، **الأغاني**، جـ١٧، ص١١١.

٢٩- ابن خياط، **تاريخ**، ص٢٥٥؛ البلاذري، **أنساب**، جـ٤، ق١، ص٣٥٦.

٣٠- اليعقوبي، **تاريخ**، جـ٢، ص٢٣٩؛ الطبري، **تاريخ**، جـ٥، ص١٢؛ ابن عساكر، **دمشق**، جـ ٧، ص٧.

٣١- **الإمامة والسياسة** المنسوب لعبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦ هـ ــ ٨٨٩م)، تحقيق طه محمد الزيني، جزآن (بيروت، بدون تاريخ)، جـ١، ص١٧٤؛ الطبري، **تاريخ**، جـ٥، ص٣٢٧، ٣٢٨؛ ابن عساكر، **دمشق**، جـ٧، ص٨.

٣٢- الطبري، **تاريخ**، جـ٥، ص٥٣٢.

٣٣- أورد البلاذري في إحدى رواياته ــ خلاف المشهور ــ أن **حسّان** عندما انسحب من دمشق قدم إلى حد الأردن، **أنساب**، جـ٤، ق٢، ص٦٤.

٣٤- اليعقوبي، **تاريخ**، جـ٢، ص٢٥٥، وذكر "ولم تبقَ ناحية إلا مالت إلى ابن

الزبير خلاف الأردن"؛ علي بن الحسين المسعودي (ت٣٤٥هـ ـ ٩٥٦م)، **التنبيه والأشراف**، (بيروت، ١٩٨١)، ص٢٨٢، بيضون، **مؤتمر**، ص١٥١؛ Kennedy, **Caliphates**, P. 91.

٣٥- البلاذري، **أنساب**، جـ٥، ص١٢٨.

٣٦- الطبري، **تاريخ**، جـ٥، ص٥٣١.

٣٧- البلاذري، **أنساب**، جـ٥، ص١٣٢؛ الطبري، **تاريخ**، جـ٥، ص٥٣١؛ بيضون، **مؤتمر**، ص١٥٨؛ Crone, **Slaves**, P. 34, 35.

٣٨- انظر التفصيل عن وقعة الحرة: ابن خياط، **تاريخ**، ص٢٣٦-٢٥٠؛ الطبري، **تاريخ**، جـ ٥، ص٤٨٢-٤٩٥.

٣٩- انظر تفصيل ذلك في البلاذري، **أنساب**، جـ٥، ص١٣٢؛ **الطبري**، جـ٥، ص٥٣١، ٥٣٢.

٤٠- اليعقوبي، **تاريخ**، جـ٢؛ ص٢٥٥، المسعودي، **التنبيه**، ص٢٨٢.

٤١- البلاذري، **أنساب**، جـ٥؛ ص١٣٢، ١٣٣؛ الطبري، **تاريخ**، جـ٥، ص٥٣٢، هذا الكتاب ـ كما يذكر الطبري ـ أن **حسّان** "يعظم فيه حق بني أمية ويذكر الطاعة والجماعة وحسن بلاء بني أمية عنده وصنيعهم إليه ويدعوه إلى طاعتهم، ويذكر ابن الزبير ويقع فيه ويشتمه، ويذكر أنه منافق قد خلع خليفتين" **تاريخ**، جـ ٥، ص٥٣٢.

٤٢- ابن منظور، **دمشق**، جـ١١، ص١٣٢.

٤٣- البلاذري، **أنساب**، جـ٥، ص١٣٣؛ الطبري، **تاريخ**، جـ٥، ص٥٣٢، ٥٣٣.

٤٤- البلاذري، **أنساب**، جـ٥، ص١٣٣، ١٣٤؛ الطبري، **تاريخ**، جـ٥، ص٥٣٣.

٤٥- ابن منظور، **دمشق**، جـ١١، ص١٣٢.

٤٦- البلاذري، **أنساب**، جـ٥، ص١٣٤؛ الطبري، **تاريخ**، جـ٥، ص٥٣٤، ٥٣٥؛ مرج راهط "موضع في الغوطة من دمشق بعد مرج عذراء إذا كنت في القصير طالباً لثنية العقاب تلقاء حمص فهو عن يمينك"، ياقوت بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦هـ ــ ١٢٢٩م)، **معجم البلدان**، ٥ أجزاء، (بيروت، ١٩٧٩)، جـ٣، ص٢٠.

٤٧- الطبري، **تاريخ** جـ٥، ص٥٣٥.

٤٨- ابن الكلبي، **نسب معد**، جـ٢، ص٩٦؛ البلاذي، **أنساب**، جـ٥، ص١٣٤، ١٣٥؛ الطبري، **تاريخ**، جـ٥، ص٥٣٥؛ وانظر أيضاً عن تفصيل مؤتمر الجابية: بيضون، **مؤتمر الجابية**، ص١٤٣ــ١٥٠.

٤٩- البلاذي، **أنساب**، جـ٥، ص١٢٨.

٥٠- محمد بن سعد (ت تقريباً ٢٠٠هـ ــ ٨١٥م)، **الطبقات الكبرى**، ٩ أجزاء (بيروت، ١٩٥٧ ــ ١٩٦٨)، جـ ٥، ص٤١؛ ويُعزى مثل هذا القول أيضاً ــ ولكن مع زيادة ــ إلى مالك بن هبيرة، انظر البلاذري، **أنساب**، جـ٥، ص١٣٤.

٥١- **المصدر نفسه**، ص١٢٨، ١٢٩.

٥٢- ابن سعد، **الطبقات**، جـ٥، ص٤١؛ الطبري، **تاريخ**، جـ٥، ص٥٣٦، ٥٣٧.

٥٣- **المصدر نفسه**، ص٥٣١، ٥٣٢.

٥٤- البلاذري، **أنساب**، جـ٥، ص١٢٩.

٥٥- **المصدر نفسه**.

٥٦- **المصدر نفسه**، ص١٣٨؛ Crone, **Slaves**, p. 93.

٥٧- البلاذري، **أنساب**، جـ٥، ص١٣٨، الطبري، **تاريخ**، جـ٥، ص٥٣٧، ٥٤٠.

٥٨- **المصدر نفسه**، ص٥٣٩، ٥٤٠، قرقيسياء "بلد على نهر الخابور قرب رحبة مالك بن طوق على ستة فراسخ وعندها مصب الخابور في الفرات، فهي في مثلث بين الخابور والفرات"، ياقوت، **البلدان**، جـ٤، ص٣٢٨.

٥٩- البلاذري، **أنساب**، جـ٥، ص١٤٨، ١٤٩؛ الطبري، **تاريخ**، جـ٥، ص٥٤٠.

٦٠- ابن سعد، **الطبقات**، جـ٥، ص٤١؛ البلاذري، **أنساب**، جـ٥، ص١٥٠؛ المسعودي، **التنبيه**، ص٢٨٢؛ ابن منظور، **دمشق**، جـ٢٤، ص١٨٨.

٦١- البلاذري، **أنساب**، جـ٥، ص١٢٩؛ وانظر أيضاً الطبري، **تاريخ**، جـ٥، ص٥٣٧.

٦٢- البلاذري، **أنساب**، جـ٥، ص١٣٥.

٦٣- **المصدر نفسه**، جـ٤، ق٢، ص١٣٧.

٦٤- **المصدر نفسه**.

٦٥- **المصدر نفسه**، جـ٤، ق١، ص٤٤٤؛ جـ٤، ق٢، ص١٣٧.

٦٦- **المصدر نفسه**، جـ٥، ص١٥٠.

٦٧- **المصدر نفسه**، جـ٤، ق١، ص٤٤٣.

٦٨- **المصدر نفسه**، جـ٥، ص١٣٥.

٦٩- اليعقوبي، **تاريخ**، جـ٢، ص٢٥٧.

٧٠- البلاذري، **أنساب**، جـ٥، ص١٥٠.

٧١- **المصدر نفسه**.

٧٢- المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ٤ أجزاء، (بيروت، ١٩٨٢)، جـ٣، ص٩٧.

٧٣- البلاذري، **أنساب**، جـ٤، ق١، ص٤٤٢.

٧٤- **المصدر نفسه**.

٧٥- ابن الكلبي، **نسب معد**، جـ٢، ص٥٩٦؛ وانظر أيضاً ابن عساكر، **دمشق**، جـ٤، ص١٤٨؛ الصفدي، **الوافي**، جـ١١، ص٣٥٩؛ الذهبي، **سير**، جـ٣، ص٥٣٧.

٧٦- اليعقوبي، **تاريخ**، جـ٢، ص٢٥٧.

٧٧- المسعودي، **مروج**، جـ٣، ص٩٧.

٧٨- انظر تفصيل حروب عبد الملك الذي خلف والده مروان مع ابن الزبير وأنصاره في العراق والحجاز، الطبري، **تاريخ**، جـ٦، ص١٥١ـ١٦٢، ١٧٤، ١٧٥، ١٨٧ـ١٩٢.

٧٩- ابن الكلبي، **نسب معد**، جـ٢، ص٥٩٦.

٨٠- الطبري، **تاريخ**، جـ٥، ص٥٣٤، ٥٣٥، ٥٣٧، ٥٣٨.

٨١- البلاذري، **أنساب**، جـ٥، ص٣٠١؛ الطبري، **تاريخ**، جـ٦، ص١٤١.

٨٢- المسعودي، **مروج**، جـ٣، ص٩٧.

٨٣- البلاذري، **أنساب**، جـ٥، ص١٥٠.

٨٤- **المصدر نفسه**، جـ٤، ق١، ص٤٤٢.

٨٥- الطبري، **تاريخ**، جـ٥، ص٦١٠.

٨٦- **المصدر نفسه**، ص٥٤١، ٦١٠، ٦١١.

٨٧- **المصدر نفسه**، ص٦١٠، ٦١١.

٨٨- ابن سعد، **الطبقات**، جـ٥، ص٤٢؛ الطبري، **تاريخ**، جـ٥، ص٦١١؛ ابن

منظور، **دمشق**، جـ٢٤، ص١٨٩.

٨٩- الطبري، **تاريخ**، جـ٥، ص٥٣٧.

٩٠- البلاذري، **أنساب**، جـ٥، ص١٥٠.

٩١- الطبري، **تاريخ**، جـ٥، ص٦١١.

٩٢- البلاذري، **أنساب الأشراف**، تحقيق أهلوردت، جـ١١، (ليبزغ، ١٨٨٣)، ص١٨٤.

٩٣- الطبري، **تاريخ**، جـ٦، ص١٤١.

٩٤- البلاذري، **أنساب**، جـ٥، ص٣٠١ـ٣٠٥.

٩٥- علي بن محمد بن الأثير (ت ٦٣٠هـ ـ ١٢٣٢م)، **الكامل في التاريخ**، ١٣ جزء، (بيروت، ١٩٧٩) جـ٤، ص٣٣٧ـ٣٤٠.

٩٦- البلاذري، **فتوح البلدان**، تحقيق صالح الدين المنجد، (القاهرة، بدون تاريخ)، ص١٤٧.

٩٧- ابن خياط، **تاريخ**، ص٣١٦ـ٣٢١.

٩٨- ابن منظور، **دمشق**، جـ١، ص٢٩٠.

٩٩- الصفدي، **الوافي**، جـ١١، ص٣٥٩.

أعمال الرباط والمثاغرة
في التاريخ العربي الإسلامي

الدكتور علي أحمد
جامعة دمشق ــ قسم التاريخ

أعمال الرباط والمثاغرة في التاريخ العربي الإسلامي

نقول بادئ ذي بدء، أن أعمال الرباط والمثاغرة في تاريخ العرب النضالي، كانت من أجلّ وأنبل الأعمال، ذلك لأنها تهدف في المقام الأول الذود بسخاء عن حمى الأوطان دون أن تتدخل أية سلطة فيها، وبخاصة أن المرابطين والمثاغرين كانوا يقدمون على هذه الأعمال برغبة جامحة، يحدوهم في ذلك محبة الجهاد في سبيل أن تبقى أوطانهم عزيزة كريمة، وراياتها خفاقة تعبر عن قيمة الحرية وروعتها. وكان المرابطون والمثاغرون يمارسون هذه الأعمال في رباطات وثغور معينة، كانت جميعها تقريباً في مواقع قريبة جداً من أماكن توضعات العدو وعلى تماس مباشر معه. ومن حسن الحظ أن معظم الذين تطوعوا للرباط والمثاغرة، كانوا يرغبون في الشهادة التي كانت في نظرهم عملاً عظيماً يفوق كل الأعمال الأخرى، التي تتسم بالخير والصلاح، لأن الشهادة التي في سبيل حماية الأوطان هي طريق معبدة بقوة، تنتهي في نهاية المطاف في الجنة، حيث الخلود والبقاء.

ولا ننسى أيضاً أن مجموعة من أعمال الرباط والمثاغرة، نفذتها الجيوش العربية النظامية تحت اسم معروف في تاريخ العرب في العصور الوسطى بالصوائف والشواتي، وإن كانت الصوائف هي الأكثر في هذا الميدان، ذلك لأن الأراضي أو المناطق التي نفذت فيها هذه الصوائف هي من المناطق الشديدة البرودة والتي تكثر فيها الأمطار والثلوج والجليد، الأمر الذي كان العرب يبتعدون عنه، لذلك كانوا يفضلون المناطق المعتدلة وكذلك أجواء الصيف لملاءمتها لطبيعتهم واستعدادهم الجسماني العام.

أدى الإقدام على تنفيذ هذه الأعمال الجليلة، إلى بناء مزيد من أماكن الرباط والمثاغرة في عدد من المناطق، التي كانت على تماس مباشر مع الجهات المعادية، وقد تطوَّر

بعض هذه الأماكن مع مرور الزمن فأصبحت من المدن الهامة، التي ما زال بعضها قائماً حتى يومنا هذا، وكانت الدولة المسؤولة عن هذه المناطق هي التي تقوم بإنشاء هذه الأماكن كخطة هامة من أجل الحفاظ على أمنها واستقلالها العام. وحدث في بعض المناطق أن قام متطوعون مرابطون ببناء بعض الأربطة الهامة كما سنرى فيما يأتي :

كانت بلاد الشام كمنطقة جغرافية في العصور الوسطى هي السباقة في هذا المجال الحيوي كما هي اليوم، ذلك بحكم موقعها كمنطقة مصاقبة لدولة معادية هي الدولة البيزنطية، التي كانت من القوة والمنعة والخبرة في شؤون الحرب والقتال على درجة كبيرة، مكنتها من الثبات بقوة في وجه الدولة العربية الإسلامية، التي حاولت منذ وقت مبكر إسقاط هذه الدولة على غرار ما حدث لكثير من الدول الكبرى، نتيجة نجاح الفتوحات العربية في العديد من مناطق العالم.

ظهرت بوادر البدء بخطة الرباط والمثاغرة في العصر الراشدي، كخطة أو كعمل متمم لعمليات كان العرب المسلمون قد ركزوا على إنجازها. وقد بدأت هذه العملية في أول أمرها على السواحل الشامية، فقد أمر عثمان بن عفان واليه على الشام معاوية بن أبي سفيان، الذي كانت له اهتماماته الخاصة في العمليات العسكرية البحرية، وبالتالي لحماية السواحل الشامية من قبل البيزنطيين الذين امتلكوا في تلك الفترة قوة بحرية كبيرة[1]، أمره بإنشاء العمائر الحربية وترميم الحصون الساحلية، فرمّم حصون صيدا وكذلك حصون صور، وأنشأ جبلة على الساحل السوري اليوم وكانت حصناً للروم، جلوا عنه حينما فتح العرب المسلمون مدينة حمص في وسط سورية، وشحنها بالمرابطة المتطوعين، وأنشأ لجبلة حصناً خارجاً من الحصن البيزنطي القديم، كذلك مَصَّرَ أنطرسوس (طرطوس اليوم على الساحل السوري) وكانت حصناً جلا عنه أهله، فبنى معاوية فيها الأبنية وأقطع بها القطائع، وكذلك فعل بمرقية وبانياس إلى الشمال قليلاً من أنطرسوس. [2] وعملية إقطاع القطائع التي أقرها معاوية في

أنطرسوس، ربما كانت أول عملية من نوعها في الدول العربية الإسلامية بعد إقطاع الرسول لبعض أراضي الموات وغيرها، هذه العملية التي تطوّرت فيما بعد إلى نظام الإقطاع الذي كان على نوعين، إقطاع التمليك وهو من أرض الموات أو من أرض الصوافي، ولصاحب هذا الإقطاع حق التصرف بإقطاعه، وإقطاع الاستغلال وهو مؤقت يشبه نظام المزارعة، الذي يقوم صاحبه بدفع الخراج عنه أو العشر ولا يجوز توريثه. وهناك نوع آخر من الإقطاع ظهر في العصر البويهي، وتوسع استخدامه في عصر السلاجقة والأيوبيين، وكذلك في عصر الحاجب محمد بن أبي عامر بالأندلس في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي/ وهذا الإقطاع دعي بالإقطاع العسكري، وكان يعطي للضباط مقابل عدم إعطائهم رواتب شهرية ثابتة(٣).

قام معاوية بن أبي سفيان بهذه الأعمال بعد أن ألحَّ على الخليفة عثمان بن عفان بالطلب في غزو قبرص وغزو القسطنطينية، ذلك لأن معاوية كان يحلم دوماً بالسيطرة على الممتلكات البيزنطية، هذا الحلم الكبير الذي ظل حياً في نفوس معظم الخلفاء الأمويين، وقضوا جميعاً ولم يتحقق. وكان معاوية بعد تحصين السواحل الشامية، أن بدأ في سلسلة من الحروب البرية أطلق عليها تسمية(حرب الثغور). والثغور كمنطقة جغرافية هي ما يعرف بشمال سورية وشمال العراق وجنوب شرق الأناضول، من أهم مناطقها مرعش وعينتاب وماردين والعواصم وعمورية وزبطرة والرها وغيرها، وهي كلها مناطق قريبة من القسطنطينية الهدف الرئيس للأمويين. وكانت الثغور فارغة من السكان باستثناء بعض المسيحيين، الذين أطلق عليهم تسمية(الجراجمة) الذين اختلف ولاؤهم بين حين وآخر، فكانوا يوالون الروم، وذلك بحسب ما تقتضيه مصالحهم العامة (٤).

كان لحرب الثغور هذه نظام معروف منذ سنة ٢٩ هـ/٦٥٠ م ، عرف بنظام الصوائف والشواتي، الذي يقوم على تنفيذ غزوتين في كل عام إلى بلاد الروم، إحداهما في الصيف تسمى الصائفة والثانية منهما في الشتاء تسمى الشاتية. ولقد كانت

الصوائف كما نوهنا أحب إلى قلوب العرب، لأنهم كانوا أكثر احتمالاً للحر من عدوهم وأقل صبراً على البرد.

ويبدو أن العرب لم يستقروا في شمال الشام وراء إنطاكية. ولما عجز العرب عن الاستقرار وراء ذلك، كما عجز الروم عن استرداد شيء من الأرض جنوب إنطاكية، تحولت حروب العرب والروم إلى غزوات كاسحة للتخريب والتدمير. ولقد اتفق العرب المسلمون أن اخترقوا بلاد الروم(آسية الصغرى)ووصلوا إلى القسطنطينية وحاصروها من غير أن يستطيعوا السيطرة عليها. وكذلك ساروا إليها بحراً فلم يقدروا أيضاً عليها.

فقد كان معاوية في مطلع خلافته مشغولاً في توطيد الملك لنفسه ولآله الأمويين وبالتمهيد لمبايعة ابنه يزيد بولاية العهد، فآثر مهادنة كونستانس الثاني البيزنطي لكي يتفرغ لمعالجة الموقف الداخلي. غير أن الحرب عادت بين الروم والعرب وشيكاً[٥].

ومن الصوائف الكثيرة تلك الصائفة التي وصلت إلى حدود القسطنطينية بقيادة يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، الذي لم يكن بوده المشاركة فيها لأنه لم يكن يهوى مثل هذه الأعمال، لكن الذي حدث أن والده معاوية أجبره على قيادتها لإظهاره كقائد عسكري يصلح لحكم وقيادة الرعية بعد أبيه، ولإبعاد الصورة السيئة عن سيرته العامة. وقد شارك في هذه الصائفة كبار الصحابة وفي مقدمتهم صاحب رسول الله(ص) أبو أيوب الأنصاري، الذي سقط شهيداً في هذه الصائفة ودفن بالقرب من أسوار القسطنطينية[٦].

وكان الهاجس لمعاوية كما ذكرنا هو حلمه بإسقاط القسطنطينية. لذلك نراه بتأثير ذلك يتابع إرسال الصائفة تلو الصائفة ولكن دون جدوى، حيث فشلت جميع الصوائف على أسوار المدينة. ومما ساعد البيزنطيين على حماية عاصمتهم من السيطرة العربية ما عرف بالنار الإغريقية التي اخترعها مهندس يقال أنه من اليونان، اسمه(كالينيكوس) كان قد هاجر إلى بيزنطة من سورية[٧] . وعلى الرغم من ذلك، فقد دخلت بيزنطة في

مفاوضات جادة مع حكومة دمشق الأموية لإنهاء حالة الحرب هذه، وأرسلت وفداً مفاوضاً تمكّن من عقد صلح بين الطرفين مدته ٣٠ سنة[٨].

في عصر يزيد بن معاوية وعصر مروان بن الحكم وابنه عبد الملك بن مروان، توقفت عملياً الصوائف الثغرية الشمالية، وهي المنطقة التي شكلت على الدوام خطراً أثار الخوف والقلق في نفوس خلفاء بني أمية. ولابد أن سبب ذلك التوقف، تجسّد بشكل خاص بالمشاكل الداخلية التي برزت بكثرة في فترة حكم الخلفاء سابقي الذكر، كعملية انتقال الحكم من السفيانيين إلى المروانيين، وما رافق ذلك من متاعب جمة، وتلك الأحداث المخيفة في عصر عبد الملك بن مروان، كثورة عبد الله بن الزبير في الحجاز، والانتفاضة المستمرة بالعراق، وتمرّد عمرو بن سعيد الأشدق بدمشق، والضغط البيزنطي الذي ازداد بفعل هذه الأحداث، مما جعل عبد الملك بن مروان يلجأ إلى تجديد تلك المعاهدة التي كان معاوية بن أبي سفيان قد عقدها مع بيزنطة ولمدة ثلاثين عاماً، وأضاف عليها البيزنطيون بنداً جديداً يقضي بأن يلتزم عبد الملك بن مروان بدفع جزية سنوية كبيرة، كانت أكبر بكثير من تلك التي كان يدفعها معاوية، كذلك أجبره البيزنطيون على إعطائهم نصف ما كان يأتيه من جباية أرمينية وقبرص[٩] . لكن بعد أن تغلب على مشاكله الداخلية، رفض الالتزام ببنود هذه المعاهدة، وحاول إرسال بعض الصوائف بقيادة مسلمة بن عبد الملك، فوصلت إلى عمورية وقونية ودور ليوم(أسكي شهر) لكنها لم تكن ذات تأثير كبير[١٠] .

وفي عهد الوليد بن عبد الملك[١١]، استمر إرسال الصوائف إلى منطقة الثغور الشمالية التي كان يقودها مسلمة بن عبد الملك الذي عرف بنبوغه في فنون القتال ومعرفته لهذه المنطقة الثغرية، فبدأ بصائفة إلى حصن طوانة، الذي كان يعد من أهم الحصون على طريق الجيوش المتقدمة باتجاه العاصمة البيزنطية، وتمكن مسلمة من السيطرة على هذا الحصن سنة ٨٨ هـ/٧٠٧ م [١٢] . ووصل المثاغرون في بعض الصوائف إلى كيليكية ثم إلى كريزوبوليس.

حينما توفي الوليد بن عبد الملك خلفه أخوه سليمان بن عبد الملك، الذي أراد أن يكون له شرف تحقيق ما لم يحققه السابقون من خلفاء بني أمية في المجال العسكري، على الرغم من أن معظم المؤرخين يتهّمون سليمان بن عبد الملك باللهو والانكباب على الملذات الخاصة. شجعه على ذلك أن بيزنطة كانت تحكم من قبل إمبراطور ضعيف هو ثيودوثيوس الثالث آخر ملوك الأسرة الهرقلية البيزنطية. وقد انتشر المثاغرون العرب طوال سنة ٩٨ هـ/٧١٧ م في المنطقة الممتدة من مرج دابق شمال حلب إلى أسوار القسطنطينية، وكان يقود هذه القوات المثاغرة الخليفة سليمان بن عبد الملك نفسه وربما هي أول مرة يقوم خليفة أموي بمثل هذا العمل القيادي المباشر، وكان يوجه العمليات الحربية من معسكره في دابق. وترافقت المثاغرة البرية هذه المرة مع مثاغرة بحرية مماثلة كان يقودها عمر بن هبيرة، في حين كان على قيادة المثاغرة البرية مسلمة بن عبد الملك(١٣).

أبدى المثاغرون هذه المرة ضروباً نادرة في التضحية والشهادة والإقدام، فقد اشتهر من بين المثاغرين رجل يدعى عبد الله البطال، الذي كان من جملة مرافقي مسلمة بن عبد الملك وحراسه، وقد أبلى في حصار العاصمة البيزنطية بلاء حسناً أعطاه شهرة واسعة الانتشار، تجسّدت في قصص بطولية رائعة تشبه الأساطير، وعده الأتراك بطلاً قومياً وسموه(السيد غازي). وقد أنشئ على قبره بالقرب من أسكي شهر تكية ومسجد لأبناء الطريقة البكتاشية، وقد استشهد البطال في عملية نضالية ضد البيزنطيين سنة ١٢١هـ /٧٤٠م، أي في عصر الخليفة هشام بن عبد الملك، الذي استمرت العمليات الثغرية في زمانه. ويذكر أن البيزنطيين طبعوا صورة البطال على بعض كنائسهم لتذكير الناس بماله من بأس وشجاعة يجب أن تحتذى (١٤).

توفي سليمان بن عبد الملك على حين غرة في سنة ٩٩هـ/٧١٨ م وخلفه عمر بن عبد العزيز، الذي أوقف جميع العمليات الحربية من صوائف وغيرها، لأنه كان مقتنعاً أن معظم العمليات الحربية لم تكن في سبيل الإسلام، بل كانت في سبيل الحصول

على المكاسب والمغانم المادية. وكان من نتيجة توقف هذه العمليات أن قام البيزنطيون بهجوم كبير على مدينة اللاذقية سنة ١٠٠ هـ/٧١٩ م(١٥) .

لكن الذي حصل أن أعمال المثاغرة عادت من جديد في عصر هشام بن عبد الملك، الذي يعد من مشاهير خلفاء بني أمية. ففي عصره كان المثاغرون العرب إذا سيطروا على منطقة ثغرية معينة في فصل الصيف تركوها حين حلول الشتاء. وهذا ما ساعد البيزنطيين في بعض الأحيان من تحقيق بعض الانتصارات، كما حصل في سنة ١٢٢ هـ /٧٤٠ م، حينما قضوا على مجموعة مثاغرة من الجيش الأموي عند موقع أكروثيون قرب عمورية، و هو الموقع الذي سقط فيه البطل العربي عبد الله البطال شهيداً. وكان يقود أعمال الصوائف في هذه الفترة ولدا هشام بن عبد الملك، معاوية وسليمان اللذان اشتهرا بالشجاعة والبأس والإقدام(١٦).

وحينما سقطت الدولة الأموية في المشرق، ورثت أعمال الرباط والمثاغرة عنها الدولة العباسية وبخاصة في العصر الأول من عمر هذه الدولة(١٧). لكن هذه الأعمال من حيث أهدافها الرئيسية، كانت تختلف عن تلك التي كانت عند الأمويين، ففي حين كان الأمويون يهدفون إلى إسقاط الإمبراطورية البيزنطية بالسيطرة على عاصمتها من أجل إحكام السيطرة على الحوض الشرقي للبحر المتوسط بكامله، بعد أن أحكموا سيطرتهم على مناطق هامة في حوضه الغربي، كان العباسيون يهدفون من أعمال الصوائف والمثاغرة تأدية واجب ديني محض هو واجب الجهاد في سبيل الله، ذلك لأن الدولة العباسية قامت على أساس ديني، بينما قامت الدولة الأموية على أساس عربي، لم يكن للدين فيه كبير شأن أضف إلى ذلك، أن البيزنطيين في العصر العباسي بدءوا يشنون هجمات مضادة من أجل الدفاع انطلاقاً من القاعدة التي تقول أن أفضل وسيلة للدفاع، هي الهجوم وهي القاعدة التي طبقها الأمويون من خلال عملياتهم الثغرية سابقة الذكر.

بدأ البيزنطيون هذه العمليات منذ عصر الخليفة العباسي الأول أبو العباس السفاح،

الذي فوجئ بهجوم بيزنطي على منطقة ثغور الجزيرة الفراتية وبخاصة ثغر ملطية في سنة ١٣٣ هـ/٧٥١ م. وكان يقود هذا الهجوم الإمبراطور قسطنطين الخامس نفسه[١٨] . ولما جاء الخليفة المنصور استفاد من هذا الهجوم ، فأمر بتحصين ثغور الجزيرة الفراتية والشامية وزودها بأعداد كبيرة من المرابطين. وفي سنة ١٣٩ هـ/٧٥٧ م جعل هذه المنطقة ولاية إدارية مستقلة وولى عليها عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام تحت اسم(والي الجزيرة) الذي عمل مباشرة على إعمار حصن المصيصة وإعادة إعمار ما خربه البيزنطيون في ملطية، ونقل إليها نحواً من أربعة آلاف من مناطق الجزيرة الأخرى، وزودهم بالسلاح وأقطعهم الأراضي، الأمر الذي شجّع العديد من الناس على سكنى هذه المنطقة وبخاصة من سكان المناطق المجاورة.
وفي عصر المنصور أيضاً بنيت مدينة ثغرية جديدة هي مدينة(أضنة)، وكان بناؤها في سنة ١٤٢ هـ/٧٦٠ م وثاغر فيها مجموعة من أهل الشام وخراسان. ثم تبع ذلك إعادة ترميم وتجديد حصن (مرعش) بعد عمليات تخريب أتت على معظم منشآته منذ فترة حكم مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية. ولما انتهت هذه العمليات الإنشائية وضع الخليفة المنصور أسلوباً محدداً لتقاليد المثاغرة والجهاد في هذه المناطق من خلال الصوائف والشواتي، التي اشتهر على صعيدها القائد المثاغر مالك بن عبد الختمي، الذي لقب(بمالك الصوائف) لحسن بلائه وجهاده الصادق ضد البيزنطيين[١٩].

بعد وفاة المنصور استمرت أعمال المثاغرة والرباط على غرار ما كانت عليه في عصر ابنه المهدي بن المنصور، الذي قام بتحصين ثغر طرسوس وزوده بالمرابطين، وفي الوقت نفسه تصدّى لهجمات بيزنطية قصدت ثغر مرعش والحدث وخربتهما، ثم أعاد بناءهما وأرسل بأربعة آلاف من المثاغرين إليهما، ثم قام بعد ذلك بتنفيذ صائفة ثغرية كان على رأس قيادتها، وكان معه ابنه الرشيد في ١٦٣ هـ/٧٨٠ م، ولما وصلت هذه الصائفة إلى مدينة حلب في شمال سورية اليوم، أمر المهدي ابنه الرشيد بمتابعة التنفيذ، فقام الرشيد باستعادة حصن(سمالو) وغيره.

وفي سنة ١٦٥ هـ/٧٨٢ م وصل الرشيد بتكليف من أبيه إلى أسوار القسطنطينية، وخافت الإمبراطورة ايرين من نجاح العرب المسلمين بالسيطرة على عاصمتها، فعقدت صلحاً مع الرشيد تكفلت بموجبه بدفع الجزية للعباسيين[٢٠].

لم يتغير الحال في هذا الميدان حينما أصبح الرشيد خليفة بعد أبيه المهدي، فقد قام بتحصين الجزء الأكبر من منطقة الثغور، وكان في طليعة أعماله إنشاء منطقة(العواصم) وهي منطقة ثغرية مستحدثة، ضمت قسماً كبيراً من أرض قنسرين والجزيرة[٢١]. وجعلها مستقلة عن بقية الثغور وجعل عاصمتها(منبج) بالقرب من مدينة حلب في شمال سورية اليوم، وزودها بقوات عسكرية مثاغرة خاصة بها[٢٢].

ومن أعمال الرشيد الهامة الأخرى في منطقة الثغور، كان بناؤه(عين زربة) التي زودها وأسكنها بالمرابطين من المتطوعين لأعمال الرباط والمثاغرة[٢٣]. أضف إلى ذلك أنه نفذ العديد من الصوائف الهامة التي وصل بعضها إلى مدينة أنقرة وأفسوس، الأمر الذي أثر في الإمبراطورة البيزنطية إيرين، بأن أقدمت على عقد معاهدة صلح مع الحكومة العباسية، تدفع بموجبها الجزية للعباسيين، لكن هذه المعاهدة لم تدم طويلاً حيث قام البيزنطيون بنقضها، مما جعل العباسيين يعودون إلى تنفيذ صوائف ثغرية هامة وبعض الشواتي، حينما جاء نقفور إلى الحكم في بيزنطة وبدأ يهدد مناطق الثغور ظناً منه أن العرب لا يثاغرون في فصل الشتاء[٢٤].

وكان الخليفة المأمون يشبه إلى حد كبير والده الرشيد في مسألة الانتباه إلى أعمال الرباط والمثاغرة، وكثيراً ما قاد الطوائف بنفسه وكان يقيم فترة طويلة في كل صائفة، كما حدث في سنة ٢١٧ هـ/٨٣٣ م قبل وفاته بسنة واحدة، حينما ثاغر مدة ثلاثة شهور متوالية في عصر الإمبراطور البيزنطي تيوفيل، وكذلك فعل في السنة التالية وأمر ببناء عدد من الحصون وتوفي وهو مثاغر بطرسوس من أعمال الثغور[٢٥].

أما في عصر الخلفاء العباسيين الذين حكموا بعد المأمون، وهم المعتصم والواثق والمتوكل، فلم تشهد أعمال الرباط والمثاغرة نشاطاً مميزاً يمكن التوقف في رحابه،

باستثناء تلك الحملة الثغرية التي قادها المعتصم إلى حصن عمورية الهامة بالنسبة للبيزنطيين، ويعود السبب في ذلك إلى أن جميع هؤلاء الخلفاء شغلوا بقضايا أهم كحركة بابك الحزمي وحركات الزط والشعوبية وقضية الاعتزال وما اتصل بهذه القضايا. واختفت أعمال الرباط والمثاغرة نهائياً في العصر العباسي الثاني، بسبب السيطرة الأجنبية على الخلافة العباسية التي أصبحت خلافة مقهورة من تسلط الأجانب، الذين كانوا لا يهتمون بمثل هذه الأعمال الوطنية الخالدة، بقدر ما كانوا يهتمون بمصالحهم الضيقة الخاصة.

يضاف إلى ذلك أن الدولة البيزنطية لجأت إلى إقامة نظام ثغري رباطي على غرار ما كان عند الأمويين والعباسيين، أطلقوا عليه تسمية(نظام الثغور أو الأجناد). وقد تطور هذا النظام وأعطى نتائج إيجابية في ميدان الدفاع المحلي، الذي اعتمد على سياسة تحويل الفلاحين البيزنطيين إلى جنود مدافعين عن أرضهم في أوقات الضرورة الحربية، وإلى مستثمرين للأراضي في أوقات السلم، لذلك بدأت التحركات العربية تصطدم بصعوبات ومقاومة عسكرية وشعبية في كل الثغور المتقدمة القريبة من البيزنطيين[٢٦].

لم تكن أعمال الرباط والمثاغرة مقتصرة على الجزء الشرقي من وطننا العربي الكبير بل انتقلت هذه التقاليد الوطنية الرائعة إلى الجناح الغربي من ديار العرب في المغرب والأندلس وكان لهذه الأعمال الجليلة مبرراتها الواقعية، التي ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بحالة الدفاع المشروع عن الأرض والحقوق. ففي المغرب الأدنى(تونس الحالية) التي كانت مقراً لدولة الأغالبة، التي قامت بالاتفاق مع العباسيين في عصر الخليفة الرشيد في نهاية القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي، في هذه المنطقة ظهرت حركة ناشطة للقوات العسكرية، استهدفت في المقام الأول تنفيذ حملات عسكرية بقصد فتح جزيرة صقلية وبعض المناطق المتفرقة في شرق وجنوب إيطالية، من أجل تقويض المصالح البيزنطية في هذه المناطق.

تركزت الأعمال العسكرية العربية في هذا الميدان بتوجيه حملات باتجاه صقلية، كانت تشكل واحدة من أهم القواعد البيزنطية في حوض البحر المتوسط الغربي، في الوقت الذي كانت فيه بيزنطة تحاول إعادة سيطرتها على المغرب الكبير، انطلاقاً من المغرب الأدنى، حيث كانت بعض قواتها ما زالت هناك(٢٧). اعتمدت الدولة الأغلبية على تراث نضالي كان قد نفذه ولاة في المغرب الأدنى من موسى بن نصير وعبيد الله بن الحبحاب قبل اندلاع ثورة الخوارج بالمغرب الكبير بقليل(٢٨).

وتمثل هذا التراث النضالي بعدد من الحملات إلى صقلية نفذها بشكل خاص عبيد الله بن الحبحاب. لكن على الرغم من أهميتها الكبيرة، فإنها بقيت في قائمة الغزوات والغارات، لأن أمر الاستقرار في صقلية وغيرها لم يكن في حسبان منفذي هذه الغزوات. وبالمقابل فإن البيزنطيين لم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام الهجمات العربية، بل قاموا بإنشاء التحصينات في صقلية، وبادر أسطولهم البحري بمهاجمة الأسطول العربي على الشواطئ البيزنطية في صقلية، وكذلك الأمر على الشواطئ العربية، الأمر الذي أثار انتباه العرب إلى الشروع ببناء الأربطة على السواحل، و التي كانت تسمى أيضاً القصور. وقد اشتهر منها في عصر الولاة بالمغرب(قصر المنستير). وهذا الاسم مشتق من الكلمة الإسبانية(Almoncid). وقصر المنستير هذا من بناء هرثمة بن أعين القائد العباسي العسكري المشهور، بناه حينما كلفه الخليفة العباسي هارون الرشيد بضبط الأمور المضطربة في المغرب الأدنى آنذاك، لكنه فشل في ضبطها والسيطرة على مجرياتها، ونجح في تخليد ذكراه من خلال بنائه لهذا القصر في سنة ١٧٩ هـ/٧٩٥ م، الذي أصبح من أهم أماكن الرباط والمثاغرة على السواحل المغربية، ذلك لأنه استقطب أعداداً كبيرة من المتطوعة للدفاع عن السواحل العربية في تونس ضد النشاطات الحربية البيزنطية، وبعدها النورمانية، طوال العصور الوسطى. ثم ازداد بعد ذلك بناء هذه القصور الرباطية باضطراد، لأن الجميع من حكام وغير حكام ساهموا في عمليات البناء هذه، نذكر على سبيل المثال عبد الرحيم

ابن عبد ربه، الذي شيد قصراً عرف باسم قصر عبد الرحيم، أنفق عليه ثمانية عشر ألف دينار، جمع ستة منها من معارفه ودفع هو الباقي[٢٩].

كانت الغاية من هذه القصور بصورة خاصة، إنها عدت أمكنة يرابط فيها من عنده رغبة الدفاع عن البلاد ضد الاعتداءات الخارجية. فكان قسم من المرابطين المثاغرين يبقى في هذه القصور مرابطاً بصورة مستمرة، وكان قسم آخر يبقى لفترة معينة ثم يغادر. لكن الشيء الثابت عن حياة المرابطين، أنهم كانوا يعيشون حياة زهد وتقشف لا نظير لها، فكانوا يكتفون بأبسط الأنواع من الطعام والمؤن، مثال ذلك أن أحد المرابطين قدم إلى قصر المنستير سابق الذكر في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي للمرابطة لأمد بعيد، فسمع أصواتاً ولما سأل عن هذه الأصوات أجيب، بأن المرابطين يدقون التوابل لقدورهم، فامتعض من ذلك وعزم على مغادرة المنستير لأنه وجد في هذا العمل خروجاً تاماً على النظم والعادات القديمة في التقشف، التي عرفها وخبرها على أرض الواقع. فقد كان المرابطون في هذا المكان يقتصرون في طعامهم على شيء من دقيق الشعير وشيء من الزيت، فإذا حان وقت إفطارهم خلطوا ذلك الدقيق بقليل من الزيت وأكلوه[٣٠].

يمكن القول أن هذه الأربطة على السواحل التونسية والإقدام على أعمال المرابطة فيها، شجع الأغالبة في عصر زيادة الله الأول الأغلبي سنة ٢١٢ هـ/٨٢٨م إلى إرسال حملة عسكرية لفتح جزيرة صقلية، هذه الحملة ستستمر في العمل من أجل فتح هذه الجزيرة وإزالة الوجود البيزنطي منها ومن الجزر المتوسطية المجاورة، كمالطة، التي كانت أهم محطة بيزنطية في غرب المتوسط، ذلك لأنها كانت صلة وصل هامة جداً بين أملاكها في الشرق وتلك التي في الغرب، ستستمر نحواً من خمسين عاماً مستمرة تراوحت بين هبوط وصعود، حتى أنجزت عملية إزالة الوجود البيزنطي في غرب البحر المتوسط في الثلث الأخير من القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي[٣١].

وفي منطقة مغربية بعيدة على المحيط الأطلسي، نشأ نوعٌ من الأربطة كان في بدايـة أمره من أجل ممارسة العبادة والزهد والتبتل، ثم تطور مع الأيام وبسرعة قياسية إلـى قيام حركة سياسية، أسفرت عن قيام دولة عرفت في تاريخ المغرب بدولة المرابطين، التي سادت في كل المغرب العربي الكبير وكذلـك فـي الأندلـس منـذ سـنة٤٨٥ هـ/١٠٩٢ م.

وهذه المنطقة الرباطية هي جزيرة (تيدرا) الواقعة على مسافة خمسمائة كم من مصب نهر السنغال، ويقال في(أرغوين) الواقعة إلى الشمال منها بين خليج لوفرييـه ورأس تيميريس. وصاحب أول رباط في هذه المنطقة هو عبد الله بن ياسين صاحب الدعـوة المرابطية[٣٢]، الذي انتقل إلى هذا الموقع ومعه زعيم آخر من زعماء صنهاجـة[٣٣]، هو يحيى بن إبراهيم. وقد حصل ذلك بعد اختلافه مع زعامة صنهاجة التي كانت قـد استدعته لنشر النظم والتعاليم الإسلامية في صفوفها، لكنه تشدّد في مسألة تطبيق حدود الشريعة الإسلامية على عادة الفقهاء، إذا منحوا حيزاً من الحرية أو شيئاً من السـلطة، فطردوه من صفوف صنهاجة واستغنوا عن خدماته، فلجأ إلى أعمال الرباط واختـار لذلك الموقع سابق الذكر. في فترة قصيرة جداً تجمعت حوله في هذا الرباط قوة بشرية كبيرة، جعلته ينتقل من حياة الزهد والعبادة في رباطه إلى حياة السياسة والمغـامرة، ونجح في ذلك إلى حد كبير حينما وضع أسس الدولة المرابطية في المغـرب الكبـير والأندلس [٣٤].

وفي المغرب الأقصى(المملكة المغربية اليوم) بني رباط من أجـل أعمـال الجـهاد والمناضلة الرباطية في المنطقة التي بنيت فيها مدينة الرباط المغربية الحالية، وهو من بناء عبد الله بن ياسين صاحب الرباط السابق، وقد بناه بعد أن ترك حياة الزهد وانتقل إلى حياة السياسة، التي بدأها في الحرب ضد قبيلة صنهاجة التي طردته من ربوعـها بالأمس القريب. وكان سبب بناء هذا الرباط الجديد أن عبد الله بـن ياسـين، أحـب إخضاع دويلة برغواطة، التي كانت متهمة بالخروج على الديانات التوحيديـة. وقـد

توضعت بشكل خاص في منطقة (تامسنا) بين نــهري بورقــراق وأم الربيــع علــى شاطيء المحيط الأطلسي، وهي نفسها المنطقة التي أقام فيها عبد الله بن ياسين رباطه، وبالتالي هو مكان مدينة الرباط الحالية، وكان اسم هذا الرباط رباط الفتح. وفي هــذه المنطقة قتل عبد الله بن ياسين في إحدى معاركه مع أتباع برغواطة في وادي كريفلة على مسافة ٣٠ كم إلى الجنوب الشرقي -من مدينة الرباط الحالية سـنة ٤٥١ هـ/ ١٠٥٩ م[٣٥].

أما في الأندلس ومنذ وقت مبكر من فترة حكم العرب فيها، فقد حددت مناطق معينــة للمثاغرة، كانت قريبة من مواقع المعارضة الإسبانية التــي سـميت حديثـاً (حركــة الاسترداد) والتي توضعت قواتها الرئيسة في شمال أسبانية وشمالها الغربي، وتجسّدت هذه القوات في عدد من الدويلات مثل دويلة قشتالة أعظم هذه الدويلات فــي وسـط الشمال الإسباني ودويلة ليون إلى الشمال الغربي منها ودويلة البرانس في البيرينيه في جنوب فرنسة اليوم، ودويلة برشلونة في شمال شرق إسبانية. وكان أهم الثغور العربية القريبة من هذه المواقع المعارضة، الثغر الأدنى في الغرب وكان من أقرب الثغــور إلى العاصمة قرطبة، لذلك سمي بالأدنى أي الأقرب إلى العاصمة، وكانت قــاعدة أو مركز أو عاصمة هذا الثغر مدينة (ماردة) في البداية ثم انتقلت إلى مدينة (بطليــوس) المجاورة، والثغر الأوسط وكانت قاعدته مدينة طليطلة العاصمة الإســبانية القديمــة، وسمي هذا الثغر بالأوسط لأنه في منطقة متوسطة من الأندلس، والثغــر الأعلــى أي الأبعد وهو عكس الأدنى أي أبعد الثغور عن العاصمة قرطبة، وكانت قاعدته مدينــة سرقسطة في شمال شرق إسبانية. وكانت مهمة هذه الثغور في المقام الأول إضافة إلى مهمتها كتجمع بشري واقتصادي وحيوي في الأندلس، أنها كانت مراكز توضع وحشد القوة العربية للرد على الاعتداءات الإسبانية والفرنجية، التي بقيت تتكرر بلا انقطــاع حتى نجحت في نهاية الأمر من تحقيق هدفها الرئيس، وهو إجلاء العرب عن الأندلس نهائياً[٣٦].

لم يكتف العرب في الأندلس بهذه الثغور كأماكن لتوضع قواتها الحربية، بل راحوا يبنون مناطق ومدن ثغرية أخرى لدعم وتعزيز هذه الثغور، وخصصوا للمدن والثغور الجديدة حكاماً و قادة، عرفوا في تاريخ العرب بالأندلس قادة أكفاء تمكنوا من تنفيذ مهامهم بنجاح وإخلاص لا نظير لهما. نذكر من هذه المواقع الثغرية الجديدة بالأندلس مدينة (مجريط) (مدريد حالياً)، التي بنيت في عصر الإمارة الأموية لتكون موقعاً ثغرياً متقدماً من مواقع المعارضة الإسبانية من أجل تدعيم ومساندة الثغور السابقة في أعمالها الدفاعية. كانت مدريد في بداية عهدها حصناً مثل بقية الحصون المجاورة لها، وسرعان ما اتسعت حتى أصبحت مدينة هامة كما يصفها معظم الجغرافيين العرب واسمها القديم كما ذكرنا (مجريط). وتتألف هذه الكلمة من مقطعين (مجرى) وهو لفظ عربي خالص أضيف إليه مقطع آخر من اللاتينية الدارجة هو (يط) الذي يدل على التكثير. وبذلك يكون معنى الكلمة (المدينة التي تكثر فيها المجاري، أي القنوات الجوفية التي كانت تحمل الماء إلى سكان المدينة وبيوتها وحدائقها وزروعها وحماماتها)[٣٧].

بنيت هذه المدينة في عصر الأمير محمد الأموي في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي. وكان من أمنع أجزائها القصبة التي تتوضع على ربوة مرتفعة تطل على السهل المنبسط، الذي يدعى الفحص الممتد بين أسوارها القريبة ونهر المانشانارس. وفي هذا الموقع كان يتوضع القسم الأكبر من المثاغرين المرابطين. ويقدر ما تشغله القصبة بنحو تسعة هكتارات [٣٨].

وكانت مدينة مدريد من أكثر الثغور في اسبانية نشاطاً وحيوية على الصعيد العسكري والرباط والمثاغرة، حتى تطورت باتجاهين آخرين الصناعة والتجارة، ودليل ذلك أن شوارعها كانت وما تزال تحمل أسماء الحرف المتعددة مثل الدباغين والطرازين والصباغين وغير ذلك. وكان من أهم ما تردد على مدريد سيد مجاهدي ثغور إسبانية

العربية فيْ العصور الوسطى محمد بن أبي عامر، الذي نفذ أكثر من خمسين صائفة ثغرية في حياته [٣٩].

كما كانت من ناحية أخرى مركزاً هاماً، استقطبت العديد من المثاغرين الذين اهتموا في المقام الأول بأمر المثاغرة، ونذروا أنفسهم لها من أجل النضال ضد الأسبان المتربصين بالوجود العربي في شبه الجزيرة الايبرية، نذكر من هؤلاء المثاغرين إبراهيم بن محمد المعروف بابن القزازة، الذي كان من كبار الفقهاء، فقد آثر حياة الجهاد فخرج إلى مدريد ومعه خمسة من تلامذته القرطبيين، وظلوا يقاتلون العدو حتى نهاية حياتهم [٤٠].

ومحمد بن حنين الأشجي الذي رابط بمدريد حتى توفي، ومنهم موسى بن قاسم الطليطلي الذي كان من كبار العلماء، وانتقل إلى مدريد وظل يجاهد ويرابط حتى استشهد في المنطقة السهلية التي تقع إلى الجنوب من مدريد [٤١].

وقد ذاعت شهرة مدريد كمكان للرباط والمثاغرة، فجاء إليها بعض المغاربة للقيام بأعمال الرباط والجهاد في سبيل الله، نذكر منهم على سبيل المثال جساس السجلماسي المعروف بالزاهد، الذي امتدت إقامته بمدريد طويلاً حتى توفي [٤٢]. وحينما سقطت مدريد بيد المعارضة الإسبانية في أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، ظهرت عاصمة ثغرية أخرى إلى الشمال منها بمئة وخمسين كيلومتراً، هي مدينة سالم التي عرفت في القرون الوسطى بثغر سالم، وكان يعين لحكمها أكبر قادة الجيش العربي وأعرفهم بشؤون الحرب والقتال [٤٣].

كذلك ظهرت أربطة جديدة على الساحل الجنوبي الغربي للأندلس منذ النصف الأول من القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، بعد أن فُوجِئ العرب الأندلسيون بهجوم النورمانديين [٤٤] المباغت عليهم في هذا الوقت بالذات، وبخاصة على مدينة اشبيلية وما حولها، وكانت الخسائر جسيمة لأن الهجوم النورماندي وقع على هذه المناطق

على حين غرة، فتحقق للنورمان عنصر المفاجأة المهم في أيـة حـرب أو هجـوم، واحتلوا مدينة قادس واخترقوا الوادي الكبير (النهر الكبير) من مصبه حتى وصلوا إلى اشبيلية فاحتلوها سنة ٢٣٠ هـ/٨٤٤ م في عصر الأمـير الأمـوي عبـد الرحمـن الأوسط[٤٥].

على الرغم من أن العرب الأندلسيين تمكنوا من الأخذ بزمام المبادرة، بعد أن فوجئـوا بوجود هذه القوى في أرضهم وبين ظهرانيهم، وقبضوا على عدد كبير من الأسـرى وخيروهم بين الإسلام أو القتل، فقبلوا باعتناق الإسلام واهتموا منذ ذلك الحين بتربيـة المواشي وصناعة الأجبان ومنتجات الحليب الأخرى، وهي الصناعة التي يشتهر بـها في بلادهم الدانمارك حتى اليوم [٤٦].على الرغم من ذلك فقد التفت العرب الأندلسـيون إلى مسألة تقوية الأسطول الحربي البحري بزيادة عدد سفنه الحربية علـى مختلـف أشكالها، وكذلك إلى إقامة المحارس والأربطة على الساحل الغربـي المطـل علـى المحيط الأطلسي، على غرار ما حدث إلى الشرق على الساحل التونسي وغيره مـن سواحل المغرب الكبير.

وقد تعوّد المرابطون في أربطتهم منذ ذلك الحين، أن يحرسوا في مراقب عالية ملحقة بالرباط تكشف سفن الأعداء من مسافة بعيدة، ويقيم فيها المتطوعون لأعمال الربـاط والحراسة العامة، الذين عرفوا في هذه المنطقة بـ (السمار).

وقد زودت هذه الأربطة بالمنائر التي عرفت باسم (الطوالع). فكان على المرابطين إذا شاهدوا عدواً مقبلاً في عرض البحر، أشعلوا النار في أعلى المنائر والطوالع إن حدث ذلك في الليل، أما إذا حدث في النهار فكانوا يعملون على إطلاق دخان كثيف. إضافـة إلى ذلك فإنهم كانوا يبادرون إلى ضرب الطبول لتحذير وتنبيه أهـل المـدن التـي تجاورهم، ان غارة معادية ما ستقع قريباً، بما يشبه صافرات الإنذار في أيامنا هـذه. وكثيراً ما استخدم المرابطون إشارات بواسطة النار أو الدخان، هدفوا مـن خلالـها الإعلام عن حالة العدو المهاجم وعدده وجنسيته وما إلى ذلك من أمور [٤٧].

أدت هذه الأعمال السريعة التي ترجمها عبد الرحمن الأوسط حقيقة إيجابية على الأرض، إلى تحصين السواحل الأندلسية وحمايتها، وقد ظهر ذلك واضحاً في عصر الأمراء الذين جاءوا بعده حتى نهاية القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، حينما تمكن هؤلاء الأمراء من رد النورمانديين على أعقابهم يجرون خلفهم أذيال الهزيمة، بعد أن حاولوا الهجوم على السواحل الأندلسية مستغلين بعض حالات الضعف في الجبهة الأندلسية، وكان من نتيجة ذلك أن النورمانديين لم يستطيعوا من تمكين وجودهم في إسبانية، كما فعلوا في فرنسة وبريطانية على سبيل المثال.

وفي عصر الخلافة بالأندلس أيضاً، أعاد بعض الخلفاء إلى أذهان الناس سيرة ما كان يجري في العصر الأموي والعباسي بالمشرق العربي، من خلال ما نفذوه من صوائف ناجحة في مناطق تواجد المعارضة الإسبانية. اشتهر في هذا المجال النضالي الإيجابي الحاجب المثاغر محمد بن أبي عامر، الذي سيطر على أمور الخلافة خشية إثارة حفيظة الأمويين ومؤيديهم عليه. وكان يشعر دوماً أنه حاكم غير شرعي، مما جعله يلجأ إلى عدد من الأساليب المتفرقة، التي تقربه من قلوب الناس وتجعله حاكماً مرغوباً فيه ولو على المستوى الظاهري، من هذه الأساليب الناجحة تصميمه على تنفيذ الكثير من الصوائف الجهادية في الثغور البعيدة عن العاصمة، وتطور الأمر في هذا الميدان إلى أنه توغل في أرض المعارضة الإسبانية كثيراً. فقد بلغت صوائفه قرابة خمسين صائفة ، وصل في أحدها إلى (شنت ياقب) أي قلعة القديس يعقوب في شمال غرب الأندلس وهي أبعد منطقة وصلها العرب في كل تاريخ وجودهم بالأندلس.

وكان في كل صائفة يأتي إلى قرطبة أو إلى مستقرة بمدينة الزاهرة التي بناها إلى الشرق من قرطبة محملاً بالأسرى والأسيرات والغنائم، ومن كثرة ما كان يجلبه من أسيرات قل الطلب على النساء العربيات من الحرائر ، وقد أدى عمله في هذا المجال أيضاً إلى تحويل كلمة(الجلاب) عند أهل الأندلس من معنى (القبيح) الذي كان يطلق

على الرجل، الذي يبيع الدواب والحيوانات أو على بائع الرقيق، إلى معنى لطيف جداً ظهر من خلال إطلاق الأندلسيين على محمد بن أبي عامر اسم (الجلاب)، أي كأنهم يقولون له القائد العظيم الذي غمرهم بالهدايا والسبايا نتيجة صوائفه الكثيرة. وحينما توفي قال الأندلسيون: لقد مات الجلاب الذي ساعد على عدم تمسك أهل الأندلس بمسألة طلب المهور الغالية، وذلك من كثرة ما كان يصطحب معه من بنات جميلات من مناطق المعارضة الإسبانية التي نفذ فيها صوائفه المذكورة، فقل الطلب في عصره على النساء العربيات [٤٩].

كان لحملات المنصور محمد بن أبي عامر الثغرية المتواصلة وصوائفه في المناطق الإسبانية، نتائج في غاية الأهمية وبخاصة في المجال العسكري. فقد أدت هذه الصوائف الثغرية المظفرة إلى تهديم العديد من المناطق الإسبانية، التي تميّزت بقوتها وخطورتها، ولاسيما على ضفة نهر دويرة اليمنى. كما أدّت من جهة أخرى في الميدان السياسي إلى سيادة سيطرة الخلافة الأموية على دويلات شمال إسبانية. وقد تمثل ذلك بتقديم حكام هذه الدويلات كل ألوان وأشكال الولاء والطاعة لخلافة قرطبة، وبخاصة أنهم التزموا بدفع جزية مجزية، وتنازلوا عن بعض الحصون ذات الموقع الهام في المناطق الثغرية الشمالية، وقبلوا في بعض الأحيان بوجود قوة عسكرية عربية في أراضيهم مثلت الخلافة الأموية بقرطبة [٥٠]، نذكر من ذلك على سبيل المثال القوة التي كان يقودها ابن أبي عمروس المشهور بالعريف، وكانت مهمة هذه القوة التعرّف على التطورات العامة في مناطق الأسبان المعارضين، ونقل كل ما يمس المصلحة العربية العامة بأقصى ما يمكن من السرعة [٥١] .

يبقى أن نشير بفخر واعتزاز إلى نوع من المثاغرة في غرناطة بجنوب شرق الأندلس، وهي تختلف عن كل أنواع الرباط والمثاغرة التي أتينا على ذكرها حتى الآن، في أن المثاغرين لم يكونوا من الغرناطيين، إنما كانوا من أهل المغرب الأقصى

من رعايا دولة بني مرين، التي ظهرت في المغرب الأقصى على أثـر زوال دولـة الموحدين في سنة ٦٦٨ هـ/١٢٧٠ م، وكانت من أقوى الدول التي ظهرت معها فـي وقت واحد، وهي الدولة الزيانية أو كما تسمى أحياناً دولة بني عبد الـواد بـالمغرب الأوسط (الجزائر اليوم)، والدولة الحفصية في المغرب الأدنى (تونس اليـوم). وقـد ساعدت القوة التي امتلكها المرينيون وهي قوة عسكرية في المقام الأول، إلـى دعـم الموقف الذي كان محفوفاً بالمخاطر في دولة غرناطة بالأندلس، فقد هب المرينيـون بصدق واندفاع وقوة لإنقاذ وتدعيم الموقف الغرناطي أمام أطماع وتكالب الأسبان. وقد تجسد ذلك على أرض الواقع بمجموعة كبيرة من المرابطين والمثاغرين المغاربـة، سميت في بداية الأمر (الغزاة) وقد دخلت غرناطة في القرن الثامن الهجري/الرابـع عشر الميلادي . وبعد مضي فترة وجيزة على وصول هذه المجموعة المثاغرة، أطلق عليها تسمية جديدة بعد أن وضعت تحت قيادة واحدة هي (مشيخة الغزاة). وكان شـيخ الغزاة يقوم بنفسه أو يشرف على توزيع هذه المجموعة من المثاغرين في المنـاطق، التي كان من المتوقع أن ينطلق منها العدوان على غرناطة وما حولها. وكانت مرتبات هذه المجموعة تؤمن من الضرائب والمكوس، التي تجبى من المنطقة الموجودة فيـها، هذا بالإضافة إلى حصتها من الغنائم الحربية. وقد تميز رجال هذه المجموعة بأنـهم كانوا من الخيالة، الذين يجيدون بسرعة الحركة والتنقل في الوقت المناسب. وقد قدموا للحكومة الغرناطية خدمات جليلة في الميدان الدفاعي عن بلادها، تجلت في أنهم أبلـوا بلاء حسناً في مقاومة الأسبان، وأدوا إلى إطالة صمود وبقاء غرناطة زمناً طويلاً. فقد ألقوا الرعب والخوف في نفوس الأسبان، وكانوا يحسبون لهم حساباً كبيراً، ودليل ذلك أن أحد حكام مملكة أراغون الأسبانية طلب من ملك غرناطة في اتفاقية وقعها معـه، أن يزود بمجموعة كبيرة من جند مشيخة الغزاة المغاربة مقابل السفن التي سـيقدمها له. ويقال أيضاً، اسم الفارس باللغة الإسبانية هو (خينيني) مشتق من كلمـة زناتـه، وزناتة كما هو معروف إحدى القبائل المغربية الكبيرة، التي اشـتهرت فـي تـاريخ

المغرب الكبير في العصور الوسطى بالتنقل وعدم الاستقرار، وعناصر مشيخة الغزاة بالأندلس موضوع حديثنا كانوا برمتهم من هذه القبيلة. وفي نهاية وجودهم بالأندلس، خاف منهم حاكم غرناطة، فألغي منصب شيخ الغزاة وتولاه بنفسه (٥٢).

كانت مشيخة الغزاة في غرناطة وما حولها آخر قوة عربية، اهتمت بأعمال الرباط والمثاغرة في مشرق وطننا العربي الكبير ومغربه، أي القيام بأعمال حربية دفاعية معينة ضد عدو محدد. لكن المرابطين من نوع مغاير ظهروا في المشرق العربي بشكل خاص، وتحديداً في فترة حكم المماليك بمصر والشام. وظهر نوع جديد من الأربطة، اختلفت في وظيفتها وهدفها عن الأربطة التي تحدثنا عنها. ففي حين كانت وظيفة المرابطين تتمحور حول عمليات الدفاع عن الأرض وحماية الحدود في الدرجة الأولى، كانت وظيفة المرابطين في أربطتهم بمصر والشام وظيفة تعبدية بحتة. ففي الرباطات يمارسون حياة خاصة من العبادة والزهد في الليل والنهار، ويمتنعون عن المشاركة نهائياً في عملية بناء مجتمعهم على كافة الأصعدة. ومن سوء الطالع في مصر والشام، نرى أن الدولة المملوكية بادرت بقوة إلى تشجيع هذا النوع من المرابطة المعطلة، من أجل إظهار حرصها المزيف على المظاهر الدينية، كي تحافظ على استمراريتها في الحكم والسلطة قدر الإمكان. وبلغ ما بناه سلاطين دولة المماليك من أربطة وزوايا كما كانت تسمى أحياناً في مصر والشام، بلغ أكثر من مائة رباط في المدن الكبرى كالقاهرة والإسكندرية ودمشق وحلب وبيت المقدس. وعينت الدولة لهذه الأربطة أوقافاً كثيرة للصرف على المرابطين فيها، من طعام وكساء وتدفئة ومرافق عامة متفرقة.

أقدمت الدولة المملوكية على هذه الأعمال، على الرغم من أنها كانت تعرف أن بناء الأربطة والصرف عليها وعلى المقيمين بها، ما هو إلا عبئ إضافي ثقيل أضيف إلى الأعباء الكثيرة، التي فرضت على المجتمع في مصر والشام في هذه الفترة الصعبة

من تاريخها. فقد كانت المجموعات المرابطة تحتاج إلى مصاريف كبيرة جداً، هذه المصاريف تكفل فيها الفلاحون وأصحاب الأراضي من الملاك الصغار ، وكذلك أصحاب المتاجر الصغيرة وأصحاب الحرف المتفرقة بصورة غير مباشرة، من خلال الضرائب والأتاوات والمصادرات التي فرضت على الشعب بمصر والشام في عصر المماليك بكثرة وبدون رحمة (٥٣).

وبالجملة فإن أعمال الرباط والمثاغرة، كانت من أجل الأعمال وأنبلها، ذلك لأنها هدفت في الدرجة الأولى الدفاع عن الحقوق والحدود والأرض، من أجل أن يبقى الاستقلال كاملاً والحرية موفورة في كل ربوع الوطن. وكان من أرقى الأعمال على الإطلاق، تلك الأعمال التي مارسها متطوعون فضلوا حياة الرباط والثغور، التي كانت على تماس مباشر مع العدو، كتلك الأربطة التي أقيمت على ساحل تونس عند ظهور النورمان في هذه المنطقة، في القرن الثالث الهجري /التاسع الميلادي.

كما أدت الأعمال الأخرى من صوائف و شواتي، إلى حماية البلاد من كثير من الهجمات المعادية، كانت ستحصل لولا أن قام العرب في تنفيذ هذه الصوائف، بمعنى أنها حققت مقولة أن أفضل وسيلة للدفاع هي الهجوم. وإن القوى التي نفذت هذه الأعمال، تشبه إلى حد كبير القوات العسكرية التي تتوضع في أية جهة من الجهات المتقدمة، أو التي تتوضع في مناطق استراتيجية من أجل الوقوف على تحركات العدو العامة، وهي ما نسميها بقوى الاستخبارات والاستطلاع، التي أصبح لها أهمية بالغة لما تجمعه من معلومات هامة وضرورية عن العدو، الأمر الذي يساعد على تحقيق عنصر المفاجأة الذي يؤدي عادة إلى النجاح.

وقد تشابهت أمكنة هذه الأعمال في شرق الوطن العربي و غربه، باستثناء بعض الأمكنة في المغربين الأدنى والأقصى، حيث أطلق عليها كما مر معنا اسم (القصور). وربما أخذت هذا الاسم من قصور بنيت أثناء عملية فتح المغرب في القرن الأول

الهجري /السابع الميلادي، وهي القصور التي بناها حسان بن النعمان الغساني أحد الشخصيات الهامة، التي شغلت دوراً كبيراً في نجاح عملية فتح المغرب، على السواحل الشرقية الليبية حينما لجأ إلى هذه المنطقة على أثر فشله العسكري أمام قبيلة (جراوة) اليهودية بزعامة الكاهنة دهيا أودميا، التي كانت تسيطر بقوة على كل منطقة الأوراس بجنوب شرق الجزائر، والتي سيطرت على كل تونس بعد هزيمة حسان بن النعمان الذي أجبر على إقامة قصوره في المنطقة سابقة الذكر، وبقي فيها مع قوات قليلة حتى أمده عبد الملك بن مروان بقوة جديدة، مكنته من الإنتقال من حياة الرباط في قصوره المذكورة إلى حياة الهجوم، الذي كان من نتيجته الأخذ بزمام المبادرة بعد أن تمكن من هزيمة اليهود، في الأوراس [٥٤].

كما نستثني من ذلك أيضاً بعض الرباطات التي اعتاد الأمويون أن يقيموها بجانب المساجد، التي شيدت في البلاد حديثة الفتح [٥٥]، ولكن لا نعرف على وجه الدقة واليقين الأسباب الحقيقية، التي كانت وراء إقامة هذه الرباطات. وما يمكن قوله في الصدد، أن الأمويين أقدموا على بناء هذه الرباطات، من أجل أن تكون مكاناً ثابتاً لإقامة واستقرار المكلفين على توفير الخدمة وإقامة الصلاة في المساجد، وفي الوقت نفسه من أجل حماية هذه المساجد من هجمات كانت متوقعة في كل حين، وبخاصة أنها أقيمت في مناطق حديثة بالإسلام والمعارضون كثيرون فيها.

من هذه الاستثناءات أيضاً، ما حدث في الفترة المتأخرة من العصر الأموي، حينما ظهرت بعض الرباطات على سواحل مدينة بيروت، من أجل أن تكون مكاناً ومستقراً لكثير من المرابطين والمثاغرين فضلوا واختاروا حياة النضال والجهاد ضد العدو البيزنطي في ذلك الوقت، وكان في طليعة هؤلاء المرابطين المثاغرين عبد الرحمن بن عمرو المشهور (بالأوزاعي)، الذي اشتهر مذهبه الفقهي بشكل خاص أو بالأحرى تميز بالتشريعات أو الأحكام الحربية وأعمال الجهاد والرباط وما يتصل بهذه المسائل. مما ساعد على انتشاره في بداية حكم العرب بالأندلس [٥٦]، ذلك لأن العرب المسلمين

الأندلسيين كانوا بحاجة ماسة لمثل هذه الأحكام، بحكم جهادهم ونضالهم ضد الذين كانوا يتربصون بهم الشر من أسبان وغيرهم من الفئات الأخرى المعارضة.

كما يستثنى من ذلك أيضاً تلك الفنادق، التي أنشئت في العصر العباسي واتخذت أمكنة لإقامة المرابطين في مناطق الثغور في شمال العراق وسورية .

لا بد أن نقول في نهاية الجولة في مواقع الرباط والمثاغرة العربية في العصور الوسطى، ما أشبه الأمس البعيد في الوقت الحاضر؛ الذي نحتاج فيه إلى إقامة حياة حافلة بأعمال الرباط والمثاغرة الدائمة، ليس في الميدان الحربي والدفاعي فحسب، بل في كل ميادين الحياة العامة ووجوهها، علّنا نشغل مكانة ما في عالم أصبح التقدم فيه يسير باطراد وبلا توقف، ولا يتوانى في الوقت نفسه مع المقصرين أو المغفلين، وأهم من كل ذلك أن نقف بقوة أمام هجمات الأعداء المستمرة التي تحاول على الدوام قتل كل بريق للأمل فينا، حتى لا نتعرف إلى السبل الناجعة التي تؤدي بنا إلى عالم النور والضياء والبحبوحة. ولن نصل إلى ذلك العالم إلا إذا تمثلنا في كل حركاتنا وسكناتنا المعاني النبيلة لكلمة الرباط أو المثاغرة، من أبناء أمتنا المخلصين، لنؤكد من جديد ومن خلال التطبيق والممارسة أننا أحفاد أولئك الذين آثروا حياة الرباط والمثاغرة، من أجل الذود عن الأرض والبقاء.

المصادر والمراجع والحواشي

١-البلاذري-**فتوح البلدان** ج ١ ص١٥٠- أحمد الشامي- **الخلفاء الراشدون**- طبعة أولى بيروت ١٩٨٢ص ٢٨٩ .

٢-البلاذري- **المصدر السابق** ج ١ ص١٧٥ و١٩٢ .

٣-الطبري-**تاريخ الرسل والملوك** ج١ ص٨٦ و١١٨- الماوردي- **الأحكام السلطانية** ص ١٨٧ .

٤-البلاذري-**المصدر السابق** ج٢ ص٢١٧ .

٥-**تاريخ الطبري**-ج ٥ ص١٧٢ و ١٨١ و ٢١٧ .

٦-الأصفهاني-**الأغاني** ج ١٧ تحقيق علي البجاوي- طبعة القاهرة ١٩٧٠ ص٢١٠ كانت صائفة يزيد بن معاوية في سنة ٥١ هـ.

٧-نبيه عاقل-**الإمبراطورية البيزنطية** ص١١٤ -١١٥.

٨-ابراهيم العدوي-**الأمويون والبيزنطيون**-الدار القومية للطباعة والنشر طبعة ثانية ص ١٧٥ .

٩-نبيه عاقل-**الإمبراطورية البيزنطية** ص١٢١ .

١٠-البلاذري- **المصدر السابق** ج ٣ ص٢٦٦ .

١١-شغل منصب الخلافة من سنة ٨٦-٩٦ هـ.

١٢-٥-**تاريخ الطبري**-ج ٦ص٤٣٤-ابن الأثير - **الكامل في التاريخ** ج ٤ ص٥٢١

١٣-**تاريخ الطبري**-ج ٦ص٥٢٣-العدوي- **الأمويون والبيزنطيون** ص ٢١٦ حكم سليمان بن عبد الملك من سنة٩٦-٩٩ هـ

١٤-العدوي -**الأمويون والبيزنطيون** ص ٢٢٢ .

١٥-البلاذري- **فتوح البلدان** ج ٢ ص١٨١ و ج٥ ص٦٢٠ - ابن الجوزي- **سيرة عمر بن عبد العزيز** طبعة مصر ١٣٣١هـ ص٩٩ وما بعدها . جكم عبد العزيز من سنة ٩٩-١٠١هـ.

١٦-البلاذري- **فتوح البلدان** ج٢ ص٢٢٨ -٢٢٩- تاريخ الطبري ج٧ ص٩٠ .

١٧-بدأ العصر العباسي الأول سنة ١٣٢هـ وانتهى سنة ٢٤٧هـ.

١٨-**تاريخ اليعقوبي** ج٢ ص٣٦٢ البلاذري- **فتوح البلدان** ج١ ص٢٢٢ .

١٩-البلاذري- **فتوح البلدان** ج١ ص٢٢- ابن الأثير-**الكامل في التاريخ** ج٥ ص٥٧٦ حكم المنصور من سنة١٣٦ حتى سنة١٥٨هـ. -البلاذري- فتوح البلدان ج٢ ص٢٢٨ -٢٢٩-

٢٠-**تاريخ الطبري** ج٩ ص٣٤٧-ابن الأثير- الكامل في التاريخ ج٦ ص٦٦ و١٠٨.

٢١-قنسرين أحد الأجناد الشامية في العصر الأموي، وقد أُستُحدِثَ هذا الجند في عصر يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وضم أراضي حلب وانطاكية وفيه أصبحت الأجناد الشامية خمسة بعد أن كانت أربعة. أما الجزيرة فيقصد فيها الأراضي المحصورة بين نهري دجلة والفرات ومنها الجزيرة في شمال شرق سورية.

-ابن الأثير- **الكامل في التاريخ** ج٦ ص١٠٨ .

٣ -ابن الأثير- **الكامل في التاريخ** ج٦ ص١٥٣ .

٢٤-٢٠-**تاريخ الطبري** ج١٠ ص٩٥ -ابن الأثير- **الكامل في التاريخ** ج٦ ص١٩٠.

٢٥-**تاريخ اليعقوبي** ج٢ ص٤٦٧ **تاريخ الطبري** ج١٠ ص٢٨٣- ابن الأثير- **الكامل في التاريخ** ج٦ ص٤٢١ .

٢٦-فتحي عثمان-**الحدود الإسلامية البيزنطية** ج٢ ص١٠٣ -١٤٠.

٢٧-ابن الأثير- **الكامل في التاريخ** ج٥ ص١٩٠ وما بعدها .

٢٨-كانت ثورة الخوارج بالمغرب الكبير من سنة ١٢٢-١٢٤هـ.

٢٩-المالكي-**رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وأفريقية** ج١ تحقيق حسين مؤنس طبعة القاهرة ١٩٥١ ص٣٢٨.

٣٠- المالكي - **رياض النفوس** ج١ ص٣٣٣.

٣١-أنظر تفاصيل وافية عن هذه الجملة: أحمد المدني-**المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطالية** ص ٧٢ وما بعدها.

٣٢-ابن الخطيب-**تاريخ المغرب في العصر الوسيط** ص٢٢٧-٢٢٨.

٣٣-صنهاجة بكسر الصاد من أكبر القبائل المغربية القديمة بعد قبيلة مصمودة، ومنها سلاطين الدولة المرابطية.

٣٤-السيد عبد العزيز سالم-**تاريخ الطبري الكبير** ج٢ ص٦٩٤.

٣٥-ابن الخطيب-**أعمال الأعلام** ص٢٣٠-ابن خلدون-**العبر** ج٦ ص٣٣٧-الحميري- **الروض المعطار في خير الأقطار** ص٣١٨.

٣٦-المقري التلمساني-**نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب** ج٦ ص٢٧٠ .

٣٧-خايمة أوليفر آسين-**تاريخ مدريد** ص٨٩-محمود علي مكي- **مدريد العربية** طبعة وزارة الثقافة المصرية ص٦٤ وما بعدها.

٣٨-محمود علي مكي-**المرجع السابق** ص٨٣-٨٤.

٣٩-ابن عذاري-**البيان المغرب** ج٣ ص٢٠٠ وما بعدها.

٤٠-ابن الآبار-**التكملة لكتاب الصلة**-الترجمة رقم ٢.

٤١-ابن بشكوال-**كتاب الصلة** الترجمة رقم١٢١٩ .

٤٢-محمود علي مكي-**المرجع السابق** ص٦٢.

٤٣-انظر عن هذه المدينة -الحميري-**الروض المعطار في خبر الأقطار** مادة سالم.

٤٤-يعرف النورمانديون إضافة إلى هذه التسمية باسم الفايكنج Vikingos و هي تسمية مشتقة من الكلمة النرويجية فيك Vik التي تعني الخليج. ومع ذلك وردت في المعاجم الإسبانية بمعنى المحاربين، وباسم المجوس لأنهم كانوا يشعلون النار في كل مكان يحلون فيه، فظن العرب المسلمون أنهم من عبدة النار أو المجوس.

٤٥-العذري-**ترصيع الأخبار** ص١٠٠.

٤٦-أحمد مختار العبادي-**في تاريخ المغرب والأندلس** طبعة دار المعارف ص١٤٠.

٤٧-أحمد مختار العبادي-**المرجع السابق** ص١٤٠-١٤١.

٤٨-بدأ هذا العصر سنة ٣١٦هـ. وانتهى في سنة ٤٢٢هـ.

٤٩-ابن عذاري-**البيان المغرب** ج٣ ص١٣.

٥٠-عبد الواحد المراكشي-**المعجب في تلخيص أخبار المغرب** ص٢٣٨-المقدسي أحسن التقاسيم ص٢٤٢.

٥١-ابن حيان-**المقتبس تحقيق عبد الرحمن الحجي** ص٧٦.

٥٢-ابن خلدون-**العبر**-ج٧ ص٣٦٦ وما بعدها.

٥٣-المقري التلمساني-**نفح الطيب** ج٢ ص٢٢٢-**الذهبي-العبر في خبر من غبر** ج٤ ص٣٠٩-آسين بالاثيوس-**ابن عربي**-ترجمة عن الإسبانية عبد الرحمن بدوي-طبعة القاهرة ١٩٦٥، ص٧٠ وما بعدها. علي **أحمد-الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام** طبعة دمشق-طبعة دار طلاس ١٩٨٩ ص١٦٦ وما بعدها.

٥٤-المالكي-**رياض النفوس** ج١ ص٣٥-ابن الأثير-**الكامل في التاريخ** ج٤ ص١٨١-**ابن عذاري-البيان** المغرب ج١ ص٣٥.

55- Iram Lapidus-Middle Eastern cities, university of California- Press 1969 pp.21-70

٥٦-أحمد مختار العبادي-**المرجع السابق** ص١٠٩.

نظم القياس الطولي والمساحية الإسلامية

(دراسة مقارنة)

الدكتور محمد شعلان الطيار

قسم الآثار والمتاحف- كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة دمشق

نظم القياس الطولي والمساحية الإسلامية
(دراسة مقارنة)

المقدمة:

احتلت مجموعة النظم القياسية المساحية السطحية، الوزنية والحجمية، المكانة المرموقة في الحياة الإنسانية، وذلك لترابطها مع كافة مظاهر النشاط الاقتصادي والبنيوي للمجتمعات البشرية، التي وجدت نفسها ملزمةً على التعامل بها واستخدامها في مختلف مناحي حياتها اليومية من تجارية، صناعية، معمارية، ثقافية...، الأمر الذي ينميٌّ من أهميتها وضرورة توثيقها والتعرف من قبل الباحثين والدارسين لمخلفات الحضارات القديمة على الصعيدين المادي والفكري، وذلك لارتباطها وتداخلها مع الإنتاج الفكري والحضاري للإنسان، الذي اعتمدها في تحديد المسافات والأبعاد والأطوال عند بحثه ودراسته للعلوم التطبيقية والوصفية، من جغرافية، فلكية، معمارية، اقتصادية، اجتماعية...

على الرغم من الدراسات العامة والكلاسيكية الجزئية غير المعمقة التي قام بها بعض الباحثين والدارسين أمثال الأب أنستانس الكرملي (النقود العربية الإسلامية وعلم النميات)، عبد القادر الخطيب (تقدير الأوزان عند المسلمين)، فالترهنتس (الأوزان والمقاييس الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري)، وغيرهم الكثير من الباحثين والدارسين، الذين جهدوا في تحقيق بعض نظم القياس الإسلامية، وتحديد مكافأتها المترية والغرامية الحالية، والصعوبات التي واجهوها وحالت دون تحقيقها كاملةً نتيجة تعددها وتباين مقاديرها وأطوالها، وكذلك وظائفها طبقاً لأماكن انتشارها وتداولها؛ الأمر الذي دفعنا إلى السعي مجدداً للبحث في القيم الطولية والمساحية المترية المكافئة

للعديد من وحدات القياس الإسلامية القديمة المحققة سابقاً، بهدف الوصول إلى القيم المترية الحالية المكافئة بعد تصحيحها؛ اعتماداً على التوصيف الشكلي والحجمي لوحدات القياس الذي قدمته لنا مجمل الوثائق الإسلامية القديمة، وكذلك الوثائق الإسبانية المدجنة، لاسيما المتعلق منها بمجموعة الأوامر والتعليمات التنظيمية والإدارية الملكية الصادرة عن الملوك الأسبان الكاثوليك إثر حروب الاسترداد المسيحية، التي هدفت إلى إعادة تنظيم المجتمع الإسباني وفق منهجية السلطة الحاكمة الجديدة، القاضية بحظر العمل أو التعامل بأي مظهر من مظاهر الحضارة الإسلامية (معتقدات، عادات، تقاليد، لباس، أسماء، احتفالات..)، ومنها الأمر الملكي الصادر عن ألفونسو العاشر ملك قشتالة، ("بأمر من الملك يتوجب على الموريسكيين ارتداء اللباس المسيحي، والامتناع عن صنع المرلوطة، الملفة، والكلسات، وأن تظهر نساؤهم سافرات الوجه.."١٧ تشرين الثاني ١٥٦٧)[١]. ("..يعلن في غرناطة قرار فيليب الثاني القاضي بأن يقوم الموريسكيون فوراً بالتخلي عن اللباس الإسلامي، اللغة والعادات..")[٢]. ويتضمن هذا الحظر منع التعامل بوحدات القياس والمساحة الإسلامية؛ حيث عمدت السلطات الحاكمة على إلغاء البعض منها، أو تعديل قيمها الطولية والمساحية وتسمياتها بهدف مخالفة ما كان سائداً قبل ذلك، وهذا ما تؤكده العديد من الدراسات التي أشارت إلى استمرارية التعامل بوحدات القياس القديمة بين سكان شبه الجزيرة الإيبيرية ولاسيما الأندلس، وذلك على الرغم من قرارات الحظر والمنع، تحت طائلة العقوبة والتغريم.

ولتحقيق ما هدفنا إليه في بحثنا هذا من القيام بعملية دراسة تحقيقية وتقويمية ومقارنة لمجمل وحدات القياس الإسلامية وتطوراتها، فقد وجدنا أن تحقيق هذه الغاية لا يمكن أن يتم إلا من خلال تحديد المقومات والمركبات الجزئية، وكذلك المضاعفات العشرية المكونة لمختلف وحدات القياس الإسلامية والمدجنة، ومن ثم تحديد أنواعها، استخداماتها ومكافئاتها الطولية وفق نظم القياس القديمة المترية العشرية الحالية،

منطلقين في تحقيقينا لبحثنا هذا من الوحدة الطولية الأصغر وهي الإصبع، التي شكلت القاعدة والركيزة الأساسية المعتمدة في مختلف وحدات القياس الكبرى المكونة من مضاعفاتها الطولية:

١- **إصبع:** وحدة قياس إسلامية تعرف على أنها القيمة الطولية التي يغطيها عرض إصبع السبابة من اليد، البالغة وفقاً للمقاييس العشرية #[١,٧٤٥٩٢٥٩٥سم.][٣].

٢- **عقلة، (عقلة الإصبع) بولغادا (البوصة الرومانية):** وحدة قياس طولية رومانية الأصل، تقدر قيمتها المترية القديمة في الفترة الرومانية بما يعادل [٢,٣٢٧٩٠٦سم][٤]. هذا وقد شاع تداول هذه الوحدة المساحية في العالم الإسلامي بعد تعريبها ومن ثم تعريفها على أنها المساحة الطولية التي تغطيها عقلة إصبع الإبهام من اليد والمقدرة بـ [٢,٠٧٥٢٩١٦٩سم][5].

٣- **القبضة "الشبر الصغير":** وحدة قياس طول إسلامية، تقدر قيمتها المترية بما يعادل مقدار المساحة العرضية التي تغطيها أربع أصابع من أصابع اليد المقبوضة (قبضة)[٦]، المحسوبة على أساس القيمة المساحية لقيمة للإصبع وهي [١,٧٤٥٩٢٩٥]، وبذلك تكون القيمة المساحية للقبضة الواحدة معادلة وفق القيم المترية الحالية لما مقداره [٦,٩٨٣٧٢٠٢سم].

٤- **الفتر:** وحدة قياس طول إسلامية، قدرت قيمته الطولية بما يوازي المسافة الفاصلة بين طرفي إصبعي السبابة والإبهام من الكف الممدودة، المحدد بمقدار عشرة أصابع أو قبضتين وإصبعين: [١٧,٤٥٩٩٥سم]، في حين قدرها البعض بما يعادل ثلث الذراع البلدي البالغ [٥٧,٥٧سم][٧].

٥- **الشبر:** وحدة قياس طول إسلامية، قدرت قيمته الطولية الوصفية، بالمقدار المساحي الذي يغطيه الكف المفتوح الأصابع، وذلك من خلال حساب المسافة الممتدة فيما بين الطرفين[٨]، الوحشيين للإبهام والخنصر، المقدرة بنصف ذراع

يد، ثلث الذراع الاستانبولي أو اثني عشر إصبعاً، والتي تعادل وفق القيمة المترية ما مقداره [٢٠,٩٥١١٥٤سم][٩].

٦- **الذراع:** مقياس طول سطوح وارتفاع، يعرف وصفياً على أنه المقدار الطولي الذي تغطيه المسافة الممتدة من طرف الإصبع الوسطى وحتى نهاية المرفق[١٠].

على الرغم من اعتقادنا بقدم هذه الوحدة القياسية، وصعوبة تحديد الفترة الزمنية التي بدئ باعتماد الذراع كوحدة قياس، فإن أقدم وثيقة كتابية يمكن أن توضح هذا الاستخدام هو ما جاء ذكره في الكتاب المقدس عن قصة سيدنا نوح عليه السلام وتشييده الفلك. (فقال الله لنوح: "جاءت نهاية كلِّ بشرٍ فالأرضُ امتلأت عنفاً على أيديهم، وها أنا أهلكهم مع الأرض. فاصنع لك سفينةً من خشب السرو، واجعلها غُرَفاً، واطلِها من داخل ومن خارج بالقار. وليكن طولها ثلاث مئة ذراع، وعرضها خمسين ذراعاً. واجعل نافذة للسفينة يكون بينها وبين السقف ذراع واحدة...")[١١]، (..وتصنع مائدة من خشب السنط طولها ذراعان وعرضها ذراع وارتفاعها ذراع ونصف...)[١٢]. وخير دليل على استمرار التعامل بالذراع كوحدة قياس نظامية خلال الفترة الإسلامية، هو ذكر القرآن الكريم لعبارة الذراع كوحدة طول متعارف عليها، (..خذوه فَغُلُّوه. ثم الجحيَم صلُّوه. ثم في سلسلةٍ ذَرْعَها سبعون ذِراعاً فاسلكوه..)[١٣]. من جانب آخر، فقد درجت الوثائق الوصفية الإسلامية على ذكر الذراع مراراً وتكراراً كوحدة قياس طولية معتمدة في تحديد القيم الطولية والمساحية للأبنية والتشييدات المعمارية الإسلامية، ومنها الوصف الذي قدمه الأزرقي نقلاً عن ابن هشام عند وصفه الدقيق لمساحة الحرم المكّي، والذي اعتمد في قياساته على الذراع كوحدة قياس طولي للأبنية (..كان الحرم مستطيل الشكل أطوال جوانبه ٣٢ ذراعاً شمال-شرق، ٢٢ ذراعاً شمال-غرب، ٣١ ذراعاً جنوب-غرب، ٢٣ ذراعاً جنوب-شرق..)[١٤]، وكذلك اعتماد الرحالة المقدسي لنفس وحدة القياس عند تحديده

للأطوال ومساحات التشييدات المعمارية في مكة، (..طول المسجد ثلاثمائة ذراع وسبعون ذراعاً، وعرضه ثلاثمائة وخمسة عشر ذراعاً وطول الكعبة أربعة وعشرون ذراعاً وشبر، في ثلاثة وعشرين ذراعاً وشبر، وذراع دور الحِجر خمسة وعشرون ذراعاً، وذَرْع الطواف مائة ذراع وسبعة أذرع، وسمكها في السماء سبعة وعشرون ذراعاً..)[١٥]؛ إلا أنه وعلى الرغم من إجماع الوثائق والمخطوطات القديمة على استخدام الذراع كوحدة تكييل وقياس طول ومساحة، فإن أي منهم لم يسعَ إلى تحديد القيمة الطولية لتلك الذراع ومركباتها العشرية؛ الأمر الذي دفعنا إلى الاعتقاد الحتمي بقيام المتعاملين خلال تلك الحقبة باستخدام ذراع اليد في عملية القياس والتقدير، بغض النظر عن نسبة الفوارق الجزئية الناجمة عن اختلاف طول الذراع بين فرد وآخر، وما ينجم عن وسيلة التعامل التقديرية تلك، من ظلم وحيف يحيق بأحد المتعاملين[١٦]، الأمر الذي دفع بالسلطات الوصائية الإسلامية، إلى السعي لإعادة تنظيم أساليب ووسائل التعامل ورفع الحيف والظلم عن المتعاملين، وذلك من خلال إقرارها لمجموعة من وحدات القياس النظامية، والمعتمدة، المحددة الأوصاف والأطوال والمعالم، التي أمر باستخدامها في نظم المبيعات والعلاقات التجارية تحت إشراف ومراقبة المحتسب ورجاله، الذين أوكل إليهم مهمة مراقبة الأسواق والورشات، وبتفحص أدوات ووسائل التعامل والتبادل التجاري والاقتصادي[١٧]؛ لاسيما نوعية ذرع القياس المعتمدة ومطابقتها للمواصفات من حيث القيمة الطولية، أو النوعية المناسبة للغرض المخصّص منها، وذلك بسبب تنوع أشكال وأطوال ذرع القياس وبما يتناسب مع الوظيفة الخدمية المرصودة لها، والمناطق التي شاع فيها استخدامها أكثر من غيرها.

١- **ذراع اليد:** وحدة قياس طول سطحي وارتفاع إسلامية، تمثل بالطول الممتد من طرف الإصبع الأوسط في اليد وحتى المرفق.

استخدمت هذه الوحدة القياسية عبر العصور في تحديد القيمة الطولية للمنشآت المعمارية، حيث يشير الحميري في كتابه "**الروض المعطار**"، إلى استخدامه لذراع اليد في تحديد أطوال وأبعاد الجامع الأموي الكبير بدمشق قائلاً: (..وذرعه من المشرق إلى المغرب مائتا خطوة، وهي ثلاثمائة ذراع..)، (..وذرع المسجد في الطول من الشرق إلى الغرب مئتا خطوة وهي ثلاثمئة ذراع وعرضه من القبلة إلى الجوف مئة وخمس وثلاثون خطوة وهي مئتا ذراع..)[١٨]. دون الإشارة إلى القيمة المترية الموازية لمقدار طول ذراع اليد المعتمدة من قبله.

ومهما يكن من أمر، فقد حددت بعض الوثائق الإسلامية، القيمة التركيبية والجزئية لذراع اليد النظامية (ذراع اليد الخشبية) ومكوناتها الجزئية المركبة من أربع وعشرون إصبعاً، ست قبضات أو شبرين كبيرين، المعادلين لنظام القياس العشري المتري لما يقارب [٤١,٩٠٢٣٠٨سم].

٢- **ذراع العمل:** وحدة قياس طول إسلامية شاع تداولها واستخدامها خلال العصر الأموي بتحديد وقياس وتقدير أطوال وأبعاد المنشآت المعمارية الصغيرة الحجم؛ حيث تشير الوثائق الكتابية الوصفية، على انتشار استخدام ذراع العمل في مصر خلال الحقبة الأموية، وذلك من خلال تحديد المقريزي لأبعاد الجامع العمري في فسطاط مصر، نقلاً عن رواية أبي سلف الحميري الذي حضر الصلاة الجامعة التي كان يأمها والي مصر عمرو بن العاص حيث قال: (...كان المسجد صغيراً وبدائياً أبعاده ٥٠×٣٠ ذراعاً..)[١٩]، وهو ما يعادل طبقاً للمقاييس المترية [٢٩×١٧=٤٩٣متر مربع]، الأمر الذي يجعل مقياس الذراع المستخدم في بناء جامع عمرو بن العاص هو [٥٨سم][٢٠].

٣- **الذراع الهندسية** "# ذراع العامة، ذراع اليد أو الذراع القديمة": وحدة قياس طول إسلامية، تقدر قيمتها الطولية الموازية بما يعادل مقدار القدم ونصف القدم[٢١]، أو بمقدار نصف البارة الإسبانية (بارة مملكة قشتالة)[٢٢]؛ في حين قدرت قيمتها الموازية طبقاً لرواية ابن الجياب في مخطوطة **التقريب والتيسير لإفادة المبتدئ بصناعات المساحات السطوحية** مقدار: (..ستة أشبار صغار أو قبضات من أربعة أصابع لكل منهما..)[٢٣]، المعادلة طبقاً لنظام القياس المتري العشري ما قيمته:

[٦,٩٨٣٧٢٠٢×٦=٤١,٩٠٢٣٢١سم]

وتوثيقاً للقيمة المترية الموازية للذراع الهندسية، نذكر ما رواه الحميري في كتابه **الروض المعطار**، عن إحدى الروايات المحيطة لعملية تشييد سور مدينة مجريط (مدريد) في العام ٨٦٠م. حيث (..يروي ابن حيان في تاريخه أنه وخلال حفر الخندق المحيط بالسور الخارجي لمجريط، تمّ العثور على بقايا حيوان، بطول ٥١ ذراعاً، أو ١٠٢ شبراً كبيراً، طوله من قرني الرأس وحتى أطراف الأقدام، ويؤكد صحة هذه الرواية قاضي مجريط الذي أتى شخصياً برفقة بعض الشهود برؤية هذه البقايا، ويضيف قائلاً أن دماغ هذا الحيوان قد بلغ وزنه ما يقارب ثمان أروبات..)[٢٤]. ولدى تحويل القيمة الطولية للشبر إلى مكافئه المتري، اتضح أن طول الهيكل العظمي الذي تم العثور عليه هو:

[٢٠,٩٥١١٤٥×١٠٢÷١٠٠=٢١,٣٧٠١٦م][٢٥]

ولدى تقسيم الطول المتري للحيوان على عدد الأذرع التي ذكرها ابن حيان والبالغة ٥١ ذراعاً، اتضح أن طول الذراع الهندسية المتوافق مع طول الذراع العامة، "اليد أو القديمة" هو [٤١,٩٠٢٢٧سم].

٤- **الذراع المأمونية "السوداء النيل"**[٢٦]: وحدة قياس طول ومنسوب مائي، ابتدعها الخليفة العباسي المأمون[٢٧]، بهدف تحديد نسبة الزيادة وارتفاع منسوب نهر النيل، الذي كان على أساسه يتم تحديد نسبة الضرائب والخراج والعشور المتوجب جبايتها من الإقليم المصري.

عمد الخليفة المأمون إلى تحديد القيمة الطولية الافتراضية للذراع السوداء، نسبة إلى طول أمة سوداء كان يمتلكها، والتي بلغ مقدار طولها وفقاً لنسب القياس في تلك الحقبة، ما مقداره ستة قبضات وثلاثة أصابع، أو ما يعادل لسبع وعشرين إصبعاً[٢٨]؛ حيث أمر بنقش مقياسه الجديد مع مكوناتها العشرية على أحد الألواح الحجرية، وثبته في أحد آبار الزيادة المتصلة بنهر النيل ضمن مدينة القاهرة، وعيّن عليه وصياً لمراقبة نسبة الزيادة اليومية وإعلام مقدارها: (..والمقياس بركة وسطها عمود طويل فيه علامات الأذرع والأصابع، وعليه وصي، وأبواب محكمة، يرفع إلى السلطان في كل يوم مقدار ما زاد، ثم ينادي المنادي "زاد الله اليوم في النيل المبارك كذا وكذا، وكانت زيادته عام الأول في هذا اليوم كذا وكذا، وعلى الله التمام"، ولا ينادى عليه إلا بعد أن يبلغ اثني عشر ذراعاً ..فإذا بلغ أربع عشر سقي أسفل الإقليم، فإذا بلغ ستة عشر استبشر الناس، وكانت سنة مقبلة، فإذا جاوزها كان خصب وسعة..)[٢٩]، هذا وقد مكنت الدراسات التي تمت على حجر قياس المنسوب، من تحديد قيمته الطولية وفق النظام المتري العشري، البالغ [٤٧,١٤٠١٠٩سم][٣٠].

٥- **الذراع الرشاشية**: وحدة قياس طول وسطوح إسلامية أندلسية.

تنسب هذه الذراع إلى ابن فرج الرشاشي، الذي قام باقتباس ونقل نظام قياس الذراع المأمونية من مصر، ونشرها في الأندلس بعد تعديل قيمتها

الطولية من سبع وعشرين إصبعاً إلى اثنين وثلاثين إصبعاً، المعادلة وفق نظام القياس المتري العشري لمقدار :

[٥٥,٨٦٩٧٤٤=٣٢×١,٧٤٥٩٢٩٥٠سم]

هذا وقد أكد ابن غالب في مؤلفه **فرحة الأنفس**[٣١]، على الأهمية التي نالتها الذراع الرشاشية في الأندلس من حيث استخدامها كوحدة قياس هامة في تحديد أطوال المنشآت المعمارية الأندلسية (المسجد الجامع الكبير في قرطبة)؛ وسعيه إلى تدقيق قيمتها الطولية مقارنة مع القيمة الطولية الثابتة لذراع العامة، الهندسية، وذراه اليد النظامية، من خلال تأكيده على أن: (..كل ذراع رشاشية تعادل ذراع وثلث الذراع من الذراع العادية، العامة أو الهندسية، التي تعادل بدورها ثلث الذراع الرشاشية..)[٣٢]، هذا يعني أن القيمة الطولية للذراع الرشاشية يعادل [٥٥,٨٦٩٧٣سم][٣٣]؛ من جانب آخر. فقد أسهمت المخطوطة التي ألفها ابن الجياب في تدقيق القيمة الطولية الحقيقية الموازية للذراع الرشاشية وفق النظام المتري العشري، وذلك من خلال قيامه بقياس القيمة الطولي للذراع الرشاشية المنحوتة على أحد أعمدة الجامع الكبير في مدينة غرناطة، ورسمه على حاشية المخطوط لخط عمودي بطول [١٨,٤سم]، المعادل لمقدار ثلث طول الذراغ الرشاشية البالغة [١٨,٤×٣=٥٥,٢سم]؛ ورسمه على الجانب الآخر من نفس المخطوطة، لخط عمودي آخر بطول [١٧,٥سم]، معادل لمقدار ثلث طول الذراع القصير المستخدم في مدينة وادي آش المقدر بـ: [١٧,٥×٣=٥٥,٥سم].

٦- **الذراع الأندلسية:** وحدة قياس طول وسطوح إسلامية أندلسية، حددت قيمتها الطولية بما يعادل ثلاثة أشبار[٣٤] أو [٦٢,٨٥٣٤٣٥سم].

٧- **الذراع الإسلامية الكبيرة:** وحدة قياس طولي، قيمته الطولية وفق نظم القياس الإسلامية القديمة بما يعادل [٤٣] إصبعاً، أو [٣٢] بوصة إسبانية "بولغادا Pulgada"[35]، أي ما يعادل [٧٤,٤٩٢٩٩٢سم].

٨- **الذراع الإسلامية المتوسطة "ذراع الريبيرا Ribera"**[٣٦]: وحدة قياس طول وسطوح إسلامية إسبانية مدجنة، تقدر قيمتها الطولية بما يعادل [٣٢] إصبعاً، [٢٤] بوصة إسبانية (قشتالية)، أو ذراعاً رشاشية واحدة، [٥٥,٨٦٩٧٤٤سم].

٩- **الذراع الهاشمية:** وحدة قياس طول إسلامية مستخدمة في تكييل الأقمشة، تقدر قيمتها الطولية طبقاً لرواية ابن الجياب بما يعادل ٣٢ إصبعاً، أي [٥٥,٨٦٩٧٤٤سم][٣٧]. ("...قطعة من النسيج الكاليكوت الهندي بطول ستة أذرع ونصف.." ١٨ أيلول ١٥٦٥ الباستيه دي أورخيبيا)[٣٨].

١٠- **ذراع وادي آش**[٣٩]: وحدة قياس طول وسطوح إسلامية إسبانية، شاع استخدامها في مدينة وادي آش الأندلسية، عدلّت القيمة الطولية الموازية لهذه الذراع بما يعادل ٧٠سم.

١١- **الذراع الموريسكي "المدجن" الكبير:** وحدة قياس معمارية إسبانية مدجنة، حددت قيمته الطولية بما يعادل [٣٢] بوصة[٤٠]، أو ثلاثة أشبار ونصف، حسب تقدير الحميري الذي وصف التشييدات المعمارية لبرج هرقل في مدينة قادش الأندلسية (Cadiz)، (..بلغ ارتفاع البرج حوالي ١٢٤ ذراع من الأرض وحتى رأس التمثال، الذي بلغ ارتفاعه من ستة إلى ثمانية أذرع..هذا وتبلغ قيمة الذراع الكبير ثلاثة أشبار ونصف..)[٤١]. ومن خلال معرفتنا بالقيمة الطولية للشبر، يمكن تحديد القيمة الطولية للذراع الموريسكي الكبير وفق المعادلة التالية: [٢٠,٩٥١١٤٥سم×٣-١٠,٤٧٥٥٧٢سم=٧٣,٣٢٩٠٠٧سم].

١٢- **الذراع الملكية "ذراع قشتالة الملكي"**: وحدة قياس طول إسبانية، عَمّمَ استخدامها في كافة الأقاليم الخاضعة لنفوذ مملكة قشتالة[٤٢]، بموجب الأمر الملكي الصادر في العام ١٥٩٠م[٤٣]، القاضي بضرورة وقف التعامل بمختلف أنواع المقاييس الذرعية المساحية والطولية، والتقيد باستخدام الذراع الملكية النظامية، المعادلة وفق وحدة القياس الإسبانية المقدرة بالبارة، لمقدار طولي بنسبة ثلثي بارة إسبانية نظامية "قشتالية"، وجزء واحد من ٣٢ جزء من الثلثين، المعادلة في مقدارها الكلي ما مقداره ٣٣ إصبعاً.

(..Cuyo Patron se acopanapa y media los dos tercios de vara de Castilla y 1/32 de estos 2/3, O sea 33 dedos, elaquel es medio entre los mayores y menores conque de presente se arquea, y on con otro alguno mayor ni menor..)

ومن خلال تحديد الوثائق الكتابية للقيمة الطولية المترية الموازية للذراع الملكية، والمقدرة بما يعادل [٣٣] إصبعاً، يمكننا تحديد القيمة الطولية المترية المعادلة لقيمة الذراع الملكية بـ [٥٧,٩١٥٦٧٣سم][٤٤].

١٣- **ذراع الدور أو الذراع الفضية**[٤٥]: وحدة قياس طول إسلامية صغيرة، ابتدعها قاضي الكوفة ابن أبي ليلى، لتحديد القيمة الطولية للمنشآت المعمارية المختلفة، وذلك بعد تحديده لقيمتها الطولية النظامية، القائمة على أساس نقصان طولها عن مقدار الذراع السوداء بما يعادل إصبع وثلثي الإصبع [٤٧,١٤٠٠٦٩-٢,٩٠٩٨٨٢٥=٤٤,٢٣٠١٨٧سم].

١٤- **الذراع المرسلة، الذراع القائمة**: وحدة قياس طولية، معادلة في قيمتها المترية لمقدار طول ذراع اليد النظامية، البالغ ٤١,٩٠٢٣٠٨سم؛ في حين تبلغ القيمة النسبية المئوية المعادلة فيما بين الذراع القائمة والهاشمية نسبة (٦٠-٨٠%)، بحيث أن كل ٦٠ ذراع هاشمية تعادل ٨٠ ذراع قائمة أو

مرسلة[46]. [٥٥,٨٦٩٧٤٤×٦٠÷٨٠=٤١,٩٠٢٣٠٥سم، وهي قيمة الذراع القائمة أو المرسلة].

١٥- **ذراع الملك:** وحدة قياس طول وارتفاع شاع تداولها في مصر الإسلامية (..وفيه عجائب منها الهرمان.. ارتفاع كل واحدة أربعمائة ذراع بذراع الملك في عرض مثلها، قد ملئت بكتابة يونانية..)[47].

قدرت القيمة الطولية الموازية لذراع الملك حسب رواية الماوردي، الذي قيمها نسبة إلى باقي الذراع المستخدمة في عصره، على أنها تزيد في طولها عن نسبة طول الذراع السوداء بما يعادل الخمسة أصابع وثلثي الإصبع [٤٧,١٤٠٠٦٩+٨,٧٢٩٩٧٥+١,١٦٣٩٩٦٦=٥٧,٠٣٤٠٤سم].

١٦- **ذراع الحديد:** وحدة قياس طول إسلامية معتمدة في تقدير وتكييل الأقمشة والمنسوجات، شاع تداولها في كل من مصر والحجاز خلال القرن ٩ هـ/ ١٥ م. قُدّر طول هذه الذراع نسبة إلى وحدات نظم القياس الطولية الأوروبية بما يعادل ٢٥ بلغادا "بوصة إسبانية" (عقلة إصبع)، [٢,٣٢٧٩٠٦×٢٥=٥٨,١٩٧٦٩٥سم]

١٧- **الذراع البلدي:** وحدة قياس إسلامية، شاع تداولها والتعامل بها في الإقليم المصري خلال الحقبة العثمانية، لتحديد وتقدير الأطوال والسطوح بالنسبة للمواد، غير أن استخدامها الأساسي كان مقصوراً على تقدير القيم الطولية للمنسوجات.

قدر الطول المتري الموازي للذراع البلدي وفق النظام العشري بما يعادل ٥٧,٥٧سم[48].

١٨- **الذراع الهندسية المصرية:** وحدة قياس طول إسلامية "مصرية-عثمانية"، وُضِعَت كمقياس طولي معتدل فيما بين الذراعين البلدي والاستامبولي،

حيث تم اعتمادها في تحديد وتقدير أطوال الأقمشة النسيجية المستوردة من الهند، بعد تحديد طولها الموازي وفق النظام المتري العشري بما يعادل [٦٢,٧٥سم][٤٩]؛ وذلك على النقيض من القيمة الطولية الموازية التي قدّرها الباحث الإنكليزي لين وفقاً لنظم القياس الإنكليزية، البالغة خمسة وعشرين إنشاً إنكليزياً[٥٠]، [٢,٥٤٠×٢٥=٦٣,٥سم][٥١].

١٩- **الذراع الاستامبولية:** وحدة قياس إسلامية (عثمانية-مصرية)، مستخدمة في مصر لتقدير وتكييل أطوال المنسوجات المستوردة من السلطنة العثمانية وأوروبة، بعد تحديد طولها طبقاً لنظم القياس المتري العشري # (٦٧,٧٥سم)[٥٢]، وذلك على النقيض من القيمة الطولية المحققة من قبل الباحث الإنكليزي لين، والمقدرة وفقاً لنظم القياس الإنكليزية التي قُدِّرت طولها الموازي بـ (٢٦,٥ إنشاً إنكليزياً)، أي # (٦٧,٣١سم).

٢٠- **الذراع المعمارية:** وحدة قياس طول وسطوح إسلامية، ذات استخدام مقصور على المسح الطولي والسطحي للتشييدات المعمارية.

قُدِّرت القيمة الطولية للذراع المعمارية طبقاً لرواية المؤرخ القلقشندي بما يعادل ثمانية أخماس ذراع اليد [٤١,٩٠٢٣٠٨÷٥×٨=٦٧,٠٤٣٦٩٢سم].

٢١- **ذراع الميزانية:** وحدة قياس طول إسلامية ابتدعها الخليفة العباسي المأمون، ووضعها قيد الاستخدام بهدف تحديد وقياس أطوال القنوات المائية، وذلك بعد أن قام بتحديد طولها نسبة إلى الذراع السوداء، بنسبة طولية قدرها ذراعان وثلثا الذراع السوداء وثلثا الإصبع: [٩٤,٢٨٠١٣٨-٣١,٤٢٧١٢٦-١,١٦٣٩٥٣=١٢٦,٨٧١٢١سم].

٢٢- **الذراع اليوسفية:** وحدة قياس طول إسلامية، تنسب إلى القاضي أبو يوسف الذي ابتدعها (المتوفى سنة ١٨١ هـ/ ٧٩٨م)، ووضعها قيد الاستخدام بعد

تحديد وتثبيت قيمتها الطولية التي تنقص عن المقدار الطولي للذراع السوداء بمقدار ثلثي الإصبع، المعادلة وفقاً لنظام القياس المتري ما مقداره [٤٧,١٢٠٠٦٩-١,١٦٣٩٥٣=٤٥,٩٧٦١١٦سم].

في حين يشير الرازي مؤكداً على أن المقدار الطولي للذراع اليوسفية، كان ينقص عن المقدار الطولي للذراع السوداء بنسبة إصبعين وواحد وعشرين جزء من الإصبع، المعادلة وفق النظام المتري لمقدار [٤٧,١٤٠٠٦٩-(٠,٣٦٦٦٤٣٢-٣,٤٩١٨٤) ٣,٨٥٨٤٨٣٢=٤٣,٢٨١٥٨٦سم].

٢٣- **الذراع العمرية:** وحدة قياس طول وسطوح، تقدر قيمتها الطولية بما يعادل نصف طول ذراع الميزانية [٦٣,٤٣٦٠٥سم].

إلى جانب القيم المترية للذراع الآفة الذكر، التي أتينا على إعادة تحقيق قيمها الطولية ومركباتها الجزئية القديمة، وتحديد موازياتها المترية الدقيقة أو التقريبية ضمن الإمكانيات المتاحة لنا، فقد أتت العديد من الوثائق القديمة والمؤلفات المتعلقة بتاريخ الحضارة العربية والإسلامية، على ذكر العديد من أسماء الذرع الأخرى، التي لم نتمكن من تحديد مركباتها الجزئية أو قيمها الطولية الدقيقة، نتيجة لعدم تمكننا من العثور على الضوابط القياسية الموازية لها، الأمر الذي دفعنا إلى إدراجها كما وردت في الدراسات المختلفة، دون التدقيق بقيمها المترية الموازية:

أ - ذراع العامة المصرية: قدرت قيمتها المترية الموازية بـ [٥٤,٠٤سم].

ب- ذراع الكرباس: استخدمت هذه الذراع في مصر لقياس وتكييل الأقمشة الكتانية البيضاء؛ بعد تحديد قيمتها الطولية وفق النظام المتري بما يعادل [٥٤,٠٤سم].

ج- ذراع الزيادة: تنسب إلى زياد بن سُميَّة (المتوفى في العام ٥٣هـ/٦٧٣م)، التي وضعها واستخدمها في قياس أراضي العراق، وتعادل في قيمتها الطولية مقدار ذراع المسحة المستخدم في قياس الأراضي الزراعية [٦٦,٥سم].

د- ذراع النجارين المصرية: تعادل وسطياً [٧٧,٥سم].

٧- **القيراط:** وحدة قياس طول ومساحة أرضية ومعمارية[٥٣]، شاع تداولها في مصر خلال الحقبة العثمانية، بعد تحديد قيمتها الطولية نسبة إلى القيمة الطولية للذراع البلدي بما يعادل الذراع وثلث الذراع البلدي، المعادلة لنظام القياس المتري ما مقداره [٥٧,٧٥-١٩,٢٥=٧٧سم].

٨- **الباع:** وحدة قياس طول ومساحة إسلامية، يعرف وصفياً على أنه المسافة الطولية الفاصلة بين طرفي اليدين الممدوتين[٥٤]؛ بحيث أن كل [٣٠٠٠] باع لاتينية تعادل [١٢٠٠] ذراع إسلامي كبير[٥٥]، أي أن كل باع يعادل [٢,٥] ذراع من الذراع الإسلامي الكبير؛ الأمر الذي يمكننا من تحديد القيمة الطولية المترية للباع اللاتينية طبقاً للمعادلة الحسابية التالية:

[٧٤,٤٩٢٩٩٢سم×٢,٥=١٨٦,٢٣٢٤٨سم. وهو طول الباع اللاتينية]

٩- **القدم:** تعرف القدم المساحية على أنها المسافة أو المقياس الطولي الذي يغطيه قدم الرجل البالغ (من الإبهام وحتى عقب القدم).

اعتمدت القدم كوحدة قياس طول وسطوح أفقية عامة، لتحديد أطوال المنشآت المعمارية المحدودة الحجم (بيوت السكن، المساجد، المدارس، الحمامات، الأزقة والحارات..).

وعلى هذا فقد حُدِّدَت القيمة المترية العشرية الموازية للقدم بما يعادل [١٢] بوصة "بلغادا"[٥٦]، والتي تعادل بدورها [١٦] إصبع.

[٢,٣٢٧٩٠٦ "بوصة" × ١٢ = ٢٧,٩٣٤٨٧٢سم]

[١,٧٤٥٩٢٩٥ "إصبع" × ١٦= ٢٧,٩٣٤٨٧٢سم]

وهي قيمة القدم المترية، والتي تختلف في قيمتها عن القدم الإنكليزية الحاليـــة المقدرة بـــ ٣٠,٤٨سم[٥٧].

١٠- **الخطوة:** تعرف لغوياً على أنها المسافة بين القدمين عند المشي؛ ونظراً لثبـــات وتقارب القيم الطولية بالنسبة للخطوة، فقد تم اعتمادها منذ القدم كوحدة قيـــاس ومساحة، مُخصَّصة في تقييم أطوال ومساحات الأبنيـــة والمنشـــآت الريفيـــة، الحدائق والأراضي الزراعية الصغيرة.

على الرغم من أهميـــة "الخطـــوة" كمقيـــاس شـــخصي اســـتخدمه الرحالـــة والجغرافيون القدماء أمثال ابن جبير[٥٨]، وابن بطوطة[٥٩]، وياقوت الحمـــوي[٦٠]، والمقدسي[٦١] وغيرهم، في وصف أطـــوال ومســـاحات الأبنيـــة والتشـــييدات المعمارية التي شاهدوها في رحلاتهم، إلا أن أيٍ منهم لم يأتِ على تحديد نـــوع الخطوة المستخدمة في القياس، الأمر الذي أوقع الباحثين الجدد المعتمدين فـــي دراساتهم على الشروحات الوصفية للمؤرخين القدامـــى، وإلـــى الخلـــط فـــي المقاييس، وذلك لوجود نوعين من الخطـــى القياســـية المســـاحية التـــي درج استخدامها خلال الحقبة الإسلامية، هي على نوعين:

أ- **خطوة الرجل العادي:** وتقدر طبقـــاً لابـــن جبـــير بثـــلاث قبضـــات (أشبار)[٦٢] وهي ما تعادل [٢٠,٩٥١١٤٥×٣=٦٢,٨٥٣٤٣٥سم][٦٣]، والتي تعادل في قيمتها الطولية مقدار طول الذراع الأندلسية.

ب- **خطوة الجمل:** وهي الأكثر استخداماً في تحديد المســـافات الطوليـــة، حيث تبلغ قيمتها الطولية والمساحية وفق تقديـــر ابـــن الجيـــاب مـــا مقداره:

- أربعة أذرع يدوية [٤١,٩٠٢٣٠٨×٤=١٦٧,٦٠٩٢٩سم][٦٤].
- ثمان أشبار [٢٠,٩٥١١٤٥×٨=١٦٧,٦٠٩١٦سم].
- ست تسعون إصبعاً إسلامياً :

[١,٧٤٥٩٢٩٥×٩٦=١٦٧,٦٠٩٢٩سم][٦٥]

١١- **مسطرة:** شريحة خشبية[٦٦] أو معدنية متدرجة، يتراوح طولها فيما بين [٣٠-٢٠٠سم]، شاع استخدامها بين طبقة الحرفيين "النساخين، والمجلدين، والخياطين، والنجارين والحدادين..."، لتقدير الأطوال وتحديد المسافات والخطوط المستقيمة على السطوح المستوية الصغيرة.

١٢- **البارة:** وحدة قياس طول إسلامية مدجنة إسبانية، مكونة من عصا أو قضيب خشبي بطول [٨٣٦ملم][٦٧]. (٨٣,٦سم).

تباينت القيم الطولية للبارة الإسبانية في شبه الجزيرة الإيبيرية من إقليم إلى آخر وبين مملكة وأخرى؛ حيث قدرت القيمة الطولية للبارة المعتمدة في مملكتي قشتالة وبورغوس بما يعادل ٣٦ بوصة، [#٨٣,٥٩٠٥سم]؛ وذلك على النقيض من المقدار الطولي المكافئ للبارة المستخدمة في مدينة طليطلة، التي تم اعتمادها بشكل رسمي إثر حروب الإسترداد المسيحية وحركة الفرنجة التي تزعمها ألفونسو العاشر ملك قشتالة وخيمي الأول ملك أراغون وكاتالونيه، والتي كان من نتائجها إلغاء العمل بوحدات القياس الإسلامية واعتماد نظم القياس الإسبانية الجديدة وتعميم استخدام البارة الطولية الموحدة، المحددة بطول [٦٧,٦٢٢٧سم]، (=#٢٩ بوصة)، في كافة المناطق الخاضعة لنفوذه؛ والتي تجاوزت في قيمتها الطولية، المقدار الطولي للبارة المعتمدة في مقاطعات إليكانتي Alicante [٧٦سم]، التيرويل Teruel[٧٦,٨سم]، وسرقسطة

Zaragoza [٧٧,٢سم]؛ في حين توافقت قيمتها الطولية مع مقدار نصف القصبة المساحية المعتمدة في مدينة ليريده Lerida [٧٧,٨سم]، وبرشلونة Barcelona [٧٧,٧٥سم].

١٣- **القصبة**[٦٨] **(إستادال)**: وحدة قياس مساحة سطحية إسلامية مدجنة، ذات استخدام خاص بتحديد وقياس أطوال ومساحات الحدائق والأراضي الزراعية الصغيرة الحجم[٦٩].

تباينت القيم المترية والطولية المعادلة للقصبة المساحية بين الأقاليم والمدن الخاضعة للنفوذ الإسلامي أو الإسباني، في شبه الجزيرة الإيبيرية؛ حيث حددت التعليمات الإدارية الناظمة للقيم المساحية في الأندلس، القيمة المعادلة للقصبة المساحية الإسلامية التي شاع تداولها في الأندلس خلال فترة الحكم الإسلامي، بستة أذرع رشاشية[٧٠]، إستدال إشبيلي، ستة عشر شبراً كبيراً، أو اثني عشر قدماً المعادلة طبقاً لنظم القياس المتري العشري [٣٣٥,٢١٨٦٥سم]؛ وذلك على النقيض من القيمة الطولية للقصبة المساحية الإسبانية، التي أقرتها مجموعة الأوامر الملكية والتعليمات الإدارية الناظمة بهذا الشأن، التي حددت قيمتها الطولية المكافئة لأحد عشر شبراً، أو أربعة أذرع من ذرع مملكة قشتالة الملكية، المعادلة وفق نظام القياس العشري ما مقداره [٢٣٠,٤٦٢٥٩سم][٧١].

١٤- **الميل**: يعرف على أنه مسافة ليس لها حد معلوم، وقالوا أنه قدر منتهى مد البصر من الأرض[٧٢].

والميل المساحي: هو عبارة عن وحدة قياس مسافات وسطوح أرضية، تقدر قيمته الطولية بما يعادل أربعة آلاف ذراع يد [١٦٧٦,٠٩٢٣م]، أو ألف خطوة جمل [١٦٧٦,٠٩٢٩م]، في حين قدرت القيمة الحالية للميل البري وفق النظم المتري الإنكليزي بما يعادل [١٩٠٦م]، والميل البحري [١٨٥٢م][٧٣].

وذلك على النقيض من القيمة الطولية المكافئة بالنسبة للميل الهاشمية أو الرشاشية المعادلة في قيمتها الطولية [#١٠٠٠باع لاتينية]، المحسوبة في أسسها على المضاعفات الرقمية للذراع الرشاشية [٣٣٣.٣٣٣٣]، وبذلك تكون القيمة المترية للتكييل الرشاشية أو الهاشمية معادلة لما مقداره [٥٥,٨٦٩٧٤٤×٣٣٣٣,٣٣٣٣÷١٠٠=١٨٦٢,٣٢٤٧م] المعادلة لألف باع لاتينية[٧٤].

١٥- **الفرسخ**: وحدة قياس مساحة سطحية، تستخدم لمسح الأقاليم[٧٥]، تقدر قيمتها الطولية بـ:

- ثلاثة أميال رشاشية أو هاشمية[٧٦] [١٨٦٢,٣٢٤٨م×٣=٥٥٨٦,٩٧٤٤م].
- ثلاثة آلاف باع لاتينية:

  [١٦٨,٢٣٢٤٨سم×٣٠٠٠÷١٠٠=٥٥٨٦,٩٧٤٤م]
- عشرين ألف قدم إسبانية:

  [٢٧,٩٣٤٨٧٢سم×٢٠٠٠٠÷١٠٠=٥٥٨٦,٩٧٤٤م]
- عشرة آلاف ذراع رشاشية، هاشمية أو إسلامية متوسطة،

  [٥٥,٨٦٩٧٤٤سم×١٠٠٠٠÷١٠٠=٥٥٨٦,٩٧٤٤م]
- خمس وعشرين درجة عرض، وذلك طبقاً لتقديرات الجغرافي العربي المقدسي، الذي قدر موازيات الفرسخ الطولي نسبة إلى درجات وخطوط عرض الكرة الأرضية (..فاستدارة الأرض موضع خط الاستواء ثلاثمائة وستون درجة، والدرجة خمس وعشرون فرسخاً..)[٧٧].

١٦- **البريد**: مسافة يقطعها الرسول تعادل اثني عشر ميلاً تقريباً[٧٨].

استخدم البريد كمقياس سطحي، حددت قيمته الطولية بما يعادل اثني عشر ميلاً رشاشية [١٨٦٢,٣٢٤٧×١٢=٢٢٣٤٧,٨٩٦م].

١٧- **التحويلة**: وحدة قياس مساحة وسطوح عربية إسبانية مدجنة؛ مستخدمة وقياس الأراضي والمصاطب الزراعية لاسيما المشجرة منها.

شاع تداول هذه الوحدة القياسية في معظم أنحاء شبه الجزيرة الإيبيرية؛ لاسيما في إقليمي مرسية والمرية، التي استخدمت فيهما لتحديد القيم الطولية للمصاطب الزراعية الجبلية المشجرة ("..ثلاث مصاطب مغروسة بشجر التوت وواحدة بشجر التين، تقدر مساحتها بتحويلة واحدة" ٢٧ أيلول ١٥٦٨بيكار)[٧٩].

حددت القيمة الطولية والمساحية للتحويلة الإسلامية والإسبانية بما يعادل ٤٠ بارة طولية [٨٣,٦سم×٤٠÷١٠٠=٣٣,٤٤م]؛ أو ١٦٠٠بارة مربعة [٣٣,٤٤×٣٣,٤٤= ١١١٨,٢٣٣٦متر مربع][٨٠]، =# [١١,١٨٢٣٣٦آر][٨١].

١٨- **المرجع، المرجع العملي**: وحدة قياس مساحة إسلامية مدجنة، مستخدمة في تقدير المساحات السطحية للأراضي الزراعية المروية، وذلك على النقيض من القدح المساحي، المستخدم في تقدير المساحات السطحية للأراضي الزراعية البعلية. ("...بسم الله الرحمن الرحيم. صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله. اشترى الفارس المرفع أبو جعفر أحمد بن الشيخ الفارس المجاهد المرحوم عثمان الغروج لبنته الصغيرة في حجرة عائشة بمال موهوب لها من قبله لوجه الله تعالى من علي بن عبد الله القاطة جميع الفدان السقوي الكائن باللطاخ من مرج غرناطة وهو خمسون مرجعاً بالمرجع العملي...بثمن وقدره مائتا دينار اثنتان من الفضة والدنانير العشرية قبضها البائع بيده..وأشهد به من عرفها بحال صحة وجواز في أواسط شهر رجب الفرد البارك عام أربعة وسبعين وثماني مائة" توقعات غير مقروءة)[٨٢].

هذا وقد عرف الجغرافي ابن الجياب المرجع على أنه (..مقياس مساحة أرضية مستخدم في مسح الأراضي المروية، يقدر طوله بأربعين ذراع

رشاشية من كل جانب..)[٨٣]، وبناءً على وصف ابن الجياب. لمكافئات المرجع من الأذرع الرشاشية، يمكننا تحديد الطول المتري المكافئ للمرجع وفق المعادلة التالية: [٥٥,٨٦٩٧٦١×٤٠÷١٠٠=٢٢,٣٤٧٩٠٤متر طولي]؛ المعادلة وفق نظام التربيع المساحي لمقدار [٤٩٩,٤٢٨٨١ متر مربع]. إلا أنه وعلى الرغم من تحديد ابن الجياب القيمة الموازية للمرجع الإسلامي نسبة لمقدار وطول الذراع الرشاشية، فقد تباينت القيم الطولية بالنسبة للمرجع الإسلامي، المدجن والإسباني ضمن الحقبة الزمنية الواحدة، من إقليم إلى آخر وبين مدينة وأخرى، حتى في نطاق المدينة الواحدة، حيث حدّدت بعض المصادر القديمة قيماً طولية متباينة للمراجع المستخدمة في شبه الجزيرة الإيبيرية منها:

أ- قُدِّرَت القيمة المساحية للمرجع المعتمد في تحديد وتقييم الأراضي الزراعية ضمن نطاق غوطة مدينة غرناطة خلال الحقبة الإسلامية؛ بعشرة قصبات إسبانية (١٠ إستدال إسباني)[٨٤]، المعادلة وفق النظام المتري العشري لما يقارب [٥٢٨,٢٤متر مربع]؛ والذي يزيد في مقداره الطولي عن المرجع المساحي المستخدم في باقي أنحاء مملكة غرناطة، الذي اعتمد المرجع المساحي المقدر بـ [٤٣٦,٧١٠٦ متر مربع، أو ١٠٠ قامة مربعة].

ب- قُدِّرَت القيمة المساحية للمرجع المعتمد مقاطعات لوغو، أورينسة وأوغيخار الإسبانية إثر حرب الاسترداد التي قادتها مملكتا قشتالة وأراغون ضد الممالك الإسلامية في شبه الجزيرة الإيبيرية، بما يعادل [٦٢٥] بارة قشتالية "إسبانية"، [٨٣,٦سم×٦٢٥÷١٠٠=٥٢٢,٥متر مربع] المكافئة # [٧٥] قدم إنكليزي مربع أو # [٨٢] قدم إسباني مربع.

ج- المرجع المستخدم في باقي أنحاء ملكة غرناطة والشمال الإفريقي خلال الفترة الإسلامية، قدر بـ [٦٤] قصبة طولية، وهذا يعني أن طول الضلع الواحد في ذلك المرجع هو [٣,٣٥٢١٨٤٦×٦٤=٢١٤,٥٣٩٩٢م. ومحيط المرجع هو ٨٥٨,١٥٩٦٨م].

د- قُدِّرت القيمة الطولية للمرجع المستخدم في مدينة أورخيبا، غرناطة، وسانتافيه خلال الفترة المدجنة بـ [٥٠٠متر مربع].

هـ- يوجد نوع آخر من المراجع تم تعميمه في مناطق مختلفة من شبه الجزيرة الإيبيرية خلال الفترة المدجنة، قُدِّرت قيمته المساحية بـ [٥٢٧ متر مربع].

و- تُقَدَّر القيمة المترية الموازية الحالية للمرجع الإسباني بما يعادل [٥,٢٥ آر].

١٩- **الفانيقا الهانيقا:** مقياس مساحي وحجمي إسلامي مدجن؛ مستخدم في مسح وتحديد الأراضي الزراعية، وتقدر القيمة الحجمية للحبوب المنتجة[٨٥]. ("..ما يقارب الثمان فانيقات من القمح موضعين في سلتين.." أوغيخار كاستاراس)[٨٦].

على الرغم من قيام العديد من الدارسين والمؤلفين بتحديد وتوحيد القيمة المترية المربعة للفانيقا المساحية ومعادلتها بمقدار [٦٤,٥٩٦آر][٨٧]. فقد أكدت مجمل الوثائق الأندلسية والمؤلفات المرجعية القديمة تباين القيمة الطولية للفانيقا المعتمدة في شبه الجزيرة الإيبيرية خلال الفترتين الإسلامية والمدجنة، وذلك طبقاً للتعليمات الإدارية الناظمة لشؤون كل إقليم ومقاطعة حيث قدرت:

- القيمة المساحية للفانيقا المستخدمة في مقاطعة قشتالة، بما يعادل [٥٧٦ إستدال، ٩٢,١ بارة مربعة، # ٨٢٥ قدماً إسلامية مربعة، أو # ٦٩٣ قدماً إنكليزية مربعة].

- القيمة المساحية المعادلة للفانيقا التي شاع تداولها في مدينة سانتافية التابعة لمقاطعة غرناطة خلال الفترة المدجنة، والمستخدمة في تحديد مساحات الأراضي البعلية تعادل [٤٦,٧٠٦٦٥ آر]، "٤٦٧٠,٥٥٦ متر مربع".
- القيمة المساحية المعادلة لفانيقا المستخدمة في أوخيخار تعادل [٣٩ آر]، "٣٩٠٠ متر مربع".
- القيمة المساحية للفانيقا المستخدمة في أندراش تعادل [٣٣ آر]، "٣٣٠٠ متر مربع".
- القيمة المساحية للفانيقا المستخدمة في مدريد وما حولها: تعادل قيمتها المساحية [٤٠٠ إستدال]، المعادلة وفق أنماط القياس الحالية لما يقارب [٣٤,٢٣٨١٢ آر]، "٣٤٢٣,٨١٢١ متر مربع".

٢٠- **القفيز**: مقياس طولي، حجمي ووزني، مستخدم في تقدير مساحة الأراضي الزراعية أو تقدير كميات الحبوب.

قُدِّرت القيمة المساحية للقفيز بما يعادل [١٠٢٣,٤٤ بارة مربعة]، أي ما يعادل [٧١٥,١١٦ آر]، "٧١٥١١,٦ متر مربع"[٨٨]. في حين قُدِّرَت القيمة المساحية للقفيز طبقاً للتعريف الوارد في قاموس المنجد بما يعادل [١٤٤ ذراع][٨٩].

٢١- **الربغ "الربعية"**: وعاء خشبي مستخدم كمقياس حجمي للحبوب، أو السوائل، أو الجوامد، أو السطوح ("..ربعية قياس خشبية.." ١٥٦٨)، تقدر بربع الثلمين أو الثمن، أو ما يعادل [١,١٥٦ ل].

تطلق هذه التسمية على الكارنتاريا، التي تتسع لربع الأثومبري أو [٥,٤ سنتليتر]، في حين تقدر القيمة المساحية لربعية الأرض المستخدمة في تحديد وقياس المساحات الزراعية الصغيرة، من حدائق وبساتين، بما يعادل [٣٥ متراً مربعاً تقريباً].

٢٢- **الثمن "ثلمين"**: مقياس حجمي إسلامي مدجن، يتسع لجزء واحد من اثني عشر جزءً من الفانيقا، أربع ربعيات أو أثومبري واحد، أو ما يقارب [٢,١٦ لتر حجمي]؛ في حين قدرت القيمة المساحية للثمن المساحي لمقاطعة قشتالة، المبذور بنسبة [٤,٦٢٥ لتر حجمي] من بذار القمح والبالغة "١١,٧١٤٤ كغ"، أي ثلمين، بما يعادل [٥٣٧ متراً مربعاً].

بناءً على ما سبق ذكره وكخاتمة لبحثنا هذا، يمكن التأكيد على تباين القيم الطولية والمساحية لمختلف الوحدات الطولية والمساحية من إسلامية وغير إسلامية، وذلك طبقاً لطبيعة الأقاليم والمدن، وكذلك العادات والتقاليد الشائعة المتوارثة عن السلف، آخذين بعين الاعتبار تباين مقدرة السلطات المركزية من تنفيذية وإدارية على المراقبة والإلزام والتقييد بتنفيذ مضمون الأمور الملكية والتعليمات الناظمة، المحددة لنوعية وأطوال وحدات القياس الناظمية المتوجب اعتمادها في نظم المبايعات، التي تم إقرارها إثر حرب الاسترداد وسيطرة ملوك الأسبان على مقادير ومقدرات الحكم في معظم أنحاء شبه الجزيرة الإيبيرية؛ والرغبة الجامحة للمعتصمين منهم بالتخلص من مجمل مظاهر الحضارة العربية والإسلامية (عادات، تقاليد، فكر، ديانة، لغة، لباس، أسماء، وموازين، مقاييس...)، وتوكيد استقلاليتهم عن التبعية السياسية والاقتصادية للحضارة العربية قاطبة، من خلال إلغاء التعامل بكل ما يمتّ إليها بصلة؛ وذلك من خلال إصدار العديد من القرارات والأوامر الملكية، التي وثقتها الحوليات الإسبانية، والتي نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر الأمر الملكي الذي أصدره ألفونسو العاشر الملقب بالعارف في العام ١٢٦١م؛ القاضي بضرورة إلغاء العمل بمختلف وحدات الوزن والقياس القديمة، بعد إصداره لإصلاحاته الخاصة المتعلقة بالمقاييس والأوزان الجديدة: ("..دون ألفونسو، بفضل من الله ملك قشتالة، طليطلة، ليون، غاليثيه، إشبيلية، قرطبة والضيع المركزية في قشتالة، تحية شكر.

نتكرم ونعلن وبشكل صريح أنه ونتيجة للضرر والتشويش الذي أصاب الناس بسبب تعددية واختلاف نظم القياس، وما ينتج عن التعامل بها من ربح للبعض وخسارة للبعض الآخر. ونتيجة لتلك الأسباب ولأن سيدنا واحد، نأمر بتوحيد كافة المقاييس الوزنية في مملكتنا سواء منها المستخدم في بيع الخبز، الخمر أو المواد الأخرى..")[٩٠].

من جانب آخر، فقد كان لسقوط مملكة غرناطة، ومن ثم سيطرة ملوك الأسبان على ناصية السلطة والحكم في شبه الجزيرة الإيبيرية، وعن ثم تنامي نفوذ رجال الدين الكاثوليك المعتصمين، الأثر الكبير في توجيه الحكم، الذي أخذ بالسعي للقضاء على كل أثر مادي ثقافي يذكرهم بالفترة الإسلامية، تحت شعار إعادة وتنظيم المناطق المفتوحة إدارياً، وذلك من خلال إصدار مجموعة الأوامر الملكية والبلدية، الصادرة في العامين ١٥٠٠-١٥٠١م، القاضية بوقف العمل بمختلف القوانين والتشريعات، التعليمات والأوامر الإدارية وكذلك العادات والتقاليد الإسلامية، بما فيها نظم القياس والمساحة الإسلامية، تحت طائلة العقوبة والتغريم المالي لكل من تسول له نفسه مخالفة التعليمات الصادرة بهذا الشأن ("..يعلن في الأماكن العامة اعتباراً من تاريخ الإعلان مع منح مهلة قدرها خمسة عشر يوماً من نفس الشهر، أنه يمنع وبشكل قطعي التعامل أو القياس وبيع القمح، الشعير أو أي نوع من الحبوب بالقدح، نصف القدح أو الثمن الإسلامي..")[٩١]؛ إلا أنه وعلى الرغم من المنع والتهديد بالعقوبة، فقد توبع العمل بوحدات القياس الإسلامية التي اعتادها الأهلون، لاسيما في المناطق والقرى الجبلية "قرى جبال البخارى التابعة لمدينة غرناطة"، المعزولة عن الرقابة المباشرة للسلطات الإدارية والتنفيذية، في عواصم الأقاليم وحواضرها ومدنها.

المصادر والمراجع العربية

- ابن جبير: رحلة ابن جبير، تحقيق حسين نصر، القاهرة ١٩٥٥.
- ابن غالب: **فرحة الأنفس**، تحقيق لطفي عبد البديع، مجلة مجمع الوثائق العربية، ج١٠، ١٩٥٥.
- **القرآن الكريم**،سورة الحاقة.
- **الكتاب المقدس، العهد القديم والعهد الجديد**، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، ١٩٨٧.
- جومار: **وصف مصر "وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل"**، ترجمة فؤاد السيد، القاهرة، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- حموي ياقوت، محب الدين أبو الفضل محمد: **الرحلة، هادي الأظعان النجدية إلى الديار المصرية**، مخطوط باريس.
- حميري، ابن عبد المؤمن: **الروض المعطار في أخبار الأقطار**، القاهرة ١٩٣٧.
- السراج، محمد علي: **درر من تراث السلف**،ج٢، دمشق ١٩٨٦.
- فيروزبادي، مجد الدين محمد ابن يعقوب: **قاموس المحيط**، ط٣، ج١-٤، مصر ١٣٠١هـ.
- قاسم طوير: **تاريخ العمارة والفنون العربية الإسلامية "القيمة المترية العصرية لأنواع الذراع المستخدمة في العهود العربية الإسلامية" جامعة دمشق ١٩٨١.**
- كريزويل، ك: **الآثار الإسلامية الأولى**، دمشق ١٨٩٤.
- كورينطي، ف.: قاموس إسباني عربي، المعهد العربي الإسباني للثقافة، مدريد ١٩٧٠.

- معلوف اليسوعي، لويس: **المنجد في اللغة والأدب والعلوم**، ط١٨، بيروت.

- المقدسي، محمد بن أحمد: **أحسن التقاسيم في معرفة الأقـــاليم**، جمـــع غـــازي طليمات، دار التراث العربي، دمشق ١٩٨٠.

- المقريزي: **المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار**.

المراجع الأجنبية

-Aguado Bleye, Pedro: ***Manual Historia de Espana.*** Tom. I. Madrid 1967.

- Aric Rachel: ***Espana Musulmana*** 8. XIII-XV. ***Historia de Espana, dirigida*** por Tunon Lara. Tom. III. Barcelona 1982.

- ***Boletin Real Academia de la Historia.*** Tom. XXUII. Cuadernos. I-III. Madrid 1898.

- Carro Baroja , Julio: Los ***Moriscos del Reino de Granada,*** Insayo de Historia Social. Madrid 1957.

-Corriente, F.: ***Diccionario Espaniol- Arabe.*** Instituto Hispano Arabe de Cultura. Madrid 1970.

- ***Diccionario Basico de la Lengua.*** Madrid. 1989.

- ***Diccionario Enciclopedico*** Plaza & Janes.

-Espinar Moreno, Manuel: ***"Medidad de Peso, Capacidad y otras en en las Alpujarras segun los Libros de Habices",*** Cuadernos Gcograficos de la Universidad de Granada. Vol. XI. G 1983. Pp. 309 - 318.

-Espinar Moreno, Manuel y Martinez Ruiz Juan: ***Ugijar Segun los libros de Habices.*** Granada 1983.

-Espinar Moreno, Manuel: ***Estructura Economica de las Iglesias Alpujarrenas atraves de lod libros de Habices.*** Resumen de Tesis Doctoral de la Universidad de Granada. Granada 1983.

- Garcia Arenal Mercides: ***Los Moriscos.*** Madrid 1975.

-Garulo Munoz, Teresa: Los ***Arabismos en el Lexico Andaluz.*** Madrid 1893.

-Hemandez Gimenez, Felix: ***"El Codo en la Historia Arabe".*** Al Andalus. Vol. XXV. Granada 1960. P. 477.

- ***Longman Diccionary of contemporary Enghsh.*** Britain.

-Maillo Salgado, F.: ***Vocabulario Basico de Historia del Islam.*** Madrid 1987.

-Marquez Villegas, Luis: ***Un Lexicco de la Artesania Granadina.*** Granada 196 1.

- Marfinez Ruiz, Juan: ***Inventarios de Bienes Moriscos del Reino de Granada S.*** XVI. Linguistica y Linguistica y Civilizacion. Maddrid. 1972

- Morell Yterry, Luis: ***Efemerides Granadinas.*** Granada 1892.

-Seco de Luceona Luis: ***Documentos Arabigo Granadinos.*** Madrid 1961.

-Valderrama Matinez, Femando: ***Glossario Espanol Arabe, Arabe Espanol de terminos Economicos, Financieros y Comelrciales.*** Madrid 1986.

-Vallve Bermejo, Juaquin: ***"El codo en la Espana Musulman" Al Andalus.*** Vol. 41. Madrid- Granada 1976. PP. 309- 354.

-Vallve Bermejo, Juaquin. ***"Notas de Metrologia Hispano Arabe. Medidas de Capacidad". Al-Andalus.*** Vol. 42. Madrid - Granada 1977. PP. 61- 121.

الحواشي والهوامش

1- Carro Baroja, J: ***Los Moriscos del Reino de Granada,***, Insayo de Historian Social. Madrid 1957. P152; Garcia Arenal, M.: ***Los Moriscos***. Madrid 1975. P.47-48.

2- Morell Yterry,L.: ***Efemerides Granadianas.*** Granada 1892. P.6.

3- ***Dicc. Basica Anaya de la Lengua***. Espana. Madrid 1989. P. 209.

٤- بولغادا = بوصة: حددت قيمتها الحالية وفق النظام الإنكليزي المتري العشوي بما يعادل (٢,٤سم) طبقاً **لمعجم أنايا**، ص ٥٦٤، في حين حدد **قاموس كورينطي** قيمتها المترية العشرية بـ (٢,٥سم)، ص ٣٧٩.

٥- يطلق البعض من العامة على هذا المقياس وبشكل خاطئ اسم الإصبع.

6- ***Dicc. Basica Anaya de la Lengua*** P. 566.

٧- جومار: **وصف مصر "وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل**، ت. أيمن فؤاد السيد، ط١، القاهرة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص ٢٨٩-٢٩٣.

- هناك بعض المراجع التي تحدد قيمة الفتر بـ ١٩,٢٥ سم، الأمر الذي يعدل قيمة الذراع البلدي إلى ٥٧,٧٥سم، وهذا ما يجعله مساوياً للذراع الملكي في كاستيه.

٨- جومار: **وصف مصر**، ص ٢٩٣.

٩- عرف **معجم أنايا** القيمة الوصفية والمساحية المترية للشبر على أنه مقدار الكف المفتوح، الذي تبلغ قيمته المساحية ما يعادل ٢١سم.

١٠- معلوف اليسوعي، لويس: **المنجد في اللغة والأدب والعلوم**، ط١٨، بيروت، ص٣٤.

- **Diccionario Enciclopedico Plaza & Janes.** Barcelona 1976.

١١- **سفر التكوين**، الإصحاح السادس ١٣-١٦.

١٢- **سفر الخروج**، الإصحاح الخامس والعشرون ٢٣.

١٣- **القرآن الكريم**، سورة الحاقة، آية ٣٠-٣٢.

١٤- كريزويل، ك: **الآثار الإسلامية الأولى**، دمشق ١٨٩٤، ص ١٣.

١٥- المقدسي، محمد بن أحمد: **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، جمع غازي طليمات، دار التراث العربي، دمشق ١٩٨٠، ص ٩٨-٩٩.

١٦- يجدر التنويه إلى أنه وعلى الرغم من شيوع استخدام نظام القياس المتري العشري، لا زال بعض تجار الأقمشة والمنسوجات في وقتنا الراهن، يعتمدون نظام التكييل بواسطة ذراع اليد في عملية بيعهم وتسويقهم للمنسوجات والأقمشة.

17- Marquez Villegas, L.: ***Un Lexico de la Artesania Granadina***. Granada 1961. PP 63, 74.

- Maillo Salgado, F.: ***Vocabulario Basico de Historia del Islam.*** Madrid 1987. P. 28.
- Valderrama Martinez, F.: ***Glossario Espanol Arabe, Arabe Espanol de terminos Economicos, Financieros y Comerciales.*** Madrid 1986. P. 18.
- Aguado Baleye, P. ***Manual Historia de Espana*. P. 925.**

١٨- السراج، محمد علي: **درر من تراث السلف،ج٢**، دمشق ، ص ١٧٨-١٨٨.

١٩- المقريزي: **الخطط** ، ج٢، ص٦٣، (ينقل عن رواية لأبي سلف الحميري الذي حضر الصلاة الجامعة في مسجد عمرو بن العاص الذي كان قد شيده في فسطاط مصر في العام ٢١ هـ/ ٦٤١م).

يجدر بنا التنويه إلى الخطأ الكتابي الوارد في بحث الأستاذ قاسم طوير: **تاريخ العمارة والفنون العربية والإسلامية "القديمة المترية العصرية لأنواع الذراع**

المستخدمة في العهود العربية الإسلامية: جامعة دمشق ١٩٨١، ص٩٩، الذي حدد فيه القيمة المترية الموازية لذراع العمل، بما يوازي قيمة الذراع الهاشمية الكبرى وهي ٦٦,٥سم، كما ذكر نقلاً عن المقريزي خطأً أن مساحة جامع عمرو بن العاص هي ٢٨٠٠٠ذراع عمل، وفي خال تقسيم عدد الأذرع على القيمة المساحية بالسنتمتر، تكون قيمة ذراع العمل حسب ذلك الرأي معادلة لـ ٥٦,٧٩٥١٣ سم.

٢٠- تتقارب القيمة المترية لذراع العمارة مع القيمة المترية لذراع الحديد المقدرة بـ ٥٨,١٨٧سم، التي شاع استخدامها في الإقليمين المصري والحجازي (القرن الخامس عشر الميلادي) وحصرت مهمتها في تكييل الأقمشة فقط.

٢١- وحدة قياس طول إسلامية تعادل طول ١٦ إصبع أو ١٢ بوصة = ٢٧,٩٣٤٨٧٢٥سم، في حين تقدر القيمة الطولية الحالية للقدم الإنكليزية بما يعادل ٣٠,٤٨سم.

٢٢- وحدة قياس طول ومساحة إسبانية (قصبة عصا) تقدر قيمتها الحالية بـ ٨٣,٥سم.

٢٣- أبو الطاهر محمد بن عبد العزيز بن يوسف المرادي الشهير بابن الجياب، قام بتأليف كتاب المساحة في العام ٧٦٧هـ/١٣٦٥م.

٢٤- الحميري، ابن عبد المؤمن: **الروض المعطار**، القاهرة ١٩٣٧، ص١٨٠.

٢٥- أكدت أعمال التنقيب الأثري الحديث تواجد الديناصورات في شبه الجزيرة الإيبيرية الأمر الذي يمكننا من نسبة ذلك الهيكل العظمي الذي تم العثور عليه في جوار مدينة مدريد إلى أحد الديناصورات التي كانت تعيش في شبه الجزيرة الإيبيرية في عصور ما قبل التاريخ.

٢٦- اشتهرت هذه الذراع بأسماء متعددة كالمأمونية، السوداء والنيل ويعود السبب في

تباين تسمياتها نسبة إلى الخليفة العباسي المأمون "الذراع المأمونية" الذي ابتدعها وحدد طولها اعتماداً على طول ذراع عبدة سوداء "الذراع السوداء" كان يمتلكها، وحدد وظيفة هذه الذراع لقياس مستوى الزيادة في نهر النيل "ذراع النيل".

٢٧- الخليفة العباسي المأمون: تولى الخلافة من العام ١٩٨هـ/٨١٣م-٢١٨هـ/٨٣٣م.

٢٨- طبقاً للقيمة الطولية للإصبع الإسلامي المقدرة بـ ١,٧٤٥٩٢٩٥سم، فإن طول الذراع المأمونية أو السوداء المقدرة بـ ٢٧ إصبعاً تعادل وفق النظام المتري الحالي ما مقداره ٤٧,١٤٠١٠٩سم.

٢٩ المقدسي: **أحسن التقاسيم**، ص١٩٠.

٣٠- Hernandez Gimenez, F.: ***El Codo en la Historia Arabe". Al Andalus.*** Vol. XXV. Granada 1960. P. 77.

- تمكننا ومن خلال تحديد الطول المتري الموازي لمقياس النيل ومقارنته مع الوثائق الكتابية القديمة التي حددت طوله بسبع وعشرين إصبعاً، من تحديد القيمة الطولية الحقيقية للإصبع الإسلامي، الذي سهل بنا عملية إجراء المقارنات الحسابية اعتماداً على المخطوطات والوثائق الكتابية الوصفية الإسلامية، وتحديد القيم الطولية الحقيقية للعديد من الوحدات الطولية التي شاع تداولها في العالم الإسلامي.

٣١- ابن غالب: **فرحة الأنفس**، تحقيق لطفي عبد البديع، مجلة مجمع الوثائق العربية، ج١٠، ١٩٥٥، ص ٣٠٠.

٣٢- يذكر ابن الجياب (..إن طول الذراع الرشاشي يعادل ستة أخماس ذراع اليد..).

٣٣- تعادل الذراع الرشاشية طبقاً لوحدات القياس الإسلامية ما مقداره ثمان قبضات أو اثنان وثلاثون إصبعاً.

٣٤- تقدر قيمة الشبر الكبير بما يعادل ٢٠,٩٥١١٤٥سم، وذلك على العكس من الشبر الصغير والذي يقصد به القبضة المقدرة بما يعادل ٦,٩٨٣٧٢٠٢سم.

٣٥- وحدة قياس طولية تقدر قيمتها بطول عقلة الإصبع المقدرة وفق النظام المتري الحالي بما يعادل ٢,٣٢٧٩٠٦سم.

٣٦- عُدِّل اسم هذه الذراع إثر تراجع النفوذ الإسلامي عن شبه الجزيرة الإيبيرية من الذراع الإسلامية المتوسطة إلى ذراع اليبيرا دون إحداث أي تعديل على قيمتها الطولية.

٣٧- يشير الأستاذ قاسم طوير نقلاً عن فنتز، إلى وجود نوعين من الذراع الهاشمية، الذراع الكبرى = ٣٢ إصبعاً أو ثمان أشبار صغار؛ (= ٦٦,٥سم؛ والصغرى ٦٠,٥٥سم...!؟). **تاريخ العمارة والفنون العربية الإسلامية**، ص ٩٩.

- تجدر الإشارة إلى أن القيمة الطولية التي أوردها الأستاذ طوير نقلاً عن فنتز، لا يمكن لها أن تصبح في حال الاعتماد على حساب قيمة الإصبع المترية (عرض الإصبع) البالغة ١,٧٤٥٩٢٩٥سم، وإنما تصح في حال اعتماد حساب طول عقلة الإصبع، البالغة [٣٢×٢,٠٧٥٢٩١٦=٦٦,٤٠٩٣٣١سم]، أو حسابها على أساس الشبر القائم على أساس حساب طول عقلة الإصبع، والبالغ [٨×٨,٣٠١١٦٦٤=٦٦,٤٠٩٣٣١سم].

38- Martinz Ruiz, J.: ***Inventarios de Bienes Moriscos del Reino de Granada S.*** XVI. Liguistica y Civilizacion. Madrid 1972. P 91.

٣٩- تنسب تسمية هذه الذراع إلى مدينة وادي آش Guadix في إقليم الأندلس.

40- Vallve Bermejo, J.: ***"El Codo en la Espana Musulmana" Al-Andalus.*** Vol 41 Madid 1986. P. 344.

تقدر قيمة البوصة الإسبانية التي درج استخدامها في مملكة قشـتالة بما # ٢,٣٢١٩٥٨٣سم.

٤١- الحميري، ابن عبد المؤمن: **الروض المعطار**، القاهرة ١٩٣٧، ص١٦٤.

٤٢- تقع مملكة قشتالة إلى الشمال من إسبانية، وإليها تنسب البوصة القشتالية، المقدرة بـــ ٢,٣٢١٩٥٨٣سم.

٤٣- صدر الأمر الملكي في مدينة الأسكوريال بتاريخ ٢٠ تموز من العـــام ١٥٩٠م، إثر قدوم فيليب الثاني ملك كاستيه إلى مدينة الأسكوريال للمشاركة في احتفـــالات وأعياد القديس سان لورنسو.

٤٤- يشير Joaquin Permejo في مقالة (***El Codo en la Espana Musulmana***) المنشور في **مجلة الأندلس** العدد ٤١، مدريد-غرناطـــة ١٩٧٦م، ص٣٤٧، (أن القيمة المترية للذراع الملكي في قشتالة تعادل ٥٧,٤سم، معتمداً في حسابه علـــى قيمة الإصبع الإهباني التي قدرها بـــ ١,٧٣٩٣٩٣٩سم).

٤٥- ذراع الدور أو الذراع الفضية: وهي الذراع التي قام بوضعها قاض الكوفة أبـــو ليلى المتوفى سنة ٧٦٥هـــ/١٣٦٣م، وحدد وظيفتها لقيـــاس مســـاحة المنشـــآت المعمارية.

- وقع العديد من المحلّلين للقيم المترية في إشكال تحديد قيمة الإصبع، حيث اعتـــبره البعض مقدار القيمة الطولية لعقلة الإصبع [٢,٣٢٧٩٠٦سم = #بوصة]، وليســـت قيمة عرض الإصبع البالغة [١,٧٤٥٥٩٢٩٥سم]، الأمر الذي أدى إلى حـــــدوث العديد من التباينات الرقمية، مثال ذلك تحديد الأستاذ طوير قيمة الذراع الفضيـــة وذراع الدور بما يقارب ٥٠,٣ سم، معتمداً في حساباته على القيمة المترية لعقلـــة الإصبع.

٤٦- كل ٦٠ ذراع هاشمية،إسلامية متوسطة أو رشاشية (٥٥,٨٦٩٧٤٤سم)، تعـــادل

٨٠ ذراع قائمة، مرسلة، ذراع اليد، ذراع العامة، الذراع القديمة أو الذراع الهندسية (٤١,٩٠٢٣٠٥سم).

٤٧- المقدسي: **أحسن التقاسيم** ص١٩٤.

٤٨- جومار: **وصف مصر**، ص٢٩٣.

٤٩-جومار: **وصف مصر**، ص٢٩٣.

٥٠- طوير، نقلاً عن الرحالة الإنكليزي لين، ص٩٩.

- ***Longman Dictionary of Contemporary English***, Britain. P. 1296.

- الإنش: وحدة قياس إنكليزية تعادل ٢,٥٤٠سم.

٥١- عدلت القيمة الطولية للذراع الهندسية المصرية إلى ٥٦,٦سم.

٥٢- جومار: **وصف مصر**، ص٢٩٣.

٥٣- شاع استخدام هذه الوحدة القياسية بين عمال البناء المصريين، الذين استخدموها في تحديد المساحات وأطوال السطوح أثناء عملية التشييد المعماري.

٥٤- **المنجد**، ص٥٤.

٥٥- الفيروزبادي: **قاموس المحيط**، ص٢٦٤.

56- Espinar Moreno, M.: ***"Medidas de peso y Capacidad y otros en las Alpujarra Segun los libros de Habices". Cuadernos Geograficos de la Universidad de Granada.*** Vol XI. Granada 1993: PP. 310-311.

- Vallve Permejo, J.: ***"Notas de Metrologia Hispano Arabe, II Medidas de Capacidad". R. Al-Andalus.*** Vol 42. Madrid – Granada 1977. PP/11-12.

- Idem: ***"Notas de Metrologia Hspano Arabe, El Codo en la Espana Musulmana". AL-Andalus.*** Vol. 41. Madrid-Granada. P. 1.

- ***Boletin Real Academia de la Historia***. Tom. XXXIII. Cuadernos I-III Madrid 1898. P. 241.

٥٧- جومار: **وصف مصر**، ص٧٣،١٦٥، (حدّد جومار في كتابه وصف مصر القيمة الطولية للقيم المستخدمة في مصر بما يعادل ٣٣,٣٣٣٣سم، معتبراً أن كل ٨٠٠م = ٢٤٠٠قدم.

٥٨- ابن جبير (١١٤٥-١٢١٧م): رحالة عربي ولد في بلنسية "الأندلس" وتوفي في الاسكندرية؛ درس الفقه والحديث في شاطبة؛ شرب الخمر صدفة فحج تكفيراً؛ زار الاسكندرية، القاهرة، مكة، المدينة، الكوفة، الموصل، حلب، دمشق، عكا وصقلية، عائداً إلى غرناطة عن طريق قرطاجنة، وصف رحلاته الثلاث في كتاب ذي شأن وقيمة يعرف **برحلة ابن جبير**، طبع لأول مرة في ليدن (١٨٥٢) وترجمت أقسام منه إلى الفرنسية (١٨٤٦) والإيطالية (١٨٩٦).

٥٩- ابن بطوطة (١٦٠٤-١٣٧٨م): ولد في طنجة؛ رحالة طاف في مختلف العالم المعروف، استغرقت رحلاته الثلاث زهاء ٢٩ سنة، زار خلالها مصر والشام وفلسطين والحجاز والعراق وبلاد العجم وجنوبي بلاد العرب وإفريقية الشرقية وبلاد آسية الصغرى والقرم والقسطنطينية وبلاد خوارزم وما وراء فولغا وبخارى وأفغانستان والهند والصين وبنغال والهند، ثم رجع إلى بلاد العرب عن طريق جزيرة سومطرة وعاد إلى المغرب ثم إلى غرناطة، وقاد رحلته الثالثة إلى بلاد الزنج. وابن بطوطة دقيق الملاحظة، فكه الأسلوب، أمين الوصف والرواية، له كتاب "**تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، **المعروفة برحلة ابن بطوطة**، ترجمت إلى الفرنسية، الإنكليزية والألمانية.

٦٠- محب الدين أبو الفضل محمد (١٥٤٢-١٦٠٨م): ولد في حماة، قاضي قضاة ومفتي دمشق، له كتاب"**الرحلة**" أو "**هادي الأظعان النجدية إلى الديار المصرية**" مخطوط في باريس.

٦١- أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي: (٣٣٥-٣٩٠هـ/٩٤٧-١٠٠٠م): من جغرافيي العرب المشهورين، زار أكثر بلاد الإسلام، له كتاب "**أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**" ، نقله الأوروبيين إلى لغاتهم.

62- Vallve Bermejo, J.: "***El Codo en la Espana Musulmana***". P. 343.

٦٣- ابن جبير: **رحلة ابن جبير**، تحقيق حسين نصر، القاهرة ١٩٥٥، ص٥٦،٨١،٢٥١.

٦٤- قدر طول الخطوة طبقاً **لقاموس المنجد في اللغة والأدب والعلوم**، بما يعادل ستة أقدام [# ١٦٧,٦٠٩٢٣سم]، ويقصد بذلك طول خطوة الجمل اعتماداً على طول القدم الإسبانية المقدرة بـ [٢٧,٩٣٤٨٧٢سم]، أما في حال اعتماد طول القدم الإنكليزية المقدرة بـ [٣٠,٤٨سم]، فيكون طول الخطوة هو [١٨٢,٨٨سم].

٦٥- قدرت القيمة المترية العشرية للخطوة الإسبانية وفقاً لتقدير **معجم أنايا اللغوي**، ص٥١١، ب، [١٣٩٣ملم].

66- ***Dicc Real Academia de la Lengua Espanola***. P. 1123.

- ***Dicc. Enciclopedioco Plaza & Janes.***

67-***Dicc. Basico de la Lengua***. P/ 688.

- **معجم كورينطي**، ص ٤٦٢، (البارة: قضيب قياس بطول ٨٣٥ملم).

٦٨- **المنجد**، ص ٩٣٢، "القصبة نبات مائي من فصيلة النجيليات، يقارب طول النوع الكبير منه الأربعة أمتار..".

69-Arie, "***Espana Musulmana***". P/ 239.

- Espinar Moreno, M.: Y Martinez Ruiz,, J.: "***Ugijar Segun los Libros de Habices***". P. 84.

70-Vallve Bermejo,J. : "***El codo en la Espana Musulmana***". PP. 346,347.

٧١- يشير Bermejo في مؤلفه الســابق ص ٦٥١، أن قيمــة القصبــة الطوليــة المستخدمة في مقاطعة ليريده هي ١٥٥,٦سم، والمستخدمة في مدينة برشــلونة هي ١٥٥,٥سم.

٧٢- **المنجد**، ص ٧٨٢.

٧٣- **معجم أنايا اللغوي**، ***Dicc. Basico Anaya de la Lengua***, Pg. 453

٧٤- حددت القيمة المترية العشرية للميل البري الإنكلــيزي بمــا يعــادل ١٦٠٩م، والميل البحري بـــ ١٨٥٢م.

٧٥- المقدسي، محمد بن أحمد: **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم** ، المختــار مــن التراث العربي، دمشق ١٩٨٠، ص٩١.

٧٦- الفيروزبادي: **قاموس المحيط**، ص ٢٦٤.

٧٧- المقدسي، محمد بن أحمد: **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ص ٢٦٥.

٧٨- **المنجد**، ص٣٣- **أحسن التقاسيم**، ص٢٦٥.

79- Martinea Ruinz, J.: ***Inventarios de Bienes Moriscos.*** P. 182.

80- Vallve Bermejo,J.: ***"El codo en la Espana Musulmana"***. P. 354.

81- ***Dicc Real Academia de la Lengua Espanola.*** P. 1237.

- وحدة قياس مساحة تعادل ١٠٠ متر مربع.

82-Seco de Lucena, L.: ***Documentos Arabigo Granadinos.*** Madrid. 1961. P. 51-52 (عقد بيع)

83-Vallve Bermejo,J.: ***"Medidad de Capacidad"***. P. 37.

- Vallve Bermejo,J. ***"El Codo en la Espana Musulmana.."*** P. 356.

٨٤-قصبة إسبانية: تسمية إسبانية مدجنة، أطلقها سكان الأندلس من المسلمين الذيــن قبعوا تحت سيطرة حكام إسبانية من الكاثوليك إثر حروب الاسترداد، القــرارات

الملكية القاضية بمنع استخدام كل ما هو عربي أو إسلامي، بما في ذلك وحدات القياس، التي عدلت في مقاساتها وتسمياتها، بحيث أطلق على قصبة القياس الإسلامية، اسم الإستدال؛ والذي تباينت قيمتها الطولية من إقليم إلى آخر ومن فترة إلى أخرى، بحيث حُدّدت قيمتها الطولية خلال الفترة الإسلامية، بما يعادل ستة أذرع رشاشية، استدال إشبيلي، ١٦ شبراً، ١٢ قدماً، أي ما يعادل ٣٣٥,٢١٨٣٢سم، وذلك على النقيض من القصبة الإسبانية، المعادلة لأحد عشر شبراً، أو أربعة أذرع من ذراع قشتالة الملكية، المعادلة وفق نظام القياس العشري ما مقداره (٢٣٠,٤٦٢٥٩سم).

- في حين قدر البعض القيمة الطولية للإستدال بما يعادل أربعة أذرع كبيرة، ١٤ شبراً أو عشرة أقدام ونصف المقدم، المعادلة وفقاً لنظام القياس العشري المتري الحالي ٢٩٣,٣١٦١٦سم=(٢,٩٣٣١٦١٥متر)، في حين تبلغ القيمة المساحية للإستدال المربع وفق القيم المترية الحالية ما مقداره ٨,٦٠٣٤٣٦٣ متر مربع.

85-Garulo Munoz, T.: ***Los Arabismoa en el Lexico Andalus.*** P. 43.

- Espinnar Moreno, M.: ***Estructura Economica de las Iglesias Alpujarrenas.*** P. 18.

86- Martiez Ruiz, J.: ***Inventarios de Bienes Moriscos*** P. 110.

87-Espinar Moreno, M.: ***"Medidas de Peso, Capacidad y otros*** P. 311.

- ***Dicc. Basico Anaya de la Lengua.***. P 310.
- ***Dicc. Corriente***. P. 213.
- ***Dicc. Enciclopedico Plaza & Janes.***

88-Espinar Moreno, M.: ***"Medidas de Peso.*** P. 311.

٨٩- هذا يعني أن قيمة الذراع المستخدمة تقدر بـ ١٨٥ سم طبقاً للحسابات السابقة، ونظراً لعدم وجود أي نوع من الأذرع الإسلامية أو الإسبانية بهذه القيمة المترية، لذلك أرجح أن المقصود هو ١٤٤ باع.

90-Vallve Bermejo, J.: ***"Notas de Metrologia Hispano Arabe II. Medidas de Capacidad".*** ***Al-Andalus***. Vol. XIIL. Madrid 1877. P. 64.

91-Espinnar Moreno, M.: ***Medidas de Peso Capacidad en las Alpujarras.."*** P. 309.

ابن خلدون
التاريخ والمنهج ومغالط المؤرخين

الدكتورة منيرة أحمد
قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية
جامعة دمشق

ابن خلدون (التاريخ والمنهج ومغالط المؤرخين)

جادت عبقرية ابن خلدون (٧٣٢-٨٠٨ هـ، ١٣٢٢-١٤٠٦هـ) بما أثرى الفكر العربي وزاد تراثه غنى وتعدداً وازدهارا، وبما جعل لفلسفته هو أيضاً ضمن النسق الفكري العام لذلك التراث خصوصيتها وتفردها، في مرحلةٍ كانت فيها الحضارة العربية -جراء ما توالى على البلاد من محن وويلات منذ حروب الفرنجة - تعيش حالة ركود وجمود، طبع الحياة العربية بمجملها تقريباً بطابع السكون واللافاعلية، بسبب غياب حركة الفعل الحضاري العربي الجامع لثمار الوعي والطبيعة والمجتمع. والذي عبّر عن نفسه (بذلك التناغم الرائع بين الوجود الميتافيزيقي والكون المادي، الطبيعي والجغرافي واللغة العربية والوعي الإنساني الذي شعّ على البشرية شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، والذي حالت حالة الانهيار العام من استمراره)[١].

ضمن حالة الانحطاط والتراجع التي كانت تعيشها البلاد والحضارة العربية في تلك المرحلة، كمنت أهمية نظرية ابن خلدون المنهجية للتاريخ. ومن بعد نظرته، وسعة معارفه، وعمق تحليلاته، ودقة استنتاجاته في بحثه لشؤونه، اكتسبت آراؤه في مجمل ذلك خصوصيتها وعمقها وتفردها. وكانت لخطوات سيره في معالجة ذلك -أو بالأصح لمنهجه- علميتها وموضوعيتها وتاريخيتها وجدة سماتها التي لم يسبق لخطوات مؤرخ قبله -أو عاصره- أن اتسمت بها.

فبتخط -لا إهمال منه لإشكالية الفلسفة العربية في عصره،[٢]- مسألة التوفيق بين الشريعةَ والحكمة وبمقتضى رؤية، أو تصور معرفي جديد مختلف تماماً لما كان مألوفاً، نظر ابن خلدون في موضوع التاريخ وطبيعته ومفهومه. وعلى هدى خطوات منهج وأسلوب مغايرين تماماً لخطى ومنهج المؤرخين والباحثين كافة، عالج مختلف شؤونه، وتوقف عند جميع أحداثه وأموره، وبحث في منشأ الأخطاء فيه، وفي كيفية تجنب المؤرخين والباحثين مغبة الوقوع فيها. ومن أحداث التاريخ العربي استقى

أمثلته (مع إلماع لأخبار من عاصرهم من الأمم المشاهير ودولهم مثل النبط والسريانيين والفرس وبني إسرائيل والقبط والروم والترك والإفرنجة)[٣]. فجعل من مقدمته التي تضمنت جلّ أفكاره وآرائه في ذلك (درساً للعقل في العقل وعبراً للتاريخ من التاريخ وخطاباً من الماضي إلى المستقبل)[٤]. و(مذهباً جديداً في تحليل التاريخ وفهمه، تحليل الظواهر الاجتماعية وفهمها)[٥].

وقد تطلب منه العمل بمقتضى رؤيته المنهجية الجديدة للتاريخ ضرورة النظر في البحث في جانبين له، لا ينفصل أحدهما عن الآخر، بل يؤدي كل منهما إلى الآخر بالضرورة، ويقتضيه. في الوجه الأول لتلك الرؤية نقد ابن خلدون الطرق والأساليب التي اتبعها المؤرخون في رؤيتهم للتاريخ وكيفية تعاملهم مع أحداثه وأخباره ووقائعه في تعاقبها وتزاحمها. وفي الوجه الآخر لتلك الرؤية، عمل على كشف أبرز مواطن منشأ الخطأ في التاريخ وأهم دواعيها، وبحث في أفضل الطرق والمسالك التي تعصم المؤرخ من زلّة القدم، والوقوع في الغلط والحيد عن جادة الصدق والصواب، وتخلّص التاريخ مما قد يلحقه من الأخطاء والتهويلات والأخبار الكاذبة والروايات غير الصحيحة، وذلك عن رغبة منه في أن يخرج عن إطار رؤى المؤرخين، وسننهم وشرائعهم، ومسالكهم في نظرتهم لموضوع التاريخ، وسبل وقوفهم عند أحداثه، وبحثهم في شؤونه ووقائعه، محاولاً من جهة أولى (تجريد القوانين العامة التي تحكم سير وقائع التاريخ)[٦]، والتي يمكن تعميمها على عصور وأحوال مشابهة أخرى، ولدى شعوب ومجتمعات وأمم أخرى غير المجتمع والعالم العربي ومستهدفة من جهة أخرى: (الوصول إلى قواعد ثابتة للتمييز بين الخطأ والصواب في الأخبار، والوقوف على آلة تساعد في معرفة الحوادث بدقة وضبط)[٧]، لكي لا تختلط في أذهان الناس الحقائق الصادقة مع الأمور الملفقة الزائفة، ولكي تعطي قراءة التاريخ بالمحصلة صورة صادقة لحياة الشعوب والأمم والدول وأحوالها في مختلف الآفاق والممالك، وعبر مختلف العصور والأجيال.

الوجه الأول: نقد ابن خلدون لطرق المؤرخين وأساليبهم في نظرتهم للتاريخ:

رفض ابن خلدون أولاً الآراء التقليدية المألوفة آنذاك عن التاريخ. ولم يقنع ثانياً بالكيفية التي على نحوها كان المؤرخون والباحثون ينظرون إلى أحداث التاريخ، وبالأسلوب الذي على هدى خطواته كانوا يدوّنون وقائعه، ويسجلون أخباره، لأن المؤرخين في هذه وتلك، لم يتعاملوا مع التاريخ في موضوعه، ومفهومه، وفي طرق وسبل الوقوف عند أحداثه والكشف عن أسبابها ودواعيها وغاياتها ومراميها بالأسلوب السليم والمنهج الصحيح، الذي يجعل النظر في الواقعة التاريخية موضوع الاهتمام، أو في غيرها مما احتوته أسفار التاريخ، وانطوت عليه صفحات مجلداته من ذكر لأقوال وأخبار، وأحوال، وكيفيات وقائع وأحداث، صورة حقيقية لأوضاع مجتمعات وأحوال ممالك ودول وشخصيات قامت وعاشت ذلك فعلاً.

وقد تبدت آراؤه في مجمل ذلك تحت أوجه رئيسية أربع، تُجسّد وقفة ابن خلدون عندها –في جوهرها– وبحثه في مختلف شؤونها أبرز نقاط، أو جوانب اختلاف رؤيته المنهجية الجديدة للتاريخ، مع ما كان المؤرخون المتقدم منهم والمعاصر له قد اعتادوا على الأخذ به في نظرتهم للتاريخ وفي سبل تعاملهم مع أحداثه، وهي:

١- في النظرة للتاريخ.

٢- في سبل التعامل مع أحداث التاريخ وكيفية قراءتها –المنهج–.

٣- لمن يكتب التاريخ.

٤- في طبيعة دراسة التاريخ ومجالها.

١- في النظرة للتاريخ:

رفض ابن خلدون الأخذ بالرؤية التقليدية المألوفة التي تنظر إلى التاريخ بوصفه جعبة أخبار وموضوع أحاديث وحكايات تنحو في أخباره الأقوال، وتنهل من أحداثه أخبار

وسير وراويات ترمي إلى الإمتاع والمؤانسة، أو إثارة كوامن النفس ومشاعرها بذكر التهويلات والمبالغات وأخبار المعارك والحروب والبطولات[٨]، وسرد سير الملوك وما يجري في مجالسهم، وذكر ما توالى من الملوك والممالك والدول. وما كان منها ذو قوة ومجد وصولجان في الأزمنة الغابرة والأيام،لأن تلك النظرة قاصرة غير صحيحة، ولا ترمي الحقيقة أبداً، ولا تفيد بشيء منها في الكشف عنها، أو تبيان الأسباب الحقيقية القائمة خلف ذلك.

ورأى أن الرؤية المنهجية الصحيحة ينبغي بالضرورة أن تنظر إلى التاريخ بوصفه فرعاً من فروع المعرفة البشرية، لا بوصفه منهلاً للقصص والروايات والسير والحكايات، وأن الوقفة الصحيحة البعيدة الرؤى عند مجريات أحداثه وكيفيات سير وقائعه وغاياتها، وطبائع أخباره ومراميها ينبغي بالضرورة أن تؤكد حقيقة أن أحداث التاريخ يجب أن تدرّس للعبرة والعظة والعلم والمعرفة[٩] لا بمجرد التسلية وسماع أخبار وقصص وحكايات لا قيمة تجدي من سماعها، أو تتبع تفاصيل سير وأقوال لا فائدة تذكر من السعي للإلمام بخيوطها. لأن طبيعة النظرة هنا ترمي في جوهرها وغايتها العلم والفائدة والمنفعة. حسب ما يؤكد ابن خلدون في قوله:

"أعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب، جمّ الفوائد شريف الغاية إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم والأنبياء في سيرهم، والملوك، في دولهم وسياستهم. حتى تتم فائدة الإقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا..."[١٠].

٢- في سبل التعامل مع أحداث التاريخ وكيفية قراءتها «المنهج»:

وقف المؤرخون –حسب ابن خلدون– عند أحداث التاريخ ووقائعه –إلا في القليل من بحوثهم– دون تحقيق ولا تدقيق، دون فحص ولا تمحيص، ومن غير أن يعملوا النظر الناقد فيها. بل (أدوها إلينا –حسب ما يذهب إلى قوله– كما سمعوها، ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها ولا رفضوا ترهات الأحاديث ولا

دفعوها، فالتحقيق قليل. وطرق التنقيح في الغالب كليل، والغلط والوهم نسيب للأخبار وخليل...)[١١].

وقد تعاملوا مع التاريخ بوصفه لوناً من ألوان الأدب، ونظروا إليه نظرتهم إلى ديوان أخبار وسجل أحداث ووقائع تدون لا صلات تربطها، ولا علاقات تقوم بينها. فكتب هؤلاء (في أخبار الأيام والدول والأجيال ودونوا وجمعوا الأحداث وسطروها في صفحات الدفاتر وأودعوا، واقتضى بعضهم سنن البعض وشرائعهم في التصنيف والتأريخ واتبعوا، فأخذ الخلف من السلف تقليداً ومحاكاة لا تمحيصاً ونظراً وتدقيقاً، وخلفها المتطفلون بدسائس الباطل وزخارف من الروايات الملفقة الموضوعة)[١٢].

ولعب الخيال عند بعضهم دوراً كبيراً، فأسهب كثيراً منهم في الكلام والوصف وتتبع تفاصيل هي من الموضوع في الهامش، لا بل لا أثر فعال لها في الموضوع يذكر، فكانوا (يذكرون التافه من الحوادث حيناً ويتغافلون عن ذكر المهم في أحيان أخرى كثيرة)[١٣].

وجاء آخرون منهم من (أعدل عن الإطلاق إلى التقييد، ووقف في العموم والإحاطة عن الشأو البعيد، فقيّد شوارد عصره واستوعب أخبار أفقه وقطره، واقتصر على أحاديث دولته ومصره...)[١٤].

ودوّن بعض المؤرخين وصنّف (بإفراط في الاختصار وذهبوا إلى الاكتفاء بأسماء الملوك والاقتصار، مقطوعة عن الأنساب والأخبار، موضوعة عليها أعداد أيامهم بحروف الغبّار*...)[١٥].

والمؤرخون الذين أسهبوا في تتبع الخبر، ومن تقيد منهم بالاهتمام بأخبار جانب أو دولة والمختصر منهم في النظر في ذلك أيضاً، المجتهد منهم والمقلد، لم يقفوا –حسب

* حروف الغبار: الأعداد الهندية من ١–٩ مكتوبة بالأشكال التي تُكتب بها في المغرب.

ابن خلدون- عند أحداث التاريخ بالشكل الصحيح، ولم يتعاملوا مع وقائعه وأخباره بالأسلوب أو المنهج السليم. فقد جمعوا الأخبار وسطروها في بطون كتبهم ومؤلفاتهم، ونظروا فيها لسبب ما أو لآخر، دون الوقوف عند الشروط الضرورية والأسباب التي اقتضت قيامها ونشأتها، ودون الإحاطة بمراميها وغاياتها، ومعرفة العلاقات القائمة بينها، وما يلزم من ذلك بالضرورة ويلازمه في مختلف أحوال وشؤون العمران البشري الذي نشأت فيه. فزلّت أقدامهم وحادوا عن جادة الصواب، فكانوا على سبيل المثال (إذا تعرضوا لذكر الدولة نسقوا أخبارها نسقاً، محافظين على نقلها وهماً أو صدقاً، لا يتعرضون لبدايتها، ولا يذكرون السبب الذي رفع من رايتها، وأظهر من آيتها، ولا علة الوقوف عند غايتها، فيبقى الناظر متطلعاً بعد إلى الافتقاد أحوال ومبادئ الدول ومراتبها مفتشاً عن أسباب تزاحمها، باحثاً عن المقنع في تباينها أو تناسبها)[١٦].

لمجمل ذلك رأى ابن خلدون أن من مقتضى المنهج السليم الخطوات أن يسير البحث هنا على وقع خطى ومبادئ، وسبل، ومسالك مغايرة لما هو مألوف لدى المؤرخين المتقدم منهم والمعاصر له. سبل ومسالك فكرية جديدة تتعامل مع التاريخ بكونه حقاً علماً من العلوم الإنسانية[١٧]، علماً له كغيره من العلوم الأخرى مواضيعه وأصوله وقواعده ومبادؤه، وله طرائقه وأساليبه ومناهجه في معالجة ذلك[١٨]. والوقوف عند مسائله.

والحق لقد كان ابن خلدون واعياً كل الوعي ومدركاً تمام الإدراك بأن الانتقال بالتاريخ ولأول مرة -على نحو ما يؤكد بقوله: "اعلم أن الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة، عزيز النزعة، وكأنه علم مستنبط النشأة، ولعمري لم أقف على الكلام في منحاه لأحد من الخليقة..."[١٩]- من مستوى السرد الإخباري القصصي، الذي لا يتقيد بالدقة والموضوعية، والعلمية، إلى مستوى العلم الذي يقوم على النظر في العلل والمعلولات، والتحقيق والتبصر في الأسباب والمسببات حيث (العلم الحق هو العلم

بالأسباب)[٢٠]. لا يكفي فيه مجرد النظر في ما هو قائم وتفنيده، أو مجرد الدعوة لتجاوز ذلك، بل لا بد من تأسيس هذه النقلة المعرفية الكبرى على أسس وتصورات ومفاهيم ورؤى فكرية جديدة، تدرس الظواهر وتقف عند الأحداث وتتعقب سيرها في مختلف مراحل قيامها، وتقف عند مختلف الصلات والروابط القائمة بينها وبين غيرها من الأحداث والجوانب الأخرى، تشرح وتحلل، وتفسر وتعلل.

وذلك ما دفع ابن خلدون نفسه لأن يحدد مسبقاً وبشكل واضح وصريح في مقدمته الفلسفية التاريخية الخطوط العريضة التي تقوم بالاعتماد عليها رؤيته المنهجية الجديدة للتاريخ. وفي ذلك يقول:

"ولما طالعت كتب القوم، وسبرت غور الأمس واليوم، نبّهت عين القريحة من سنة الغفلة والنوم، وسمت التصنيف من نفسي، وأنا المفلس أحس السوّم، فأنشأت في التاريخ كتاباً، رفعت به عن أحوال الناشئة من الأجيال حجاباً، وفصلّته في الأخبار والاعتبار بابا بابا، وأبديت فيه لأولية الدول والعمران عللاً وأسباباً، فهذبت مناحيه تهذيباً، قربته لإفهام العلماء والخاصة تقريباً، وسلكت في ترتيبه وتبويبه مسلكاً غريباً، واخترعته من بين المناحي مذهباً عجيباً، طريقة مبتدعة وأسلوباً وشرحت فيه أحوال العمران والتمدن، وما يعرض في الاجتماع الإنساني من العوارض الذاتية، وما يمتعك بعلل الكوائن وأسبابها، وما يعرفك كيف دخل أهل الدول من أبوابها، حتى تنزع من التقليد يدك، وتقف على أحوال ما قبلك من الأيام والأجيال وما بعدك"[٢١].

٣ـ لمن يكتب التاريخ:

أخذ ابن خلدون على المؤرخين السابقين له والمعاصرين، بأنهم قد أرّخوا –ألا في القليل من بحوثهم– للساسة والسلاطين والملوك لا من أجل التاريخ ذاته[٢٢]. ودرسوا الأحداث والأخبار والوقائع التاريخية، ونظروا فيها، لسبب أو لآخر. لا من أجل تبيّن الأسباب والغايات الحقيقية الكامنة خلفها والوقوف عندها. فابتعدوا عن إبراز مواطن الصدق والصواب فيها، وعن معرفة مواضع الخطأ والكذب التي تنطوي عليها.

ورأى أن من الضروري أن يؤرخ المؤرخ للتاريخ ذاته، لا لأي شيء آخر غير ذلك. وأن يقف عند أحداثه ووقائعه وأخباره، وعند كل ما يمت لها من صلات لتبين حقائق الأشياء وطبائعها الذاتية منها والموضوعية، الخاصة منها والعامة، المادية والمعنوية، التاريخية والاجتماعية، الاقتصادية والفكرية، وغير ذلك من أوجه الأنشطة والفعاليات البشرية، لا في مرحلة تاريخية ما، أو في مكان معيّن، بل على مختلف العصور والأمكنة. لأن العمل الحق ينبغي أن يرمي القيام بذلك، والإحاطة الدقيقة بمجمل ما يتعلق به لأن (التاريخ في جوهره خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم)[٢٣].

ومجال العمل فيه (يتسع ليشمل الحياة الاجتماعية وكل ما يعرض فيها من حضارة مادية وعقلية)[٢٤]. وفي ذلك قال ابن خلدون رابطاً بين اتساع المساحة التي يمكن للمؤرخ أن ينظر فيها، والمنهج السليم لقراءة أحداث التاريخ وتدوينها: (...ولما كان مشتملاً على أخبار العرب والبربر من أهل المدن والوبر، والإلماع لمن عاصرهم من الدول الكبرى، لم أترك شيئاً في أولية الأجيال والدول وتعاصر الأمم وأسباب التصرف والحول في القرون الخالية والملل، وما يعرض في العمران من دولة وملة ومدينة وعزة وزلة، وكثرة وقلة وعلم وصناعة، وكسب وإضاعة، وأحوال متقلبة مشاعة، وبدو وحضر، وواقع ومنتظر، إلاّ استوعبت جمله وأوضحت براهينه وعلله)[٢٥].

٤- في طبيعة دراسة التاريخ ومجالها:

لقد جرى المؤرخون –إلا في القليل من بحوثهم حسب ابن خلدون– على عادة فصل أحداث التاريخ ووقائعه بعضها عن بعض، والنظر إليها مفككة منعزلة عن سياقها التاريخي، وعن ظروف نشأتها وملابسات قيامها[٢٦]. وأخذ هؤلاء بظاهر تلك الأحداث لم يسبروا أغوارها، أو يعملوا البصر والبصير فيما تنطوي عليه بمختلف جوانبها.

فاختلطت عليهم الأخبار الصحيحة الصادقة منها بالأخبار الملفقة الكاذبة وابتعدوا عن تبين حقيقة أن التاريخ في جوهره، إنما هو مجال تأمل ودراسة واسع، وموضع اهتمام واعتبار كبير وحقل تجارب وبحث غني، يستدعي النظر والفحص والتبصر، ويستوجب الدقة والربط وحسن التعليل والعمل –لهذا نجده يؤكد على ضرورة التمييز بين ظاهر لأحداث التاريخ وباطن، ويأخذ بضرورة تجاوز الظاهر ذاك إلى الباطن، وتحكيم البصر والبصيرة فيما ينطوي عليه، لأن ما يحمله الظاهر قد لا يعبّر أو لا يجسّد –إن لم يكن بعيداً بالكامل– عن حقيقة الباطن وجوهره وفي ذلك يقول:

" أما بعد فإن فن التاريخ من الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال وتشدّ إليه الركائب والرحاب وتسمو إلى معرفته السوقة والأغفال، وتتنافس فيه الملوك والأقيال. ويتساوى في فهمه العلماء والجهال، إذ هو في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول والسوابق عن القرون الأول، تنحو فيها الأقوال وتضرب فيها الأمثال، وتطرق فيها الأندية إذا غصها الاحتفال، وتؤدي إلينا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال، واتسع للدول فيها النطاق والمجال، وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال وحال منهم الزوال، وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومباديها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعد في علومها وخليق"(٢٧).

والواقع أن تمييز ابن خلدون بين ظاهر لأحداث التاريخ وباطن، (قد أعطى للتاريخ مكانة العلم المستقل المنزّه عن النفع، وهما وصفان لم يستطع التاريخ امتلاكهما حتى ذلك الحين)(٢٨). فكان بذلك أول من فتح الآفاق هنا لنشأة أبعاد ومفاهيم فلسفية-تاريخية اجتماعية جديدة تتكشف في جوهرها عن حقيقة ابن خلدون. وقد استطاع أن يفهم جيداً العلاقة الخلاّقة التي تربط الإنسان بتاريخه، والتي تبدو دلالاتها جلية واضحة في مختلف الموضوعات التي تناولتها بالبحث مقدمته.

فمن يقرأ الموضوعات التي تناولها ابن خلدون بالبحث على صفحات مقدمته، لا يقرأ

تاريخاً فحسب، بل يتداخل التاريخ بالأدب والجغرافية والعلوم والسياسة والاقتصاد والدين والأخلاق وبمختلف الفعاليات والأنشطة البشرية، تداخلاً لم يسبق لمؤرخ أو باحث قبل ابن خلدون أن توقف بذلك الشمول عند تحديد طبيعته، أو محاولة الإحاطة بجوانبه المختلفة، وما يقوم بينها، وما ينجم عنها أيضاً من علاقات وصلات وأوجه ترابط وفعاليات، والذي يختصره ابن خلدون بإيجاز وبلاغة شديدين في تعريفه (المدهش والمبتكر للتاريخ)[٢٩]. والذي يجمع فيه بين ظاهر التاريخ والباطن، بين تحديد معنى التاريخ وموضوعه كما فهمه الأقدمون –الظاهر– وتحديده الجديد لذلك الباطن[٣٠]. ويتجاوز ذلك كله أيضاً ليسموَ بالتاريخ حقاً من مستوى الفن إلى مستوى العلم، الذي ينظر ويبحث في الأحوال العامة والخاصة والمتغيرة للأمم، والآفاق والأجيال والدول والممالك عبر مختلف الأمكنة والعصور. وليغدو التاريخ معه – ولأول مرة– فلسفة للتاريخ على نحو ما غدونا نعرف اليوم،[٣١] أو علم للعمران على نحو ما أطلق عليه التسمية هو. وفي ذلك يقول: "اعلم أن حقيقة التاريخ خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض بطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس، والعصبيات وأصناف التقلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال"[٣٢].وسواء أفهم موضوع التاريخ وطبيعته بوصفه خبراً عن الاجتماع الإنساني وفق الرؤية المنهجية العقلانية لابن خلدون في ذلك على (أنه علاقة عمرانية بين البشر والعالم، علاقة هذا التملك العمراني للعالم، الذي هو بالضرورة تملك مادي–اجتماعي)[٣٣]. على نحو ما ذهب إليه مهدى عامل في تحليله للنص الخلدوني، أم فهم على أنه خبرٌ يجسّد تفاعل وتداخل عوامل كثيرة مختلفة تتفاصل وتتواصل بعضها مع بعض سلباً كان ذلك أن إيجاباً لتكوّن لحمة النسيج الشامل لبنيان ذلك العمران –على نحو ما غدت الدراسات الفلسفية التاريخية الحديثة والمعاصرة

تأخذ به–[٣٤]، فإن القول الحق هنا: إن ابن خلدون قد أراد أن يجعل من التاريخ أداة كشف عن سيرورة تقدم الاجتماع الإنساني (وتطور من جميع النواحي أياً كانت معالم هذا التطور وظواهره واتجاهاته)[٣٥].

وإن كان يؤخذ على طموح ابن خلدون أو محاولته هنا بناء منهج وتصور جديدين للتاريخ بأنه (قد ظل سجين جهاز أبستمولوجي لا يحتمله ولا يقدر على حمله لأن تحقيق المشروع الخلدوني كما تصوره صاحب المقدمة كان يتطلب جهازاً معرفياً لم يكن ليتوفر عليه صاحب المقدمة، ولا أي من معاصريه)[٣٦]. فإنه لا بد من القول إن التاريخ قد أصبح عند ابن خلدون معطىً إنسانياً، وأنه قد أصبح (علم الإنسان في وضعه وفي أحواله المتبدلة دائماً وأبداً)[٣٧].

في الوجه الآخر: البحث في منشأ الخطأ في التاريخ

إن الوقوف عند غاية كبرى هي معرفة طبيعة التاريخ وحقيقته، بوصفه خبراً عن الاجتماع البشري أمر ليس بالسهل، ومجال ليست مأمونة فيه سبل البحث دون سقطات لا بل إن المجال هنا عرضة دونَ أدنى شك –حسب ابن خلدون– لنشأة الخطأ. وقد تنبه ابن خلدون لذلك، وأفرد مساحة كبيرة من صفحات مقدمته للوقوف عند منشأ الأخطاء، التي تباعد بين المؤرخ والموضوعية، وتحول دون أن تعطي النظرة للتاريخ صورة صحيحة عن حقيقة الخبر أو الحادثة التاريخية، وعمل ذلك على تبيان كيفية تجنب المؤرخين مغبة الوقوع في مثل تلك الأخطاء، والتي يقف عند ذكرها في النص التالي إذ يقول: "...ولما كان الكذب متطرقاً للخبر بطبيعته وله أسباب تقتضيه منها، التشيعات للآراء والمذاهب... الثقة بالناقلين... الذهول عن المقاصد...توهم الصدق وهو كثير... ومنها الجهل بتطبيق الأحوال على الوقائع لأجل ما يداخلها من التلبيس والتصنع فينقلها كما رآها... ومنها تقرّب الناس في الأكثر لأصحاب التجلّة والمراتب بالسناء والمدح، وتحسين الأحوال وإشاعة الذكر... ومن الأسباب المقتضية له أيضاً وهي سابقة على جميع ما تقدم الجهل بطبائع الأحوال في العمران"[٣٨].

أي بشكل عام، إن الأخطاء التي تبعد التاريخ وتباعد المؤرخ عن الدقة والمعقولية والصدق والموضوعية، تنطوي في نشأتها وفي إطارها العام تحت طائفتين رئيسيتين، ذاتية وموضوعية -وهذا التقسيم ما يزال موضع اهتمام الدراسات النقدية التاريخية الحديثة[٣٩]. منها ما يرجع في نشأته إلى الذات الباحثة، إلى شخص المؤرخ وميوله وأهوائه وسعة اطلاعه، وفي قدرته على المحاكمة والتحليل والربط والتعليل والبرهنة والتدليل، وفي كيفية تعامله مع مادته العلمية - التاريخية ووسائله وأدواته المعرفية في معالجة ذلك، ومنها ما يعود في نشأته إلى أسباب موضوعية، تأتي من جهة الخبر، أو الحادثة التاريخية نفسها وموقعها من جملة أحوال العمران البشري الذي قامت فيه بمختلف جوانبه، ومدى توافقها مع القوانين والقواعد التي تحكم ظواهر اجتماعه وأحواله في اختلافها وتشابهها، وتغير أوضاعها وتبدلها باختلاف المجتمعات والأمم والشعوب والأيام، وباختلاف الأحوال حتى في المجتمع الواحد ذاته. دون أن يعني ذلك، أن بالإمكان الفصل أو التمييز بين ما ينشأ من الخطأ عن هذه الطائفة (الذاتية)، وما ينشأ عن تلك (الموضوعية)، بحيث يبدو الخطأ الناشئ عن الذات الباحثة مجرداً بشكل ما أو بآخر عن الظروف الاجتماعية التاريخية التي أدت إلى نشأة الخبر، أو لا صلة له بأحوال العمران البشري الذي قام بين ظهرانيه. بل إن حضور كل منهما مع الآخر قائم بشكل دائم، وعلاقة هذه بتلك حاضرة باستمرار. وذلك ما يعبّر عنه ابن خلدون، وبشكل واضح وصريح في جملة الشروط التي تقتضيها رؤيته المنهجية الجديدة ممن يروم البحث هنا، ويرمي الوصول بمقدماته إلى نتائجها التاريخية الصحيحة. حيث يتداخل الذاتي بالموضوعي ويعمل كل منهما بانسجام وتناغم مع الآخر بغية الوصول إلى سبل الصدق والصواب وفي ذلك يقول:

"...يحتاج صاحب هذا الفن إلى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات، واختلاف الأمم والبقاع والأعصار في السير والأخلاق والعوائد، والنحل والمذاهب وسائر الأحوال، والإحاطة بالحاضر من ذلك ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق، أو بون

ما بينهما من الخلاف، وتعليل المتفق منها والمختلف، والقيام على أصول الدول والملك، ومبادئ ظهورها، وأسباب حدوثها، ودواعي كونها، وأحوال القائمين بها وأخبارهم، حتى يكون مستوعباً لأسباب كل حادث واقفاً على أصول كل خبر وحينئذٍ يعرض خبر المنقول على ما عنده من القواعد والأصول، فإن وافقها وجرى على مقتضاها كان، وإلا زيّفه واستغنى عنه"(٤٠).

فقد كان ابن خلدون يدرك جيداً مبلغ شمول موضوعه وتشابكه وتداخله بكثير من الموضوعات الأخرى، كما كان يعلم جيداً أن الحدث التاريخي هو في حقيقته ظاهرة معقدة مختلفة الأوجه متعددة الجوانب، تتداخل في نشأته وتحديد طبيعته وأبعاده عوامل كثيرة ذاتية وموضوعية اقتصادية سياسية، اجتماعية، دينية، تتفاوت في حجم فعاليتها، وحجم الدور الذي يلعبه كل منها في تحديد طبيعة نشأته وقيامه.

وبالانطلاق من ذلك ذهب ابن خلدون إلى القول: "إن من مقتضى الضرورة المنهجية أن يتجاوز العمل هنا حدود البحث في أساليب المؤرخين والكشف عن منشأ الأخطاء في التاريخ إلى النظر مع ذلك في أفضل الرؤى والمسالك التي تؤدي بالتاريخ والمؤرخ إلى مواطن الصدق والصواب، وترتقي بالحدث التاريخي إلى كونه حقاً يشتمل على ذكر الأحوال المتغيرة للعمران البشري في مختلف الأمكنة والأزمنة. ذلك أن معرفة أصل الداء تساعد على وضع الدواء، والوقوف عند منشأ الخطأ في التاريخ يمكّن المؤرخين من التنبه واليقظة لتفادي الوقوع بها. سواء أكان الخطأ ناشئاً من جهة الذات الباحثة / المؤرخ، أو من جهة ما هو موضوعي أي الخبر وأحوال العمران البشري وموقع الخبر من ذلك.

أ ـ فيما يتعلق بالأخطاء التي تعود إلى الذات (المؤرخ):

لقد تنبه ابن خلدون ونبّه بذكاء شديد إلى دور الذات الباحثة وصعوبة مهمتها في عملية البحث في مخازن التاريخ، والنظر في ما انطوت عليه أسفاره من وقائع وأخبار،

والحكم في الصادق منها والكاذب وفي عملية نقل الخبر وتفسيره، وتعليل أسباب نشأته وقيامه، والوقوف عند كل ما يتعلق به من أمور وما ينجم عنه من علاقات وصـلات، وذلك لأن المادة التي بين يديه (ليست الأحداث الواقعة وإنما تقريرات وأوصاف عنها، وروايات مفصلة بها، ولأن كثيراً من الحشو قد يداخلها، وكثيراً من الإضافات الزائدة، قد تضاف إليها وأحياناً قد يكون النصر محرفاً في بعض أجزائه أو حتى مزيفاً تماماً. إلى جانب كون الإنسان بطبعه حراً متغيراً كثير التأثير يخضع لعوامل عدة، ويتأثر بها بطرق مختلفة وعلى أنحاء متعددة. فضلاً عن أن لديه دواعي عدة للتحريف أو التزييف أو الوقوع في الخطأ)[٤١].

وفي الوقوف جيداً عند أبرز مواطن نشأة الخطأ في التاريخ التي سبق ذكرها حسب رؤية ابن خلدون، لذلك يظهر بشكل واضح أن الخطأ الذي يأتي من جهة ذات الباحث يتراءى تحت أوجه رئيسية أربعة:

١-فمن الخطأ ما يعود في نشأته إلى ملكات الباحث وقدرته ومهارته في امتحان المادة التاريخية التي بين يديه. البحث في أصولها وفروعها ومدلولاتها والتحقق من صحتها -وهو ما غدا يندرج تحت النقد الباطني الإيجابي-[٤٢]، لأن من يريد البحث في مخازن التاريخ يحتاج عند ابن خلدون إلى جانب ما تقدم في النص السابق (إلى مآخذ متعددة، ومعارف متنوعة، وحسن نظر وتثبيت يفضيان بصاحبهما إلى الحق، وينكبان به عن الزلات والمغالط)[٤٣]. ويمكّناه من معالجة موضوعه معالجة جيدة شاملة وكافية، دونما إهمال لأي جانب من جوانبه، أو تغافل عن الكشف عن صلاته بغيره من الجوانب الأخرى في توافقه معها وتعارضه، والنظر في ما ينجم عن ذلك. وصولاً إلى الحقيقة التاريخية المعبّرة أولاً عن مدى صدق الخبر أو الحادثة التاريخية ذاتها لأن (الخطوة الحقيقية التي يقوم بها المؤرخ الحقيقي هي أن يركّب من الوثائق المختلفة عن عصر أو حادث صور صادقة أقرب ما تكون إلى ما كانت عليه الوقائع التاريخية)[٤٤].

والمعبرة ثانياً عن مدى ارتباط ماضي الأمة موضع الاهتمام بحاضرها لأن (الحاضر عند ابن خلدون يشهد بذلك للماضي)[٤٥].

٢-ومن الأخطاء ما يرجع في نشأته إلى جانب شخص المؤرخ في ميوله وأهوائه وعواطفه، في استقلالية رأيه وثقته بمن ينقل عنهم وانحيازه لآرائهم ومذاهبهم، وفي موضوعيته في تعامله مع الحدث، مع ما سمع وما يسمع من أخبار، ما نقل وما يُنقل إليه من روايات، وفي كيفية قراءته لمجمل ذلك وأسلوبه في تدوينه – وذلك ما غدا يندرج تحت النقد الباطني السلبي-[٤٦] الأمر الذي يستدعي من المؤرخ الحكمة والروية والتبصر، ويقتضي الأمر منه أن يأخذ بالحسبان فعالية الدور الذي يمكن أن يلعبه أياً من تلك الجوانب في تمكين المؤرخ من إعطاء صورة عن واقع الحادثة التاريخية، أو تباعد بينه وبين ذلك، فتختلط عليه الأمور بين حدث حقيقي قام فعلاً وآخر موضوع أو ملفّق. ويغدو الوقوف عند الواقعة أو الحدث التاريخي عرضة لأحكام فردية ومعايير قيمية ذاتية، أو عرضة للأهواء والمصادفات أو لغير ذلك من أمور شرّعها المؤرخ أو انتصر لها وتشيّع وأخذ بها عن علم له بذلك ومعرفة، أو عن جهل منه بها وعدم تبصّر وانتباه وجراء ذلك: ينزل التاريخ إلى مستوى السيكولوجية، لأن التاريخ سيكون عندها عرضة لكل سقطات الذاكرة[٤٧]. ومن جهة أخرى يندسّ في البحوث التاريخية أخبار كثيرة وأحاديث وروايات زائفة بعيدة عن الصحة والمعقولية، كان بالإمكان الابتعاد عنها جيداً، لو نظر إلى مجمل تلك الجوانب كمبادئ أساسية في عملية البحث التاريخي، وذلك (لأن النفس إذا كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر أعطته حقه من التمحيص والنظر، حتى تتبين صدقه من كذبه، وإذا خامرها تشيع لرأي أو نحلة قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص فتقع في قبول الكذب

ونقله)[٤٨]. دون أن يعني ذلك أن ابن خلدون قد استطاع حقاً أن يتجرد من التشيع والهوى، أو أن يتقيد بمبدأ الموضوعية الذي رأى ضرورة تحلي المؤرخ به على نحو مايظهر في دفاعه الشديد عن العباسة في حبها وحملها إثر خلوة لها مع خطيبها جعفر البرمكي. وفي دفاعه عن الخليفتين الرشيد والمأمون، وما يروى عنهما من معاقرة الخمرة. فقد استبعد تماماً صحة ما يروى، واستنكر بشكل كامل أن يكون أي من هؤلاء قد أقدم على فعل ذلك، لأن هؤلاء خلفاء وأبناء خلفاء، وسلالة بيت عز ونسب، والإقدام على فعل مثل ما يروى عنهم يتنافى وأحوالهم في دينهم ونسبهم وعلمهم واقتفائهم سنن الخلفاء الراشدين من آبائهم[٤٩].

٣-ومن الأخطاء في التاريخ ما ينشأ عن الذات الباحثة عن علم ومعرفة لتلك الذات بما تفعل. حيث النظرة منها إلى أحداث التاريخ والولوع في النفس وحب الاطلاع والتطفل والفضول قائم، والنية في الفكر مبيّتة، والمصلحة في الذهن مرسومة والتزلف والتقرب لأصحاب المراتب والسلطان وسيلة لبلوغ ذلك. الأمر الذي يدفع الباحث دون أدنى شك إلى المبالغة في إبراز فعالية الجوانب التي تخدم تلك الغاية من الخبر، واختصار وتحجيم -لا بل حتى تغييب الأنظار، عن فعالية دور غيرها من الجوانب الأخرى. وذلك يؤدي بالباحث بالنتيجة إلى التحريف في قراءة الخبر والواقعة التاريخية والتزييف، والبعد عن جادة الصدق في إيداعه أسفار التاريخ والتعريف (فحيث يتقرب الناس في الأكثر لأصحاب التجلة والمراتب بالسناء والمدح، وتحسين الأحوال وإشاعة الذكر بذلك، فتستفيض الأخبار بها على غير حقيقة، فالنفوس مولعة بحب السناء والناس متطلعون إلى الدنيا وأسبابها من جاه وثروة، وليسوا في الأكثر براغبين في الفضائل ولا متنافسين في أهلها)[٥٠].

ومن مثل ذلك ما ذهب إليه بعض المؤرخين في محاولتهم الطعن في نسب

العبيديين إلى الإمام اسماعيل بن جعفر الصادق*، واعتماداً على أحاديث لفقت للمستضعفين من خلفاء بني العباس تزلفاً إليهم، وتقرباً منهم بالقدح فيمن ناصبهم العداء(٥١).

٤-ومن الخطأ ما ينشأ عن الذات الباحثة عن غيرهم علم لها به، أو عن غير قصد منها بفعل ذلك. وإنما ينشأ الخطأ عن ذهول الباحث عن المقاصد، أو يتوهم منه للصدق في غير محله، أو عن الكيفية التي يأخذ بها عن غيره من المؤرخين عن ثقة له بهم بما ينقلون دونما تبصر في ذلك ولا تمحيص، فيغدو البحث في شؤون التاريخ، والنظر في الكيفيات التي على نحوها تقوّم أخباره ودوّن وقائعه، عادة يأخذ على نحوها الخلف من السلف وينقلون تقليداً ومحاكاة، دون تدقيق ولا تكلف عناء البحث ومشقة التفتيش فتزل أقدامهم بالخطأ وعن جادة الصواب تحيد.

وذلك يستوجب ضرورة تنبه المؤرخ وتفطنه لكل ما يحوط الخبر أو يتعلق به من ضرورات إيجابية وعوامل أساسية اقتضت نشأته، وكان لها دورها في تحديد كيفية قيامه. ولكل ما قد يلحقه في أي مرحلة من مراحل نشأته من ريب أو شك أو تزييف، وعدم الأخذ بالأمور، هكذا دون أن تُعرَض على أصولها، أو تقاس بأشباهها، ودون أن تسبر بمعيار الحكمة أو يؤخذ بالحسبان جيداً التغيرات التي تطرأ على أحوال العمران الذي قامت فيه، وفي مدى توافقه معها لأن (القياس والمحاكاة للإنسان طبيعة معروفة، ومن الخطأ غير مأمونة، تخرجه مع الذهول والغفلة عن قصده، وتعوج به عن مراميه، فربما يسمع السامع كثيراً من أخبار الماضين، ولا يتفطن لما وقع من تغير الأحوال أو انقلابها فيجربها لأول وهلة على ما عرض ويقيسها بما يشهد، وقد يكون الفرق بينهما كثيراً فيقع في مهواه من الغلط)(٥٢).

---

* العبيديون: نسبةً إلى منشئ دولتهم في المغرب عبد الله المهدي، وقد اشتهروا في التاريخ باسم الفاطميين، نسبة إلى فاطمة الزهراء، رضي الله عنها.

ومن ذلك ما ينقله ويتناقله المؤرخون تقليداً منهم بعضهم لبعض دون تبصر منهم في تغيّر الأحوال والأوضاع، عن أحوال الحجاج، وأن أباه كان من المعلمين، من غير أن يتنبهوا إلى وضع الحجاج، وموقع أسرته من قومه، دون النظر في طبيعة صنعة التعليم ذاتها، وفي الكيفية التي على نحوها كان ينظر إليها آنذاك. وما طرأ عليها من تغير، ودون معرفة متى صار العلم بالجملة صناعة في البلاد العربية الإسلامية، وما هي الأسباب التي اقتضت ذلك، وكيف[٥٣].

ومنه أيضاً ما ينقله المسعودي عن ثقة له بمن ينقل عنهم، وعن جهل لدى الجميع بالقوانين التي تحكم ظواهر الطبيعة عن الاسكندر لما صدته دواب البحر عن بناء مدينة الاسكندرية، وكيف تصرف حتى تم له بناؤها. من غير إعمال للفكر، ومعرفة ما إذا كان الاسكندر قد كلف نفسه تحمّل مشقة العمل في ذلك، أو حتى معرفة إن كان حقاً من عادة الملوك والقادة فعل ذلك. أو هل يعرف للجن صور وأشكال، أو الحكم في مصداقية القول بأن المنغمس في الماء طوال الفترة التي تذكرها الرواية يبقى حقاً على قيد الحياة[٥٤].

دون أن يعني ذلك، أن محاولة (ابن خلدون) الإحاطة بالخبر المثال من مختلف جوانبه، ومهارته ودقته في الوقوف عنده، إنما هو نظر من ابن خلدون ونقد وتدقيق وتفنيد في الأخبار بالاستناد إلى وثائق ومخطوطات تاريخية، أو السير على مسالك النقد التاريخي التي غدت مألوفة اليوم –من جمع الأصول والمراجع، والنظر في شخصية المؤلف وزمان التدوين ومكانه، والوقوف عند العلوم الجزئية والمساعدة[٥٥]، بل إن التحليل والتعليل والاستنتاج أيضاً يتخذ عنده في مجمل ذلك، طابع الكلية والشمول[٥٦].

ب- ما يتعلق بالأخطاء التي تعود في نشأتها إلى الموضوع:

وفي هذا الجانب يظهر ابتكار (ابن خلدون) وتفرّده على جميع المؤرخين أكثر ما

يظهر. فقد أكّد على نحو لم يسبقه أحد إليه من الباحثين والمؤرخين أهميــــة الشــرط العمراني في صناعة أحداث التاريخ وتحديد طبائعها. وفي اختبارها أيضاً، وصـــــولاً إلى الحقيقة التاريخية الكامنة خلفها، والرامية بالمحصلة إلى التميـــيز فـــي الأخبــار والوقائع بين ما هو صحيح وما هو كاذب، بين ما قام منها فعلاً وتحكم أحوال العمران البشري بصحة قيامه، وبين ما لم يقم منها وتحكم تلك الأحوال ببطلان قيامه، لا بــــل حتى استحالته. ذلك لأن (العمران طبائع في أحواله ترجع إليها الأخبار، وتحمل عليها الروايات والآثار)[٥٧].

وفي الواقع لقد وعى ابن خلدون جيداً ذلك الحوار الجدلي القائم بين أحداث التـــــاريخ وطبائع العمران البشري الذي نشأت فيه[٥٨]. وقد ربط ربطاً وثيقاً بين طبيعة الدراســة التاريخية وسلامة نتائجها ودقتها ومعرفة أحوال ذلك العمران. وتبدّت آراؤه في تبيــان ذلك تحت وجهين:

- **الوجه الأول:**

تحت هذا الوجه أكّد ابن خلدون، أولاً ، أن الجهل بطبائع العمران البشــــري أو الغفلة عما يلحقها من الأحوال والتغيرات، الذاتية المنشأ منها والخارجية، إنما هو من أشدّ المواضع خطراً، ومن أكثرها سبلاً لنفوذ الخطأ إلى ثنايا أحداث التاريخ، ولتعثر سبل المؤرخين. وذلك لأن الخطأ هنا يتناول الجوهر لا العرض، ويطـــال الماهية ولا يقف عند ما هو خارجي عنها من الأحوال، أو عند ما هو عرضــــي عليها ومؤقت، وفي هذا يقول: ".... ومن الأسباب المقتضية للكذب في الخــــبر وهي سابقة على جميع ما تقدم –من الأسباب– الجهل بطبــــائع الأحـــوال فـــي العمران، فإن كل حادث من الحوادث ذاتاً كان أم فعلاً، لا بد بــــه مـــن طبيعـــة تخصّه في ذاته، وفيما يُعرض له من أحوال، فإذا كان السامع عارفــــاً بطبــائع الحوادث والأحوال في الوجود، ومقتضياتها، أعانه ذلك في تمحيص الخبر علـــى تمييز الصدق من الكذب، وهذا أبلغ في التمحيص من كل وجه يُعرف"[٥٩].

ومن ثم ذهب إلى القول ثانياً: -مسلطاً الضوء هنا على جانب هو في غاية الأهمية، ألا وهو ضرورة التنبه إلى ديناميكية وتطور المجتمعات، وتغير أحوالها وتبدلها- أنه لما كانت (أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة، وانتقال من حال إلى حال، وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول)[٦٠]. -كان من الطبيعي والضروري أيضاً بالمؤرخ أن يلّم بذلك إلماماً كافياً، وأن ينظر في تلك الأحوال في تغيرها وتبدلها، وأن يقف عندها في أسبابها وطبائعها. لأن (الحركة والتطور قانون)[٦١]. هنا والصيرورة والتحول مبدأ أساسي لا يستقيم الفهم الصحيح لأحداث التاريخ بدون الأخذ بمجمل شؤونه باهتمام وتعقل كبيرين، إذ (من الغلط الخفي في التاريخ الذهول عن تبدل الأحوال في الأيام والأجيال، بتبدل الأعصار ومرور الأيام...)[٦٢].

وقد بيّن (ابن خلدون) أن أخباراً كثيرة وقصصاً لا أساس لها من الصحة قد لحقت بالتاريخ. وأن كثيراً من الأخطاء قد ارتكبها المؤرخون حتى الكبار منهم لجهل منهم بمقتضيات أحوال العمران البشري، وعدم تبصرهم في موقع الأخبار من مجمل تلك الأحوال. ولعدم التفطن جيداً لما تتميز به طبائع العمران من كيفيات، أو التنبه لما بينها من تقارب وتباعد، ولما تخضع له من المؤثرات في الزمان والمكان -في طبيعة الأرض ووسائل الرزق والأحوال الاجتماعية والعامة- حتى غدا ما هو غير صحيح من تلك الأخبار أو ما لحق بالوقائع التاريخية من تضخم وتهويل، أو تقليل وتصغير، مع مرور الأيام كالجزء الصحيح من التكوين الشامل لطبيعتها ذاتها. وفي أبسط الأحوال كالظل يلاحقها، يذكر بذكرها، ويدوّن في الحاشية حيث تدوّن، وغدا من الصعوبة أيضاً التفريق

بين ما هو صحيح منها، وما هو كاذب، أو معرفة ما يخامره منها شك أو ريبة، ومن ثم الحكم في ذلك.

ومن ذلك ما ينقله المؤرخون عن أخبار التبابعة ملوك اليمن(٦٣). وإنهم كانوا يغزون من قراهم باليمن، فيصلون إلى شمال أفريقية في بلاد المغرب، وإلى أمم فارس والروم، وأرض الترك في بلاد المشرق، من غير ما تبصر منهم لمعقولية قيام ذلك، ولا تفطن ونظر في إمكانية قيامه فعلاً. بمختلف ما يحتاجه من إمكانيات وقدرات مادية ومعنوية للجند والقادة، والملك ولأوضاع البلاد، أو حتى للنظر في تقدير المساحات الجغرافية ساحة الغزو، وأحوال الطبيعة وظواهرها،أو إلى غير ذلك من العوامل.

ومنه أيضاً ما ينقله البكري في بناء المدينة المسماة ذات الأبواب، تحيط بأكثر من ثلاثين مرحلة، وتشتمل عشرة آلاف باباً، من غير معرفة أو وقوف عند مقتضيات قيام المدن. كيف ولماذا، ومتى وأين، وما هي الشروط اللازمة لذلك(٦٤).

- **الوجه الآخر:**

وتحت هذا الوجه أكد (ابن خلدون) أن من مقتضى الضرورة في البحث التاريخي السليم الخطوات ألا يقف المؤرخ عند أحداث التاريخ ووقائعه في مرحلة ما، أو عصر ما، أو عند أمة من الأمم، بل أن ينظر في تلك الأحداث وفي أشباهها، وأن يقف عند تلك الوقائع وأمثالها، وأن يتعقب ذلك كله لا في المجتمع الواحد فحسب، بل وفي المجتمعات الأخرى، لا في العصر الذي قامت فيه فحسب، بل وفي العصور الأخرى أيضاً. وأن يمعن النظر والتدقيق في تشابهها واختلافها، في تقاربها وتطابقها، وصولاً لمعرفة طبائعها وخصائصها، وأسباب قيامها الرئيسية منها والأقل أهمية، ومن ثم للحكم بالاعتماد على أوجه

القياس والمطابقة والتشابه والتباين -بوصفها المعيارين الأساسيين للحكم في ذلك عند ابن خلدون- في إمكانية قيامها فعلاً على نحو جاءت به الكتب، وما نقلته وتناقلته الأحاديث والروايات، أو في عدم توّفر تلك الإمكانية. وذلك لأسباب عدة أهمها:

١- إن (الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، ولم تُحكم فيها أُصول العادة، وقواعد السياسة، وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب فيها بالشاهد والحاضر بالذاهب، فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم، والحيد عن جادة الصدق)[٦٥].

٢- لأن لنقاط التقارب والتشابه والتداخل في الوقائع وبين الأخبار والأحداث حدوداً، ينبغي بالمؤرخ ضرورة التنبه لها جيداً، في مختلف مراحل بحثه حرصاً منه على دقة النتائج وصحتها، ذلك لأن أحوال العالم والأمم والشعوب وعاداتهم ونحلهم وطبائعهم وأحوال اجتماعهم وحتى أحوال المجتمع الواحد ذاته، متغيرة أبداً ولا تدوم على حال واحدة مستقرة، على نحو ما سبق ذكره. فلا تصح المقايسة والمطابقة مثلاً بين بدوي وحضري، ولا يجوز إقرار التشابه والاختلاف بين الغالب والمغلوب[٦٦] . أو بين ما يجري في إقليمين مختلفين مناخاً، أو متباينين قحطاً وخصوبة. لأن النتائج ستكون لا محالة غير دقيقة، وغير صحيحة، وفي مجمل هذا يقول مبيناً بشكل صريح، إن البحث في ذلك إنما هو غرض الكتاب الأول من مقدمته:

"...أما الأخبار عن الواقعات، فلابد من صدقها وصحتها من اعتبار المطابقة. فلذلك وجب أن يُنظر في إمكان وقوعه...وإذا كان ذلك فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الأخبار بالإمكان والاستحالة، أن ننظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران، ونميّز ما يلحقه من الأحوال لذاته وبمقتضى طبعه، وما يكون

عارضاً لا يعتد به، وما لا يمكن أن يعرض له. وإذا فعلنا ذلك، كان ذلك قانوناً في تمييز الحق من الباطل في الأخبار والصدق من الكذب بوجه برهاني، لا مدخل للشك فيه، وحينئذٍ فإذا سمعنا عن شيء من الأحوال الواقعة في العمران، علمنا ما نحكم بقبوله مما نحكم بتزييفه، وكان ذلك لنا في العمران معياراً صحيحاً، يتحرى به المؤرخون طريق الصدق والصواب فيما ينقلون، وهذا هو غرض هذا الكتاب الأول من تأليفنا)[٦٧].

٣- لأن التاريخ في حقيقته -وفق الرؤية الخلدونية له- (ليس حوادث مفككة تأتي فرادى، وإنما هو ترابط واتصال وتشابك في الزمان والمكان)[٦٨]. لا تنفصل أحداثه عن جملة الشروط المختلفة التي أنتجتها، ولا يمكن النظر في كل منها بشكل مستقل عن ذلك. أي أن التقسيم المنهجي لمنشأ الأخطاء في التاريخ -حسب الرؤية الخلدونية- بين ذاتي وموضوعي، لابد أن يعود ويندمج ويتوحد في عملية التركيب التاريخي، عملية عرض أحداث التاريخ وكتابة وقائعه باعتبار أن الضرورة المنهجية تقتضي هنا من المؤرخ أن يتفادى في آن واحد مغبة الوقوع في كلا النوعين، أو الطائفتين من الأخطاء، وأن يتجاوز ذلك في عملية بحثه التاريخي، لكي تعطي عملية التركيب التاريخي بالمحصلة صورة صادقة عن حقيقة أحداث التاريخ، وطبائع أخباره وغاياتها، وكيفية تقدم مسارها أيضاً.

وهكذا نصل مع الرؤية المنهجية لابن خلدون في التاريخ، وأحداثه، ومنشأ الأخطاء فيه إلى القول:

١- أن تلك الرؤية قد أرادت أن تستخلص منهج التاريخ وقوانينه من التاريخ نفسه، الماضي منه والحاضر، وأن تقول بشكل واضح وصريح، أن الحدث التاريخي ظاهرة معقدة تتداخل في نشأته وتحديد طبيعته عوامل كثيرة ومختلفة متفاوتة حجم الدور والفعالية أيضاً.

٢- أن ابن خلدون قد أدرك جيداً فكرة الصيرورة في التاريخ، وأن رؤيته

لسير أحداث التاريخ ووقائعه، وفقاً لجدلية تغير أحوال طبائع العمران البشري تسمو به إلى مقام رفيع جداً، وتكشف عن حقيقة أن ابن خلدون قد استطاع حقاً أن يستشف باطن التاريخ، والمحرك الفعلي لأحداثه. وأن ينفذ بشكل دقيق إلى ما وراء أخباره ووقائعه، وأن يسبر غورها سبراً عميقاً.

٣- ونحن بالطبع لا نقول هنا بأن الرؤية المنهجية العقلانية لابن خلدون في التاريخ ومنشأ الخطأ فيه ليست مشوبة بنقائص -يعود بعضها إلى كون ابن خلدون نفسه لم يلتزم في قراءة التاريخ بالمنهج التاريخي الذي ابتدعه، أو بجانب الموضوعية الذي دعا إلى ضرورة تحلي المؤرخ به. ويرجع بعضها الآخر إلى كون استنتاجه وبراهينه وتحليلاته قد اتخذت طابع الكلية والشمول بشكل عام. وصفة الجبرية في مواضع منها، واتسمت بالمحدودية وضيق ساحة اصطفاء الأمثلة- فإن ذلك لا ينقص في شيء من أهمية تلك الرؤية، لا بل حسب ابن خلدون هنا، أنه كان أول من نظر إلى التاريخ بوصفه فرعاً من فروع المعرفة البشرية، وليس سجل أحداث وديوان أخبار، وأنه أول من صاغ قانوناً تنتظم وفقه كيفية فهم الإنسان لتاريخه وتقييمه لأحداثه، تاركاً فيه للإنسان نفسه مهمة صنع ذلك، ومعلقاً عليه أيضاً دون غيره أسباب نشأة الخطأ في فهمه وتدوينه بعيداً عن أية تفسيرات غيبية -ما ورائية- متفرداً بذلك على جميع المؤرخين المتقدم منهم عليه والمعاصر له أيضاً.

الهوامش

١- الجابري، د. علي حسين: **(عبد العزيز الدوري إسهام كبير في صياغة فلسفة التاريخ العربي المعاصر)** مجلة الجديد، دار الشروق للنشر، عمان، ١٩٩٧، ص١٣.

٢- الخساسي، عبد الرحمن: **(ابن خلدون في البحوث المعاصرة دراسة في الاستشراق)** لـ د.عبد العزيز العظمة –الفكر العربي، معهد الإنماء العربي ببيروت، العدد ٣٢ عام١٩٨٣، ص٢٠٠.

٣- ابن خلدون، عبد الرحمن **(مقدمة ابن خلدون)**، تحقيق د.علي عبد الوافي، ج١ لجنة البيان العربي، القاهرة، ط٢، ١٩٦٥، ص٣٠٦، عدد المجلدات –٤–.

٤- الجابري، محمد عابد: **(نحن والتراث)**. دار المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٥، ١٩٨٦، ص٣٤٣.

٥- محمد. د.محمود اسماعيل: **(دراسات في العلوم السياسية)** مكتبة الإمارات العين، ط٢، ١٩٨٤، ص٣١٣.

٦- مرحبا، د.عبد الرحمن: **(من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة العربية)**، منشورات عويدات، بيروت، ط١، ١٩٧٠، ص٧٨٣.

٧- الجر (خليل)، الفاخوري (حنا): **(تاريخ الفلسفة العربية)**، مؤسسة بدران للطباعة النشر، بيروت، ط جديدة، عام ١٩٦٦، ص٧١٥.

٨- الجر، الفاخوري: **المرجع نفسه**، ص٧١٥.

٩- الشيخ، د.رأفت غنيمي: **(فلسفة التاريخ)**، دار الثقافة، القاهرة، ط١، عام ١٩٨٨، ص٣٦.

١٠- ابن خلدون، **المقدمة**، ج١، ص٣٦٢.

١١- ابن خلدون، **المقدمة**، ج١، ص٣٥١.

١٢- ابن خلدون، **المقدمة**، ج١، ص٣٥١بتصرف.

١٣- نادر، البير نصري: **(من مقدمة ابن خلدون)**، دار الشرق، بيروت، ١٩٦٧، ص١١.

١٤- ابن خلدون، **المقدمة**، ج١، ص٣٥٣.

١٥- ابن خلدون، **المرجع نفسه**، ص٣٥٤.

١٦- ابن خلدون، **المقدمة**، ج١، ص٣٥٤.

١٧- الحصري، د. ساطع: **(دراسات عن مقدمة ابن خلدون)**، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط موسعة ١٩٦١، ص١٩٩.

١٨- جمعة، د. لطفي: **(تاريخ فلاسفة الإسلام في المغرب والمشرق)**، دار المعارف، القاهرة، ١٩٢٧، ص٢٣٨.

١٩- ابن خلدون، **المقدمة**، ج١، ص٤١٤.

٢٠- لابيكا، جورج: **(السياسة والدين عند ابن خلدون)**، تعريب د. موسى وهبة ود. شوقي الدويهي، دار الفارابي بيروت، ط١، ١٩٨٠، ص٣٨.

٢١- ابن خلدون، **المقدمة**، ج١، ص٣٥٥.

٢٢- الجابري، د. محمد عابد،: **(نحن والتراث)**، ص٣١٠.

٢٣- ابن خلدون، **المقدمة**، ج١، ص٤٠٩.

٢٤- دي بور، (ت،ج): **(تاريخ الفلسفة في الإسلام)** تعريب محمد عبد الهادي أبو ريدة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ط٤، ١٩٥٧، ص٤٠٧.

٢٥- ابن خلدون، **المقدمة**، ج١، ص٣٥٧.

٢٦- مرحبا، د. عبد الرحمن: **(من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية)**.

٢٧- ابن خلدون، **المقدمة**، ج١، ص٣٥١.

٢٨- لابيكا، جورج: (**السياسة والدين عند ابن خلدون**)، ص٣٣.

٢٩- الطالبي، د. محمد: (**التاريخ بين مشاكل اليوم والغد**)، مجلة عالم الفكر، مـج٥، عدد ١، وزارة الإعلام، الكويت،، عام ١٩٧٤، ص٢٢.

٣٠- الشمالي، د. عبده: (**دراسات في تـاريخ الفلسـفة العربيـة الإسـلامية**)، دار صادر، بيروت، ط٤، ١٩٦٥، ص٧٠٦.

٣١- الحصري، د. ساطع: (**دراسات عن مقدمة ابن خلدون**)، ص١٧٦، ١١٤.

٣٢- ابن خلدون، **المقدمة**، ج١، ص٤٩.

٣٣- نقلاً عن سويد، نافذ: (**ابن خلدون الفيلسـوف العربـي القومـي الأول**)، ط١، ١٩٩٧،ص١٣٦.

٣٤- خوري، د. منح: (**التاريخ الحضاري عند توينبي**)، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٦٠، ص١٨-٤٨.

٣٥- نادر، د. ألبير: (**من مقدمة ابن خلدون**)، ص١٩.

٣٦- الجابري، د. محمد عابد: (**نحن والتراث**)، ص ٣٢.

٣٧- الطالبي، د. محمد: (**التاريخ بين مشاكل اليوم والغد**)، ص١٤.

٣٨- ابن خلدون: **المقدمة**، ج١، ص٤٠٩-٤١٠.

٣٩- سينبوس وآخرون: (**النقد التاريخي**)، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار النهضـة العربية ١٩٦٣، فصل ٧ ، ص١٢١-١٤٨.

٤- ابن خلدون: **المقدمة**، ج١، ص٣٩٩.

حصري، د. ساطع: (**دراسات عن مقدمة ابن خلدون**)، ص١٩٩.

٤٢- [illegible] عبد الرحمن: (**مناهج البحث العلمي**)، وكالة المطبوعات، الكويـت، [illegible] ٧٧ ١، ص١٨٦-١٨٩.

٤٣- عثمان، د. حسن: **(منهج البحث التـــاريخي)**، دار المعـــرف، القـــاهرة، ط٣، ١٩٧٧، فصل٧، ص٢١٧-٢٢٣.

٤٤- ابن خلدون: **المقدمة**، ج١، ص٣٦٤.

٤٥- بدوي، د. عبد الرحمن: **(مناهج البحث العلمي)**، ص٢٠١.

٤٦- ابن خلدون: **المقدمة**، ج١، ص٣٦٤.

٤٧- عثمان، د. حسن: **(منهج البحث التاريخي)**، فصل ٨، ص١٢٢-١٤٥.

٤٨- ابن خلدون: **المقدمة**، ج١، ص٤٠٩.

٤٩- ابن خلدون: **المقدمة**، ج١، ص٣٧٤-٣٨٤.

٥٠- ابن خلدون: **المقدمة**، ج١، ص٤١٠.

٥١- ابن خلدون: **المقدمة**، ج١، ص٤٨٥-٤٩٠.

٥٢- ابن خلدون: **المقدمة**، ج١، ص٤٠١.

٥٣- ابن خلدون: **المقدمة**، ج١، ص ٤٠١-٤٠٢.

٥٤- ابن خلدون: **المقدمة**، ج١، ص٤١٠-٤١١.

٥٥- انظر عثمان، د. حسن: **(منهج البحث التاريخي)**، فصل ٣-٨.

٥٦- صبحي، د. أحمد محمود: **(في فلسفة التاريخ)**، منشورات جامعة مـــاريونس، بنغازي، ١٩٨٩، ص١٣٨-١٤٢.

٥٧- ابن خلدون: **المقدمة**، ج١، ص٣٥٢.

٥٨- تيزيني، د. طيب: **(مشروع رؤية جديدة)**، دار دمشق، ط٥، ١٩٧١، ص٣٩٣.

٥٩- ابن خلدون: **المقدمة**، ج١، ص٤١٠.

٦٠- ابن خلدون: **المقدمة**، ج١، ص٣٩٩.

٦١- العوا، د. عادل: **(المذاهب الفلسفية)**، جامعة دمشق، ١٩٩٢، ص٢٠٧.

٦٢- ابن خلدون: **المقدمة**، ج١، ص٣٩٩.

٦٣- ابن خلدون: **المقدمة**، ج١، ص٣٦٧-٣٧٢.

٦٤- ابن خلدون: **المقدمة**، ج١، ص٤١٢.

٦٥- ابن خلدون: **المقدمة**، ج١، ص٣٦٢.

٦٦- ابن خلدون: **المقدمة**، ج١، ص٤٠١.

٦٧- ابن خلدون: **المقدمة**، ج١، ص٤١٣.

٦٨- مرحبا، د. عبد الرحمن: **(من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة العربية)**، ص٨٣٤.

النشاط الألماني في الخليج العربي ١٩١٤ ـ ١٩٠٠

الدكتور رياض جاسم محمد الأسدي

مركز دراسات الخليج العربي

جامعة البصرة - البصرة- العراق

النشاط الألماني في الخليج العربي ١٩١٤ ـ ١٩٠٠

تمهيد:

شهدت نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين حتى الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) تنامياً مضطرداً لعموم القوى الاستعمارية الأوربية، على نحو لم يسبق له مثيل. وظهرت ألمانية بعد تحقيق وحدتها القومية عام ١٨٧١ دولة قوية وحديثة وذات مطامح بعيدة، وبخاصة بعد بروز شخصية بسمارك (١٨٩٨-١٨١٥)[١].

وأراد ملكها غليوم الثاني سلوك سياسة تتصف بالعالمية welt politic، لما امتازت به ألمانية من قوة وحيوية ونمو سريع في مختلف ميادين الاقتصاد والجيش وإدارة الدولة. وقد تمثّل ذلك على نحو واضح في خطة ألمانية في إنشاء أسطول بحري كبير يقف بوجه الأسطول البريطاني، الذي أحكم سيطرته على جهات عديدة من بحار العالم، خطّط له ونفذه الأميرال فون تربيتز Von Tirpitz[٢].

كان لدى ألمانية في هذه الحقبة إمكانات اقتصادية وصناعية هائلة، إذا ما قورنت بأي بلد أوربي آخر. تضم حوالي (١٢,٠٠٠) مؤسسة مختلفة تعمل في مجالات شتى[٣]. ولذا نجد أن توجّه هذا البلد استعمارياً كان نتيجة طبيعية لعموم النشاطات الحثيثة التي اضطلع بها.

وضح الاستعماريون الألمان خطة خاصة لإيجاد مناطق نفوذ لألمانية خارج حدودها، وبخاصة في الشرق، دعيت آنذاك بخطة زمرمان Zimmerman plan ، وهي عبارة عن سلسلة من الأفكار العملية التي اعتمدت على أن انهيار السيطرة البريطانية في الشرق، لا يتحقق إلا من خلال الدعاية المنظمة ضدها، وبخاصة وسط الشعوب

الإسلامية في إيران والهند. ولذلك كان لابد للخطة من أن تعتمد على مساعدة العثمانيين لتحقّق أهدافها.

كان النشاط الألماني الاستعماري في الشرق نتيجة لمجمل الأفكار والطروحات التي قام بها سلسلة من المفكرين الألمان في مختلف مجالات المعرفة [٤]. وظهرت الغاية منه، وهي منافسة الدول الأوربية الاستعمارية في السيطرة على منابع الثروة والطاقة التي بدأت بوادرها تظهر إلى الوجود.

واجهت ألمانية كلاً من بريطانية وروسية وفرنسة في تثبيت نفوذها في الشرق.

وإذا كانت فرنسة قد حُدّدَ نشاطها من قبل بريطانية،[٥] فإن روسية بقيت تشكل خطراً ملموساً، على الرغم من انكفائها في شمال إيران، لأنها بقيت تبحث لها عن موطئ قدم في الخليج العربي، من خلال دعوتها إلى مشروع كابنست Kapnist project، الرامي إلى مد خط سكة حديد من آسية الوسطى إلى الخليج العربي، والذي كان ذا تأثير على بريطانية[٦].

إن دراسة تلك العلاقات الدولية في مطلع القرن العشرين تفسر لنا الكثير مما ترتّب على حياة الأمة العربية وعلاقتها بالعالم الغربي.

محاولات ألمانية لإقامة مستعمرات في شرق أفريقية

بدأت محاولات الألمان في شرق أفريقية في ضوء سياستهم المعلنة بالاندفاع نحو الشرق Drive to the East, Drang Natch Osten. وفي عام ١٨٧٨، أنشئت الجمعية الألمانية للدراسات الأفريقية في برلين، وبدأت جماعات الألمان بالتوافد على شرق أفريقية بصفة مستكشفين للعمل في زنجبار وتنجانيقا، كان كارل بيترز Carl Peters من أكثر العاملين نشاطاً لتأسيس نفوذ ألمانية في تلك المنطقة[٧]. وفي غضون عام واحد، استطاع الألمان تكوين أربع مستعمرات في أفريقية في الفترة بين نيسان ١٨٨٥

وهي: تنجنيقة في شرق القارة، والكاميرون وتوغو في الغرب، وناميبية في الجنوب(٨).

سيطر الألمان على ما يقارب من (٦٠,٠٠٠) ميل مربع من الأراضي التي يحكمها السلطان برغش،(٩) الذي أقر لهم، بتهديد من السفن الحربية الألمانية الراسية قبالة مدينة زنجبار، بوضعهم الجديد في المنطقة وكونهم قوة استعمارية معترف بها.

وفي عام ١٨٨٦، التقى الوكلاء الألمان مع الوكلاء البريطانيين حيث قاموا بتقسيم المنطقة إلى مناطق نفوذ بين الدولتين، دون الرجوع إلى السلطان برغش. فأصبحت حصة ألمانية محصورة في مقاطعة واسعة من نهر أمبة Umba إلى نهر روفمة Rovuma في شرق أفريقية، في حين حصل البريطانيون على مساحة محصورة بين نهر أُمبة إلى نهر تونة Tuna(١٠).

بعث الألمان إلى شرق أفريقية قنصلاً هو الهرشالتز Herr Schaltz الذي عني بإنشاء مخازن للسفن على طول ساحل تنجانيقة، وأعلن سياسة الباب المفتوح(١١). إن اتخاذ الأنهار حدوداً لعموم المقاطعات الاستعمارية يعد أسلوباً شمل النصف الجنوبي من القارة السوداء. وقد ظهر ذلك جلياً في مؤتمر برلين ١٨٨٤-١٨٨٥(١٢)، الذي وضع الأسس الاستعمارية لتقسيم أفريقية بين ١٤ دولة أوربية، امتداداً لنزعة التوسع والنهب الاستعماريين، التي طغت على العلاقات الدولية آنذاك بشكل لم يسبق له مثيل.

وبعد التقسيم الاستعماري عملت الشركات الأوربية بمختلف جنسياتها لاستثمار القارة. وتميّزت الشركات الألمانية والبريطانية في التوغل عميقاً في شؤون أفريقية الداخلية. فتأسست شركة شرق أفريقية الألمانية The German East Africa Co. وشركة شرق أفريقية البريطانية The British East Africa Co.(١٣). عملت هاتان الشركتان على توكيد الوجود الاستعماري في تنجنيقة التي كانت تعود السلطة فيها فعلياً إلى سلطان عمان وزنجبار منذ عهد السيد سعيد بن سلطان (١٨٠٤-١٨٥٦م)، حيث وصل نفوذ

الأخير إلى مسافة ٤٠-٥٠ ميل داخل تنجانيقة، كما يسير القوافل التجارية في شرق أفريقية حتى بحيرة فكتورية. لكن تلك السيطرة اضمحلت زمن السلطان برغش بن سعيد، حيث أصبح النفوذ الألماني قائماً؛ في حين اقتصر نفوذ بريطانية فعلياً على زنجبار وحدها(١٤).

يُعدّ عام ١٨٨٤ حاسماً بالنسبة للوجود الألماني في شرق أفريقية، حيث تطوّرت المستعمرات الكبيرة. وكان من الممكن رؤية جماعات الألمان الاستعمارية وهي تعمل على تركيز نفوذها داخل القارة(١٥). وقد تميّز كارل بيترز من بين هذه المجموعات بنشاطه، فاستطاع بالحيل والهدايا، أن يحمل رؤساء القبائل في داخل أفريقية على توقيع أوراق لا يعرفون فحواها، كانت في الواقع عبارة عن معاهدات مع ألمانية، التي لم تدخر وسعاً في إخطار الدول الأوربية الأخرى بها(١٦).

إن الوجود الاستعماري الألماني في شرق أفريقية هو نقطة البداية للتحول إلى منطقة الخليج العربي الحيوية، ومن ثم الدخول مع بريطانية في تنافس جديد، وصولاً إلى تحقيق الهدف النهائي، وهو الهند. ولذا فإن الاندفاع نحو الخليج العربي جاء نتيجة طبيعية لمجمل التوجهات الألمانية في الاندفاع نحو الشرق، وبالتالي يعد محاولة أخرى لضرب طرق المواصلات البريطانية المهمة.

الاندفاع الألماني نحو الخليج العربي:

وقع الخليج العربي ضمن استراتيجية ألمانية العامة في الاندفاع نحو الشرق، لكونه يشكل منطقة حيوية لمواصلات الملاحة البريطانية، فضلاً عن كونه نقطة التقاء حساسة للمصالح التجارية. وبعد ترسيخ النفوذ الألماني في شرق أفريقية- كما مر معنا - فتحت صفحة في الخليج العربي على مصراعيها.

قامت ألمانية عام ١٨٩٦م بتأسيس شركة ونكهاوس Wonckhaus (نسبة إلى مؤسسها روبرت ونكهاوس) في ميناء لجنة على ساحل الخليج العربي للعمل في تجارة اللؤلؤ والسلاح التي كانت رائجة وقتذاك. وفي الواقع أن خطط وطموحات تلك الشركات كانت أكبر بكثير من إمكاناتها المتواضعة. وعلى الرغم من ذلك، فإن رجال الحكومة في برلين أعلنوا رسمياً: أن الهدف من نشاط ألمانية في الخليج العربي هو: (الوصول من هامبورغ Hamburg إلى الخليج العربي من خلال إيجاد موضع قدم Foot Hold هناك)[١٧].

الهدف الأولي لذلك النشاط يكمن في زعزعة الوجود البريطاني تمهيداً للوثوب إلى هدف أوسع وهو الوصول إلى الهند قلعة بريطانية التقليدية. وكانت رغبتها في البداية منافسة شركات المواصلات البريطانية من خلال إيجاد مصالح تجارية هناك.

ولرعاية المصالح التجارية الوليدة في الخليج العربي، قامت بافتتاح أول قنصلية لها عام ١٨٩٧م في ميناء بوشهر، وعينت نائب قنصل لها هو الطبيب روبرت هوك Dr. Robert Hauck، الذي بدأ عمله الرسمي في تشرين الثاني من العام نفسه. وقد بقي في وظيفته حتى حزيران ١٨٩٩م[١٨].

وسّعت ألمانية نشاطها من خلال الدعم المالي الحكومي الذي حظيت به شركة ونكهاوس. فقامت هذه الشركة تبعاً لذلك بتأسيس فروع لها في البحرين وبندر عباس والبصرة، كما أظهرت جهوداً حثيثة لتنويع تجارتها، فأجرت اتصالاً مع شيخ الشارقة وعرضت عليه مشروعاً لاستثمار الأكسيد الأحمر Red Oxide في جزيرة أبو موسى، تمهيداً للاندفاع في عمق الخليج العربي شمالاً حتى مصب شط العرب ونهر الكارون، حيث تقع عقدة مواصلات الملاحة البريطانية[١٩].

دأبت جماعات من الألمان منذ نهاية القرن التاسع على القيام بزيارات شبه منتظمة لموانئ الخليج العربي المهمة، سواءً لجمع المعلومات أو لرسم الخرائط الخاصة. وقد

اتخذوا صفة التجار المسلمين حتى عرفوا آنذاك باســـم توبيـــن Toeppen، وقد كـــان مقرهم شبه الدائم بندر عباس(٢٠). وفي بداية القرن العشرين، وبعد عام ١٩٠٥، أصبح تحقيق التفاصيل العملية للإستراتيجية الألمانية في الخليج العربي عن طريق البحرين.

وكان القادة الألمان يؤثرون هذا الوضع في الحقبة بالذات، بسبب التـــهديد الروســـي لإيران(*).

ناهيك عما انتاب السياسة البريطانية في هذه الحقبة من تراخي قبضتها على منطقـــة الخليج العربي، وما رافق ذلك من سلسلة المشكلات المالية التي عصفت بالادميراليـــة البريطانية وألقت بظلالها على عموم النشاط البريطاني(٢١).

فـــي عـــام ١٩٠٦، ظـــهرت شـــركة هـــامبورغ أميركـــة للمواصـــلات البحريـــة Hamburg- America Line Co. للعمل في الخليج العربـــي وإيـــران (٢٢). وعرفـــت اختصار بـــ(HAPAG). وفي الواقع، أنها كانت امتداداً لشركة ونكهاوس، فقد كـــان روبرت ونكهاوس وكيلها الرسمي. وعلى الرغم من أن أعمال هذه الشـــركة كـــانت بطيئة إذا ما قورنت بالشركات البريطانية، إلا أنها حظيت بدعم كبير من الحكومة فـــي برلين من خلال تمويلها المالي، الذي كان يقوم به بنك الشـــوق The Deutche Orient Bank. في وقت قام بنك الامبريال البريطاني في فارس British Imperial Bank of Persia بتمويل الشركات البريطانية العاملة في الخليج العربي (٢٣). ومن الملاحـــظ أن هذه البنوك هي نفسها التي ساهمت في استعماز شرق أفريقية، ولـــذا فـــإن التنـــافس الألماني - البريطاني في أحد وجوهه هو تنافس مالي بين بنوك لندن وبرلين.

(*) تعود علاقة إيران بألمانية إلى زمن ناصر الدين شاه الذي زار برلين عام ١٨٧٣، وبدأت محـــاولات الألمان في إيران منذ ١٨٨٤، حينما احتكر التجار الألمان "القند" في إيران. وفي عام ١٨٩٥، دخلـــت أول سفينة ألمانية إلى ميناء بوشهر محملة بمختلف البضائع، للتفاصيل أنظر: اثـــر: ر. وادالا، **خليـــج فارس در عصر استعمار** ترجمة ي بروفيسور شفيع جوادي(طهران، ١٩٧٨) ص ٥٥-٦٢.

زار روبرت ونكهاوس الكويت هذه المرة عارضاً مشاريعه على شيخ الكويت مبارك الصباح وبرفقته عدد من رجال الأعمال الألمان.

رغّب ونكهاوس شيخ الكويت في استثمار أكسيد الحديد Iron oxide . وأشار إلى قيامه بإنشاء شركة لهذا الغرض وهي .F.c. Strick and Co لكن الأخير كان قد ارتبط مع بريطانية بمعاهدة سرية عام ١٨٩٩م(٢٤).

عقدت بريطانية سلسلة من المعاهدات مع شيوخ ساحل عمان وسلطان مسقط وأخيراً شيخ الكويت، فقطعت الطريق على الألمان في إيجاد موطئ أقدام لهم في الخليج العربي.

بادر (برسي كوكس) المقيم البريطاني في الخليج (١٩٠٤-١٩١٣) للاتصال بشيوخ ساحل عمان والكويت، وأخبرهم بضرورة عدم منح الألمان أي امتياز وذكّرهم بارتباطاتهم السابقة مع بريطانية(٢٥). ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل أرسلت الإدارة البريطانية في الخليج العربي في ٢٢ تشرين الأول من عام ١٩٠٧ المعتمد البريطاني في بندر عباس مع الملازم جابرييل إلى جزيرة أبو موسى على ظهر السفينة الحربية لابونك، لإحباط المشاريع الألمانية هناك(٢٦).

لقد أدركت بريطانية منذ ذلك الوقت أهمية الشرق الأوسط والخليج العربي وبخاصة في حالة وجود قوى أوربية منافسة مثل ألمانية. لذا كان لابد للإستراتيجية البريطانية من أن تضع أسساً وفق إدراك جديد(٢٧) لمواجهة التحديات الألمانية المتعاقبة، وبخاصة حينما أصبحت الدولة العثمانية طرفاً في عملية الصراع الدبلوماسي الذي ظهرت بوادر احتدامه في مختلف المجالات.

كان أول اصطدام دبلوماسي علني بين بريطانية والدولة العثمانية– ومن خلفها ألمانية – بعد رفض شيخ الكويت مبارك الصباح في كانون الثاني عام ١٩٠٠م البعثة الألمانية التي رأسها الهر "شتمريخ" القنصل الألماني في الأستانة(٢٨). وبعد أن رفض شيخ الكويت بأن تكون نهاية خط سكة حديد بغداد برلين في الكويت(٢٩).

في ظل هذه السياسة قامت بريطانية بمنع السفينة الحربية الألمانية بيرسوس Perseus من إنزال جنود عثمانيين في البصرة والكويت[٣٠]. وكتبت جريدة التيمس Times اللندنية مقالاً خاصاً أكدّت فيه نوايا ألمانية في إزاحة بريطانية عن سيطرتها على الخليج العربي، ونوّهت إلى خطر مثل هذا الأمر على عموم السياسة البريطانية في الشرق. ودعت إلى أن تفتح بريطانية عيونها جيداً في مسألة مد خط سكة حديد إلى الكويت، لأن ألمانية لن تتردد في استخدام السلاح إذا ما أحيلت دون تحقيق هذا الهدف[٣١]. لقد بلورت الصحافة آنذاك الرأي العام حول مجمل القضايا التي تهمُّ الدول الأوربية، ولعبت دوراً مهماً في تضخيم الأحداث آنذاك.

كانت محاولات ألمانية في أن يكون لها نفوذٌ ما في رأس الخليج العربي مستمرة رغم كل العراقيل التي وضعتها بريطانية في وجهها. ورأت أن نشاطها البحري في المواصلات والملاحة لن يكون مجدياً ما لم يرتبط بالخط البري المقترح "سكة حديد بغداد برلين- الكويت". ولذلك عمدت بريطانية إلى أن تكون حصتها في إنجاز المشروع مرتبطة بنهايته في الخليج العربي، لكي تقطع الطريق على مجمل الإستراتيجية الألمانية المتعلقة بالخليج العربي، من خلال السيطرة على الجانب الأهم من المشروع، وبأمر مفروغ منه ولا يمكن التنازل عنه[٣٢].

إن أهمية المشروعات الألمانية تكمن في السيطرة على حركة النقل في الخليج العربي تمهيداً للاستيلاء على عموم النشاط التجاري. وقد لوحظ بأن الألمان يولون هذا الأمر أهمية قصوى لكي يمكنهم هذا الوضع من السيطرة على التجارة القادمة من بلاد فارس، ولتوضع طرق الهند- بعد ذلك - تحت يد الألمان القادمين إلى الشرق. وحينما سعت بريطانية لأخذ المبادرة في تنفيذ مشروع سكة حديد الخليج العربي؛ فإنها بذلك حمت تجارتها في فارس والهند. وظهر هذا الوضع في مجمل المراسلات التي كان يقوم بها وكلاء بريطانية في الخليج العربي لتنبيه حكومتهم[٣٣]. أما ألمانية، فقد قبلت

بهذا الوضع على مضض، وبخاصة إدارتها في الخليج العربي. بيد أنها كانت تضع الخطط لتغيير وضعها بشكل متواصل.

تَبَيَّنَ هذا الوضع بقيام بنك الدوتش Deutsch Bank بتمويل مشروع سكة حديد الأناضول (وهو ذات البنك الذي موّل عمليات استثمار شرق أفريقية، وكذلك قيام شركات ألمانية في الخليج العربي)، من خلال إنشاء شركة سكة حديد الأناضول العثمانية. Ottman Anatolian Railroad Co(٣٤). لكن الجهود لم تثمر عن النتائج المرجوة، فقد فشلت ألمانية في أن تكون الكويت نهاية خطها الحديدي المزمع إقامته.

نسّقت ألمانية مع الدولة العثمانية أعمالها لتكون خور الزبير نهاية لخط سكة الحديد بدلاً عن الكويت، ولهذا فقد ساعدت العثمانيين على بناء دائرة للبريد في خور عبد الله عام ١٩٠٢. زار قائد السفينة البريطانية سفينكس Sphinx المنطقة وقدم تقريراً حول مشاهدته للنشاط العثماني – الألماني فيها. وذكر أن الأتراك قاموا ببناء قلعة في أم قصر، ووضعوا فيها حوالي عشرين رجلاً من الحرس كقوة للمراقبة، تمهيداً لتوكيد وجودهم في جزيرة بوبيان، ذات الموقع الحيوي في رأس الخليج العربي. وقد تساعد- كما أورد قائد السفينة في تقريره- المهندسون الألمان الذين ظهروا في منطقتي خور الزبير وأم قصر(٣٥).

وفي الواقع، أن ملاحظات المسؤولين البريطانيين ومراسلاتهم كانت مجرد رصد لحركة الألمان، لأن بريطانية قد أكدّت هيمنتها على الدولة العثمانية، منذ التوقيع على معاهدة عام ١٩٠٣، التي تضمنت بنوداً تسمح لبريطانية في بناء نهاية خط سكة الحديد، فضلاً عن اضطلاعها بنقل البضائع في البحر وإشرافها على نقاط المراقبة البحرية(٣٦).

إن ذلك الوضع جعل بعض إداريي بريطانية في منطقة الخليج العربي يرون: "أن موطئ القدم الألماني Foot Hold مجرد مزحة" إذا ما قورن بالوجود والهيمنة

البريطانيتين. فكتب القنصل البريطاني وارتسلو Wartislow في البصرة للفترة ١٨٩٨-١٩٠٣: "إن هيمنة بريطانية على التجارة - في الخليج العربي - لها حصة الأسد وأن شركاتها مُؤسسة بشكل راسخ."[٣٧].

وتمثل هذا الرسوخ الشكلي في سلسلة الأعمال التي قامت ضد النشاط الألماني في البصرة والفاو على وجه الخصوص. فقد دأبت سفن الدورية البريطانية في شط العرب على إخضاع السفن الداخلة إلى النهر إلى الحجر الصحي والتفتيش بحجة حماية النهر من أعمال "القرصنة". لكنها في الواقع كانت تراقب نشاط الألمان في النهر وحوض الكارون. لاسيما بعد قيام المهندسين بإزالة الحاجز الغريني قرب ميناء الفاو ليتسنى للبواخر الألمانية الكبيرة الحجم[٣٨] الملاحة فيه.

وجدت كلٍ من روسية وبريطانية في عام ١٩٠٧م ضرورة الحد من النفوذ الألماني في آسيةِ. ولذلك قررتا تسوية خلافاتهما حول توزيع مناطق النفوذ وبخاصة في إيران وأفغانستان والتبت[٣٩]. إلا أن الألمان أظهروا اهتماماً واضحاً مما يسمى بالمسألة الفارسية Persian Question[٣٩]، فأرسلت ألمانية إلى بلاد فارس القنصل الأمير الفون روس Ruess، الذي ارتبط في طهران بعلاقة خاصة مع الحزب الديمقراطي الإيراني الذي يُعدّ من أكثر الأحزاب الإيرانية مناوئة للنفوذين الروسي والبريطاني على حد سواء[٤٠]. لكن جهود الفون روس لا يمكن مقارنتها بمجمل الأعمال التي اضطلع بها فاسموس Wassmuss[٤١].

اتصل فاسموس بالقبائل الفارسية المؤثرة على سير الأحداث السياسية في فارس وبخاصة قبائل القاشقاني والتنكستي والبختيارية. وقد عمل على تركيز اتصالاته وتنسيق أعمالها بشكل واسع مع القبائل البختيارية ذات القوى المؤثرة في بلاد فارس وفي نجاحه في بلاط الشاه. كان الهدف الألماني في هذه الحقبة هو جعل إيران جسواً للوصول إلى أفغانستان، لإثارة الشعور العام ضد الإنكليز والروس في البلدان الإسلامية الرازحة تحت السيطرة الاستعمارية البريطانية[٤٢].

ارتابت بريطانية من نشاط فاسموس في منطقة الخليج العربي وإيران. وكان قد اتخذ له مترجماً يدعى سيد مرتضى. وفي عام ١٩١٣ وفي خضم النشاطات المتعلقة بمشروع سكة حديد بغداد، اتصل فاسموس ببيرسيي كوكس المقيم البريطاني عارضاً رغبته في التباحث، بشأن وصول السكة الحديدية إلى البحر. لكن كوكس ارتاب من نواياه ضد بريطانية وأخبره أن الإدارة البريطانية في المنطقة لا ترغب في تدخل فاسموس في شؤون الخليج، مع ذلك فالدعاية الألمانية ضد بريطانية ازدادت بأمر من فاسموس[٤٣]، ووصل بها إلى الذروة من خلال تحريض القبائل في حوض الكارون ضد الإنكليز، وبخاصة قبيل نشوب الحرب العالمية الأولى. ولم يلبث أن نقل نشاطه – كما هي الخطة الألمانية في تطويق الوجود البريطاني في الهند – إلى أفغانستان، وخطّط إلى بعثة ألمانية لهذا الخصوص[٤٤].

تكوّنت البعثة من الملازم بندر ماير رئيساً لها والهر "فون هنتيخ Hentig" سكرتير قسم المفوضيات في وزارة الخارجية الألمانية، فضلاً عن عدد من المسؤولين العثمانيين وبعض قادة الحركة الوطنية في الهند المقيمين في برلين من أمثال كورما هندرا براتاب وبركة الله. لكن البعثة فشلت عن تحقيق أهدافها، على الرغم من مقابلتها للأمير حبيب الله حاكم أفغانستان ولم تستطع زج أفغانستان ضد بريطانية[٤٥].

إن اندلاع الحرب العالمية الأولى ١٩١٤-١٩١٨ وضعت النشاط الألماني في منطقة الخليج العربي وإيران أمام مهام جديدة، تمثّلت في سلسلة النشاطات التي قام بها فاسموس ضد الوجود البريطاني[٤٦]. وهكذا انطوت صفحة من النشاط الألماني في الخليج العربي والشرق بشكل عام. لكن منطقة الخليج بقيت في أذهان القادة الألمان الجدد الذين جاءوا إلى السلطة بعد استيلاء أدولف هتلر على السلطة عام ١٩٣٣ وقيام الرايخ الثالث الألماني بوضع خطط واستراتيجية أخرى تجاه الشرق والخليج العربي.

خاتمة:

وقع الخليج العربي ضمن خط ألمانية في الاندفاع نحو الشرق، وكانت منطقة شرق أفريقية المحطة الأولى في حركة الألمان باتجاه الهند، مركز الاستعمار البريطاني الأساسي، استخدمت ألمانية أسلوبين في الوصول إلى الهند: بري تمثل في مشروع إنشاء خطة سكة حديد بغداد برلين حيث ينتهي الخط في الكويت، وبحري من خلال إقامة شركات نقل تجارية في أكثر مناطق الخليج العربي أهمية، تكون استكمالاً لخط المواصلات البري؛ وبذلك تكون ألمانية قد طوقت الوجود البريطاني في منطقة الشرق الأوسط عموماً.

وإذا كانت ألمانية قد فشلت في تحقيق هدفها النهائي "الوصول إلى الهند" وإثارة الشعوب الإسلامية ضد السيطرة البريطانية، إلا أنها في الواقع شكلت تحدّياً حقيقياً لتلك السيطرة التي استمرت مئات السنين، وأعطت لمنطقة الخليج العربي – مفتاح الطريق إلى الهند – أهمية جديدة بعد المحاولة النابليونية إبان غزو مصر عام ١٧٩٨-١٨٠١.

استطاعت ألمانية النفاذ إلى الشرق ومنطقة الخليج العربي عبر العديد من الثغرات التي حرصت الإدارة البريطانية على سدَّها، وهذه الحقيقة تؤكّد على أن قوى الاستعمار البريطاني لم تكن على هذا الجانب من القوة والسيطرة اللتين حرص الكتّاب الإنكليز ومن دار في فلكهم على ترسيخها في الأذهان، فالاندفاع الألماني السريع والقدرة على إيجاد المراكز للانطلاق، يعدّ دليلاً على هشاشة الوجود البريطاني في الشرق آنذاك.

المصادر

وثائق غير منشورة:

I.O. R: India Office Records and Library

L/R+S/10/57.

L/P and S/18/B/66a.

وثائق منشورة:

-Anderson, M.S, **The great Powers and the Near East 1914-1923**, Documents of Modern history, first pub; (London, 1970).

Arabian Boundaries- **primary Documents 1853-1957** (Archive Edition, 1980) m vol.I.

الكتب العربية والمصرية:

- إبراهيم، د. عبد الله عبد الرزاق، **المسلمون والاستعمار الأوربي لأفريقية** (الكويت، ١٩٨٩) .
- الدسوقي، د. محمد كمال، **تاريخ ألمانية** (القاهرة بلا تاريخ).
- النجار، د. مصطفى وآخرون، **تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر**(جامعة البصرة، ١٩٨٤).
- رفلة، د. فيليب، **الجغرافية السياسية الأفريقية** (القاهرة، ١٩٦٦).
- شويل، د. فوزي خلف، **إيران في سنوات الحرب العالمية الأولى** (جامعة البصرة، ١٩٨٥).
- لنشوفسكي، جورج، **الشرق الأوسط في الشؤون العالمية** ترجمة: جعفر خياط(بغداد، بلا تاريخ).

- رِنوفَن، بيير، **تاريخ القرن العشرين**، تعريب: د. نـــور الديـــن حـــاطوم (لبنـــان، ١٩٦٩).

الكتب الأجنبية:

- AL-Maamiry, Ahmed Hamoud, **Oman and East**, Africa, First Ed., (New Delhi, 1979)
- **Annalen des deutchen Reichs** (1911, Zan).
- Buch, Briton Cooper, **Britain and the Gulf** (University of California Press 1967)
- Coupland, Sir Reginald, **The Exploitation of east Africa** 1856-1890.
- **The Slave trade and the scramble** (London, 1968).
- Grave, Philip. **The life of Sir Percy Cox**, Sec. Imp., (London,1991).
- Hurewitz, **The middle East and North Africa in world Politics, A** document Records (London, 1975).
- Izzard, Molly, **The Gulf, Arabian western Approches** (London, 1979).
- Kumar, Ravinder, **India and the Gulf region 1858-1907** (India, 1965).
- Lorimer, J.C., **Gazatter of the Gulf and Cental Arabia** (Calcutta, 1915) Vol. I. Part II.
- Leslie, Shane, **Mark Sykes: His life and letters** (London, 1923).
- Marlow, John, **The Gulf in 20" Century** (London, 1962).
- Middeton, **John and Jans Campell, Zinzibar It's society and It's Politics** (London- New York, 1965).
- Riesser, **Dr "Die deutschen Gross banken and ihre knozentration in zusammenanye der Gesamt wirt Schult in Deutschland** (4AFII, 1912).

- Reuch, Richard, **History of East, east Africa** (New York, 1916)
- Sykes, Brigader- **General Sir Percy, A history of Persia** (London, 1969) Vol. II.
- Sykes Christopher, Wassmuss- **The German Lawrence First** Pub. (London, 1936).

المجلات والدوريات:

- القشطيني، خالد، **الجـذور الأيديولوجيـة للعنصريـة الصهيونيـة، الصهيونيـة والعنصرية** – أبحاث المؤتمر الفكري حول الصهيونيـة – المجلـد الأول (بغـداد، ١٩٧٦).
- الأسدي، رياض جاسم، **التنافس البريطاني الفرنسـي للسـيطرة علـى عمـان ١٨٨٨-١٩٠٤**، مجلة الخليج العربي.
- المعاصر، د. يقظان سعدون، **الصراع الدولي وأثره في توقيع معـاهدة ١٨٩٩**، مجلة الخليج العربي. السنة العشرون العدد (٢-٤) ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.
- Haley, Charles D., **The Desperate Ottoman**: Enver pasa and the German Empire, **Middle Eastern Studies** vol. 30, Number I, Junury 1994.

رسائل جامعية غير منشورة:

Al- amir Yakthan Sadoun, **Great Britain and the Berlin Baghdad Railway** 1899-1903, M. A Thesis(Unversity of East Anglia, 1973).

المراجع والحواشي

١- أوتو إدوارد ليوبولد بسمارك Bismarck رجل دولة ودبلوماسي بروسي وألمـاني. عُيِّنَ مستشاراً للإمبراطورية الألمانية في ١٨٧١-١٨٩٠ للتفاصيل انظر: د. محمد كمال الدسوقي، **تاريخ ألمانية** (القاهرة بلا تاريخ) ص ٧٧-٩٧.

٢- بيير رنوفن، **تاريخ القرن العشرين**، تعريب: د. نور الدين حاطوم(لبنان، ١٩٦٩) ص ١٢.

٣- للإطلاع على نمو الاقتصاد، انظر:

Annalen des deutschen Reiehs (1911, zan) s. 17.

٤- ظهرت النزعة الاستعلائية الألمانية في كتابات يوهان تموتيلب فيخته الذي أكـد على ضرورة أن تبقى الأمم منفصلة بعضها عن البعض الآخر، وكذلـك كتابـات هنريخ فون تريتشكه الذي لعب دوراً حاسماً في بلورة الفكر التاريخي بعد ذلـك. للتفاصيل راجع: خالد القشطيني، **المذكرة الإيديولوجية للعنصريـة الصهيونيـة**، المجلد الأول (بغداد، ١٩٧٦)ص ١٥-٢٨.

٥- لتفاصيل الدور الفرنسي في الخليج: رياض جاسم الأسدي، **التنافس البريطـاني- الفرنسي للسيطرة على عمان ١٨٨٨-١٩٠٤م** بحث مقبول للنشر فـي مجلـة الخليج العربي.

6-Ravinder Kumar, **India and the...Gulf region** 1858-1907(India, 1965) p. 143

7-Sir Rginald Coupland, **the Explotation of East Africa 1856-1890, the Slave trade and scramble** (London, 1968) p.9

٨- د. عبد الله عبد الرزاق ابراهيم، **المسلمون والاستعمار الأوربي لأفريقيا** (الكويت، ١٩٨٩) ص ١٨-٢٠.

٩- السلطان برغش بن سعيد (١٨٥٦-١٨٨٨) للتفاصيل:

AL-Maamiry, Ahmed Hamoud, **Oman and East Africa**, First Ed. (New Delhi, 1979) pp. 34-5

10- John Middleton and Jane Campbell, **Zinzibar, it's Society and it's politics** (London, 1965) p55

11- Coupland, **Op. Cit**, pp.192-193

١٢-يقضي مؤتمر برلين بأن تكون الأرض التي يضع المستكشفون يدهم عليها تابعة إلى دولة جنسية المستكشفين. وهكذا بدأ نوع من التسارع في إعلان الأراضي التابعة للدول الأوربية. للتفاصيل انظر: د. فيليب رفلة، **الجغرافيا السياسية الأفريقية**، ط٢، (القاهرة، ١٩٦٦) ص ٢٤-٢٥.

13- J. Middleton, **Op. Cit**,, p.6

14- Richard Rench, **History of East Africa** (New York, 1961) p.289.

15- Coupland, **Op. Cit**, pp.400-4

١٦- فيليب رفلة، **المصدر السابق**، ص ٢٥.

17- Britain cooper Buch, **Britain and the... Gulf** 1894-1914(University of California press, 1967) pp.349, 352

18- J.G. Lorimer, **Gazetter of the ...Gulf and Central Arabia** (Calcutta, 1915) vol . I. Part II, p2692.

19- Brigadier – General Sir Percy Sykes, **Ahistory of Persia**, Third Ed. (London, 1969) vol . II, p432.

20- Lorimer, **Op. Cit**, vol. I , part I, p. 346.

21- Buch, **Op. Cit**, p. 352

22- Sykes, **Op. Cit**, p . 433.

23- 21- Buch, **Op. Cit**, p. 355

٢٤- للتفاصيل عن اتفاقية ١٨٩٩ والظروف الدولية حولها ، انظر: د. يقظان سعدون العامر، **الصراع الدولي وأثره في توقيع اتفاقية ١٨٩٩**، مجلة الخليج العربي السنة العشرون – العدد (٢-٤) ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م، ص ١١-٣٤.

25- **Ibid**, p.p 357- 8

26- **Ibid**, p.p 369.

27- Shane Leslie, **Mark Sykes: His life and letters** (London, 1923) p. 237

٢٨- عن قضايا الصراع الدبلوماسي في أروقة الدولة العثمانية ودور ألمانية انظر:

Carles D. Haley, the Derate Ottoman: **Enver pasa and the German Empire**. Middle Eastern studies vol . 30, Number I , January 1991 , p. 32.

٢٩- لمزيد من التفصيل حول سكة حديد بغداد برلين، يراجع:

Al-amir Yakthan Sadoun, **Great Britain and the Berlin Baghdad Railway 1899-1903.** Unpublished. M. A. Thesis (University of East, Arglia, 1973).

٣٠- حميد أحمد حمدان التميمي، **البصرة في عهد الاحتلال البريطاني ١٩١٤-١٩٢١. دراسة تاريخية وثائقية للأوضاع السياسية والعسكرية والإدارية والاقتصادية**، رسالة ماجستير غير منشورة (البصرة ، ١٩٧٩) ص٣٠-٣١.

31- L. O. R. lo p+s/10 o 57, Times 14 December 1909 .p. 112.

32- I. O. R. L/P+s 110/57, Sir F. Bertic to Sir Edward Grey, Received November 22 1909, p.176.

33- I. O. R, L/R+s 110/ 57 **Minutes by Sir C. Hardding and Sir E. Grey** (Foreign Office, November 19,1909) p. 178.

34- M. S. Anderson, **The gread Powers and the Near East** 1774-1923, Documents of modern history, first published (London, 1920) pp. 142-3 .

35- I. O. R. L/P and s o 18 o B o 66 a **form A. Godley to Brodrick a secretary Government of India** pp. 131-5.

36- J. C. Hurewitz, **The Middle east and north Africa in world politics**, A documentory Records (London, 1975) vol I, p.580.

37- Molly Izzard, **The Gulf, Arabia's western Approaches** (London, 1979) p.153

٣٨- د. مصطفى النجار وآخرون، **تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر** (جامعة البصرة ، ١٩٨٤) ص١٥٠.

٣٩- لمزيد من التفاصيل حول الموقف البريطاني من التطورات الدولية في إيران والخليج العربي، وتحليل اللورد كرزن، انظر:

Richard Scnofield and Gerald Blach, **Arabian Boundaries Primary** Documents 1853-1957 (Archive Edition, 1980) vol . I. Curzon Aralysis p. 59-63.

٤٠- جورج تشوفسكي، **الشرق الأوسط في الشؤون العالمية**، ترجمة: جعفر خياط (بغداد، بلا تاريخ) ص٦٧.

٤١- ولد فاسموس الذي دعي بلورنس الألمان عام ١٨٨٠ في مقاطعة ساكسوني Saxony في ألمانية، وفي عام ١٩٠٦ رحل مع بعثة للخدمات الطبية إلى مدغشقر، ثم استدعي إلى برلين ليرسل بعد ذلك نائب قنصل في بوشهر للتفاصيل عن حياته وأعماله. انظر:

Christopher Sakes, Wassmuss, **The German Lawrence**, frist pub (London, 1936) .

42- John Marlowe, **The persion Gulf in 20" Century** (London, 1962) p, 45;

لنشوفسكي، المصدر السابق، ص ٧٣.

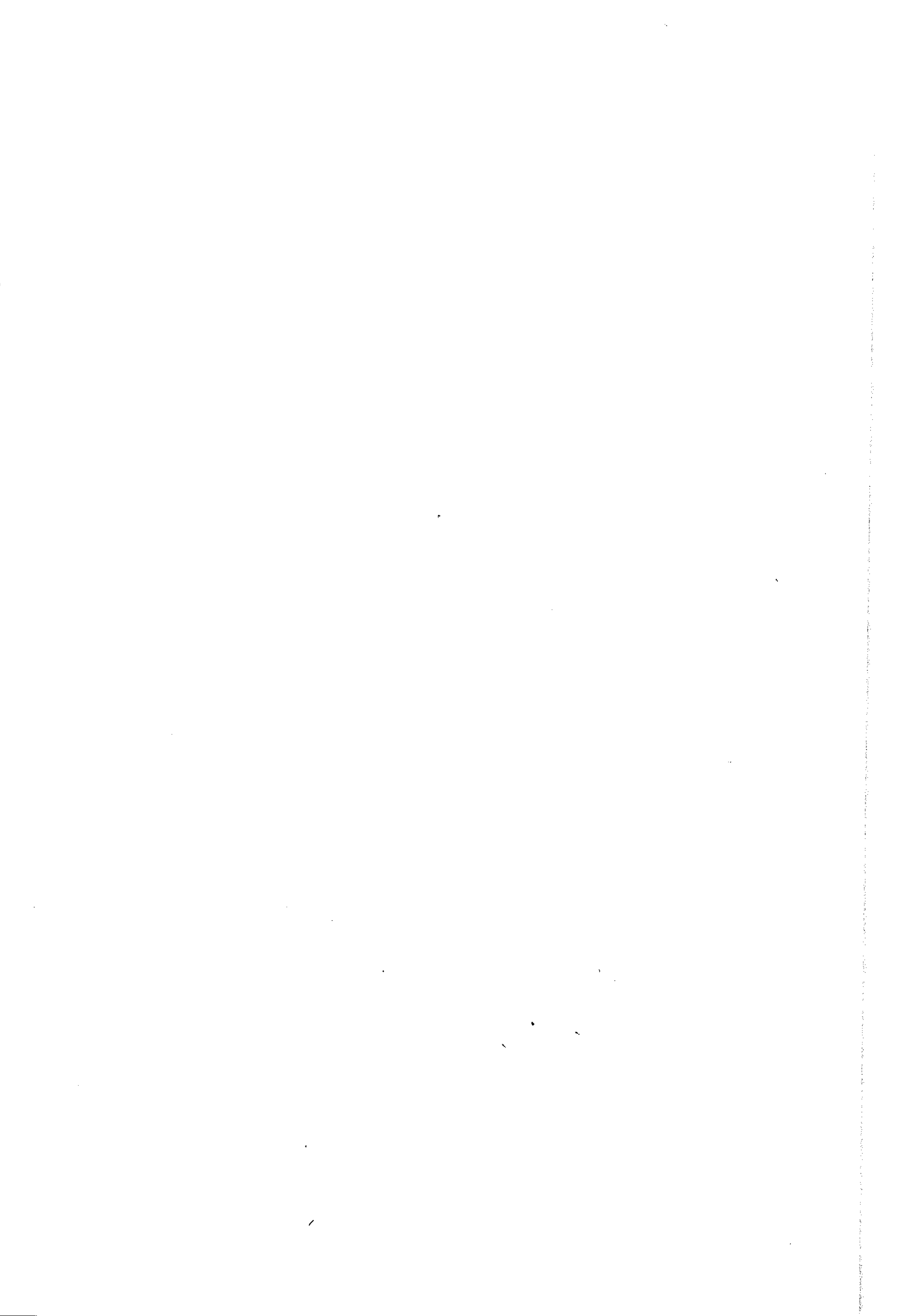
43- Phillip Graves, **The life of Sir Percy Cox**, sec. Imp., (London, 1914) pp. 173-188.

٤٤- للتفاصيل انظر: فوزي خلف شويل. **إيران في سنوات الحرب العالمية الأولى** (جامعة البصرة، ١٩٨٥) ص٣٢٩.

٤٥- لنشوفسكي، **المصدر السابق**، ص ٧٧.

٤٦- استطاعت القوات البريطانية بقيادة مارك سايكس محاصرة دار القنصلية في بوشهر وقبضت على فاسموس كأسير حرب، ووصل ألمانية في خريف ١٩١٩ بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، ثم أصبح بعد ذلك من أكبر وكلاء ألمانية في الشرق وعاد اتصاله بالقبائل في إيران. وفي عام ١٩٢٤ عاد إلى بوشهر مع زوجته ليخطط لأعمال جديدة. للتفاصيل:

M. Izzard, **Op. Cit.** , pp. 176-7.



مظالم جمال باشا في بلاد الشام بعد فشل حملة السويس، وأثرها في قيام الثورة العربية

الدكتور حكمت اسماعيل

مظالم جمال باشا في بلاد الشام بعد فشل حملة السويس، وأثرها في قيام الثورة العربية

تمهيد:

كان العرب مبعدين كلياً عن أمور الحكم في العهد العثماني. وإذا كان عامة العرب، التي كانت ترزح تحت حكم إقطاعي رهيب، لا تفكر بالسياسة وأمور الحكم، بل كانت تئن من شدة الظلم، وتنتفض أحياناً ضد الظالمين دون تحقيق أي نجاح، فإن الخاصة من العرب، أي المثقفين على قلتهم، كانت ناقمة على احتكار الأتراك شؤون الحكم والإدارة.

وقد ذكر المؤرخ، الرحالة، والسفير المغربي، أبو القاسم الزياني ذلك، فأورد أن أعيان العرب وعلماءهم رفعوا إلى الصدر الأعظم عريضة ذكروا فيها كيف عامل العرب، حين كانت مقاليد أمور الدولة في أيديهم، المسلمينَ من غير العرب، فأشركوهم في مختلف مناصب الحكم والإدارة، في حين أن الأتراك حرموا العرب من أية مشاركة في هذه الأمور، وقد كان الرد التركي سلبياً " .فأقنعوا بما ترزقونه في الملازمة والتدريس، وما تنتفعون به من الكتابة والصحبة لكل رئيس "[١].

وفي القرن التاسع عشر، بدأ عصر النهضة العربية. بدأ في مصر أولاً، وفي تونس ثانياً[٢]، منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر، وفي النصف الثاني من هذا القرن شملت النهضة معظم الأقطار العربية، نتيجة لانتشار المدارس الحديثة في عصر التنظيمات، وكثرة الاحتكاك بالغرب المتقدم. وانتشرت الطباعة وبخاصة في القاهرة وبيروت، التي ساعدت على إحياء التراث العربي، كما برز دور الصحافة في القاهرة وبيروت[٣].

وظهرت الجمعيات الأدبية والعلمية والاجتماعية. وظهر جيل من المثقفين يجمع بين الثقافة الغربية والثقافة العربية. ظهر هؤلاء في عصر الطغيان الحميدي، وانصب جهدهم على محاربة الاستبداد والأخذ بمبادئ الحرية والحكم الدستوري، حيث السيادة والسلطة للشعب. برز من هؤلاء عبد الرحمن الكواكبي، وفتح الله مراش، وشبلي شميل، ورزق الله حسون، وفرح انطون، وأديب اسحاق، وغيرهم[٤].

شارك الضباط العرب الضباط الأتراك في قلب نظام السلطان عبد الحميد الاستبدادي، واستبشر العرب خيراً في هذه الثورة. وأدت مشاركة ممثلين عرب في مجلس المبعوثان[٥]، وقيام الجمعيات ذات الطابع السياسي[٦]، إلى ظهور الوعي القومي العربي لدى شريحة متزايدة. ورغم القلق الذي بدأ يساور النخبة العربية من تصرفات الاتحاديين الخاضعين للنفوذ الماسوني اليهودي العنصري، فإن الرابطة الدينية والخطر الأجنبي المتصاعد، دفع العرب إلى حصر مطالبهم باللامركزية، واعتبار اللغة العربية لغة رسمية في البلاد العربية، وإبقاء المجندين العرب في البلاد العربية في حالة السلم. وخطر لبعض من الزعماء من العرب تحويل الدولة العثمانية إلى دولة اتحادية، شبيهة إلى حد بعيد بالإمبراطورية النمساوية المجرية[٦مكرر].

وظهر موقف هذه الجمعيات واضحاً في مؤتمر باريس ١٩١٣، حيث اكتفى المؤتمر بالمطالبة بمشاركة العرب في الإدارة المركزية اشتراكاً فعلياً، وأن تنشأ في كل ولاية عربية إدارة لا مركزية، وجعل اللغة العربية لغة رسمية في الولايات العربية، وأن تكون الخدمة العسكرية محلية في الولايات العربية، إلا في الظروف الاستثنائية.

حاول الاتحاديون منع انعقاد المؤتمر ولكنهم فشلوا، ودفعهم فشلهم إلى التظاهر بالتجاوب مع مقرراته، ولكنهم ما لبثوا أن نكثوا بعهدهم.

أتاح قيام الحرب العالمية الأولى، ودخول تركية الحرب، إلى جانب ألمانية والنمسة-المجر فرصاً ثمينة لقيام تعاون وثيق، على أساس الاستجابة الفعلية للمطالب العربية، وإلا فالقطيعة التامة.

وقد أدت سياسة الاتحاديين العنصرية، سياسة جمال باشا في بلاد الشام إلى القطيعة التامة، وإلى انحياز العرب إلى المعسكر المعادي للأتراك.

جمال باشا في بلاد الشام:

على أثر نشوب الحرب العالمية الأولى، واشتراك الدولة العثمانية فيها في تشرين أول ١٩١٤، توقفت المفاوضات مع الترك ودخلت القضية في مرحلة جديدة، جرت أحداثها في منطقتي الهلال الخصيب، وشبه الجزيرة العربية..فقد وجد العرب أن بلادهم قد جرّت إلى حرب لا يرغبون فيها، وأصبح من الواضح أن الإمبراطورية العثمانية على وشك الانهيار، فكان لا بد من التفكير في مصير بلادهم. وانقسمت آراء القوميين العرب السياسية في هذا المجال، إذ بينما رغب البعض في تأسيس دولة مستقلة، معتمدين على جهودهم الخاصة، رغب البعض الآخر في تحقيق هذا الهدف بمساعدة خارجية، وبقيت فئة أخرى على تمسكها بالدولة العثمانية، خوفاً من الأطماع الأوروبية، ولكن الظروف التي اكتنفت سنوات الحرب، دفعت بالحركة العربية إلى أن تأخذ اتجاهاً آخر، يبعدها عن الدولة العثمانية. فقد عُيِّنَ جمال باشا، أحد أقطاب الاتحاديين، قائداً للجيش الرابع في الشام، ومُنِحَ صلاحيات مطلقة في حكم سورية الطبيعية، للقيام بهجوم على القوات الإنكليزية المرابطة على قناة السويس، وإعادة الأمن، والنظام إلى سورية(٧).

لقد أصبحت سورية ذات أهمية عظمى بعد اشتراك الدولة في الحرب، بسبب الحصار البحري الذي ضربه الحلفاء على السواحل، لم يبقَ سبيل للمواصلات بين الأناضول وسائر بلاد العرب، إلا بواسطة الطرق البرية. فولاية البصرة، وبغداد، والموصل، تعتمد على طريق حلب، وسائر أرجاء الجزيرة العربية تعتمد على الطرق المارة بدمشق.

ومن هنا رأى مجلس الوزراء العثماني أن يعهد بالمحافظة على هذه المنطقة المهمة، ذات الشرايين الحيوية إلى قائد قوي الشكيمة، مع منحه سلطات فوق العادة، يستطع بواسطتها أن ينظم المسائل الإدارية، والاقتصادية، وفق متطلبات الحركات العسكرية. وقد وقع الاختيار على جمال باشا[٨]، الذي رُوِيَ أن الصفات المطلوبة تتوافر في شخصه.

دعا أنور باشا جمالاً، وناشده باسم الوطن أن يوافق على تولي قيادة الجيش الرابع في سورية، وتنفيذ عملية هجوم على قناة السويس، ووافق جمال على عرض زميله أنور، ثم غادر أستانبول يوم ٢١ تشرين الثاني ١٩١٤ قاصداً سورية، وقد وصلها بعد بدء الحرب بسبعة أشهر، حيث وصل دمشق يوم ٥ كانون الأول عام ١٩١٤، وبموجب السلطات الواسعة التي أعطيت له، ظل يحكم سورية بموجبها مدة ثلاث سنوات حكماً يكاد يكون مطلقاً[٩].

وكانت قيادة الجيش الرابع، التي اتخذت مقرها في مدينة دمشق، تمتد بنفوذها على جميع البلاد العربية، (فتشمل من الناحية العسكرية والإدارية، ولايات: أضنة وحلب والشام وبيروت وجبل لبنان والقدس والحجاز) أي مقاطعات كليكية وسورية ولبنان وفلسطين والحجاز، وجزء من جنوب الأناضول.

وقد عينت الحكومة العثمانية في هذه القيادة أول الأمر زكي باشا الحلبي[١٠]، الذي كان أحد الضباط القلائل ممن يحملون رتبة لواء في الجيش العثماني، وهو خريج الكلية العسكرية العالية في ألمانية. وقد تمت التعبئة العامة في عهده، والإشراف على وضع الخطط العسكرية في هذه المنطقة، وبعد فترة قرر زعماء الاتحاديين تعيين جمال باشا مكانه، وأرسل إلى ألمانية بصفة مندوب عسكري لدى القيادة العامة الألمانية، وذلك في ٥ كانون أول ١٩١٤، وهو اليوم الذي وصل فيه جمال باشا إلى سورية[١١]. والسبب في اتخاذ هذا الإجراء هو أن زكي باشا اعتذر عن الموافقة على القيام بحملة

سيناء، وقناة السويس، إذ كان من رأيه أنه من المستحيل نجاح الحملة بالاستعدادات العسكرية، التي كانت الدولة العثمانية تمتلكها حينذاك. وأشار إلى مد خط سكة الحديد في الطريق التي سيسلكها الجيش الزاحف، لضمان تموينه وإرسال التعزيزات، وكان زكي باشا يرى أن هجوماً دون استعدادات كافية، لن يكون نصيبه إلا الفشل الذريع[١٢].

وفي مذكرات عزيز بك، رئيس مخابرات جمال باشا، يوضح أسباب اختيار جمال باشا لقيادة الجيش الرابع في سورية فيقول: كان في سورية في بداية الحرب زكي باشا كقائد للجيش الرابع، وكان شريفاً حيادياً، وهذه الصفات لا تروق للقابضين على زمام الحكم في السلطنة العثمانية، وإنهم يريدون أن يكون على رأسها شخص يعرف كيف ينفذ إرادتهم، ويقضي تماماً على الفكرة العربية، فقرروا استبدال جمال باشا به[١٣]، لما لجمال باشا من صفات البطش، فهو الذي دبر مذابح الأرمن في أدرنة، بعد إعلان الدستور، كما أنه كان مدير فرع الجواسيس والفدائيين في جمعية الاتحاد والترقي[١٤].

ويؤيد هذا نبذة مختصرة وردت في مذكرات جمال باشا، في سياق ذكر أسباب اختياره قائداً لسورية، جاء فيها: أن أنور باشا قال له إن الأنباء الواردة من سورية تدل على وجود هياج داخل البلاد، مضافاً إلى ذلك النشاط العظيم الذي يبديه القوميون العرب. وزكي باشا لا يريد القيام بحملة السويس، ويطلب مطالب كثيرة، ونجدات كثيرة، لحماية سورية ضد إنزال قوات من البحر، وأنه أي جمال باشا- هو الرجل الذي يمكنه أن يسد الفراغ، وهو قادر على تحقيق المقاصد[١٥].

أخذ جمال باشا منذ اليوم الأول الذي غادر فيه الأستانة إلى دمشق، يشير بخطبه وشتى تصريحاته، إلى ضرورة تعزيز الصلات بين العرب والترك، وإلى حسن النوايا الحكومية العثمانية إزاء البلدان العربية. وقد ألقت هذه الخطب موقعها الطيب في

نفوس العرب. ولذا ما كاد يصل إلى دمشق حتى استقبل بقلوب ملؤها الحماس، مأخوذين بمظاهره الودية حيال القضية العربية من ناحية، وخوف رجالات العرب على بلادهم من ناحية أخرى، أن تذهب فريسة الاستعمار الغربي، إذا كتب النصر للحلفاء[١٦].

ووصف جمال باشا نفسه ترحيب أهالي سورية، فقال: إنهم أظهروا وطنية كبرى وإخلاصاً، وقد امتلأ قلبي سروراً، إذ رأيت وشعرت أن غالبية العرب لا تحجم عن بذل ما يطلب منها من التضحيات، في تلك الحرب لتحرير الخلافة الإسلامية[١٧].

وبمجرد وصول جمال باشا دمشق، جعل مسكنه الخاص في بعض غرف فندق داماسكوس بالاس، المتخذ لقيادة الجيش العليا. وتظاهر بأنه من أنصار العروبة، وسعى لاستمالة الإصلاحيين، واتصل برجالهم وزعمائهم، وقربهم إليه، واتخذ من أحدهم، عبد الرحمن الشهبندر، طبيباً خاصاً له، وأصبح عبد الكريم الخليل قريباً جداً من جمال باشا، خاصة بعد أن أخذ هذا المناضل يجمع المتطوعين من طائفته (الشيعة) في جهات صور، وصيدا، للدفاع عن السواحل ضد كل غزو يحتمل أن يقوم به الأعداء. ودفع محمد كرد علي مبلغاً كبيراً من المال باسم جريدته (المقتبس)، وجاد بمثل ذلك على عبد الغني العريسي، صاحب جريدة (المفيد)، وكلا الجريدتين من أعظم صحف الإصلاحيين يومئذٍ، فانضمتا إلى الحكومة عملاً بالخطة المرسومة[١٨].

وقد جاء في أول خطاب ألقاه جمال باشا في دمشق، ما جعل الزعماء العرب يركنون إلى حسن نواياه، إذ قال: "إن الأماني التركية، والأماني العربية، لا تتعارضان مطلقاً، فالترك والعرب ليسوا سوى إخوان في غايتهم الوطنية". ولما انتهى من خطابه، أنشد الشباب العرب بعض الأناشيد الوطنية الحماسية، فاستاء جمال باشا من هذه المظاهرة العربية، وتناسى ما كان قاله في خطابه، ورغم ذلك كان جل توجيه اهتمامه إلى نجاح حملة السويس، فقد أصدر أمراً بحل كتيبة الاحتياط في دمشق[١٩].

وكان بعض الموظفين الأتراك قد داهموا قبل وصول جمال باشا بقليل- القنصليتين الفرنسيتين في بيروت، ودمشق، وفتشوهما، فعثروا على مراسلات، ووثائق بين الزعماء العرب والقنصل الفرنسي، وهذه الوثائق تدين بعض الشخصيات العربية، بأنهم يعملون تحت حماية دولة أجنبية، ومن أجل مصلحتها. وهناك أوراق أخرى صادرتها الرقابة العثمانية. وهي عبارة عن رسائل بعث بها حقي العظم، سكرتير حزب اللامركزية، من مصر إلى محمود المحمصاني في بيروت، بعد إعلان الحرب العظمى[٢٠].

ويقول جمال باشا إنه يوم وصوله إلى دمشق، سلمه خلوصي بك، والي سورية وثائق ضبطت في القنصلية الفرنسية، تدين عدداً من رجال سورية. إلا أن جمال باشا أراد أن يتغاضى عن هذا الموضوع، وصرف النظر عن اتخاذ إجراءات ضد المتهمين في الحال، رغبة كما يقول- في تجنب إيجاد صدع في الجبهة الإسلامية، وحتى لا يظن المسلمون في مختلف البلاد الإسلامية، كمصر والهند والجزائر والمغرب وغيرها، أن الأتراك ينتقمون من أجل ضمان سيادة الأمة الطورانية. لذلك أرجأ النظر في الموضوع مؤقتاً. واستدعى عبد الكريم قاسم الخليل، والدكتور عبد الرحمن الشهبندر، وعبد الغني العريسي، ومحمد كرد علي، وبسط لهم خطة الحكومة وشرح ضرورة انتصار الإسلام.

وقد أراد جمال تهدئة مخاوف المسيحيين في لبنان، فأعلن أن المقصود بأعداء الدين، هم الإنكليز والفرنسيين والروس، أما مواطنونا غير المسلمين، فهم إخواننا في وطن مشترك، ومصالح مشتركة، وسوف نعاقب بمنتهى الشدة من يحاول الإضرار بهم[٢١].

وأعلنت بريطانية في تلك الأثناء، أن مصر تحت حمايتها. كما أعلن الجنرال ماكسويل، في بلاغاته التي أصدرها بمقتضى الأحكام العرفية، انتهاء سيادة تركية على مصر، وخلع عباس الثاني، وارتقاء الأمير حسين كامل العرش، خلفاً له ومنحه لقب سلطان مصر[٢٢].

وقد اتخذ جمال باشا موقفاً مهادناً من الإصلاحيين، وخاصة المسلمين منهم، في تلك الفترة: نظراً لأن التحضير لحملة السويس باتت شغله الشاغل، حيث يقول: منذ وصولي إلى دمشق، بدأت بتحضير الحملة العسكرية على القناة، وقد ركزت كل جهودي على خلق جو من الحماس الديني، والوطني، في البلاد العربية. وقد نظمت بمساعدة الزعماء العرب، المدعوين بالإصلاحيين، مهرجاناً لهذا الهدف(٢٣).

واعتقد بأنه أدخل الثقة إلى نفوس الإصلاحيين، عندما قال: لقد أردت اتباع سياسة مصالحة، وعفو في سورية، وكان عندي ثقة كبيرة في الحزب الإصلاحي(٢٤)، لدرجة أنني لم أتردد في حضور عيد وطني في بعلبك، نظمه عبد الكريم قاسم الخليل، وحيث لم يرافقني سوى حارسي الشخصي، والوالي السوري(٢٥).

سياسة جمال باشا التعسفية بعد فشل حملة السويس:

فشل جيش جمال باشا بالهجوم الذي شنه على قناة السويس في ٥ شباط ١٩١٥، والذي شارك فيه الكثير من المتطوعين العرب، حتى أن ابن سعود، وابن الرشيد، زوداه بالجمَال من أقصى أعماق نجد. وأشاد جمال ببسالة الجنود العرب، الذين اشتركوا في الحملة، بقوله: وقد ساد بين رجال الحملة لا فرق بين الأتراك والعرب- شعور العطف الأخوي(٢٦).

وعاد جمال باشا إلى دمشق، بعد إخفاقه الذريع، وأخذ يشيع أنه لم يقصد من وراء هذا الزحف إلا أن يكون حركة للاستطلاع، والاكتشاف، وأنه سيتلوه، في الوقت المناسب، الهجوم الحقيقي(٢٧).

أدّى إخفاق جمال باشا في حملة السويس إلى البطش بالزعماء الإصلاحيين، في سورية إذ كانوا هم أكثر المواطنين ملائمة ليكونوا الضحايا التي تتحمل وزر إخفاقه وهزيمته. وبدأ ينفذ المشروعين، اللذين جاء يحملهما بالاتفاق مع طلعت وأنور. الأول:

إلغاء امتيازات متصرفية جبل لبنان، وإخضاع سكانها للسيادة العثمانية المباشرة، والثاني: القضاء على الفكرة العربية، التي اختمرت في النفوس، وتتريك العرب(٢٨). واتبع سياسة قمع، وإرهاب، ضد الزعماء العرب في سورية ولبنان، وعمد إلى اعتقالهم بالتتالي، وإحالتهم للمحاكمة أمام محكمة عسكرية، ألفها لهذه الغاية في بلدة (عالية) بلبنان(٢٩)، ورافق هذا الإرهاب(٣٠) مصادرة وفرض الإعانات للجيش، باسم التكاليف الحربية(٣١)، ونقل الكتائب العربية من بلاد الشام إلى مناطق بعيدة عن الجبهة، ونفي العائلات العربية(٣٢) إلى أقاصي الأناضول، مع مصادرة أملاكها وأراضيها. وزاد الأمر سوءاً انتشار المرض والمجاعة(٣٣). ويقدر انطونيوس أن ما أسهمت به سورية أثناء الحرب، لا يقل عن نصف مليون من الأرواح من مجموع شعب، لا يبلغ أربعة ملايين نسمة، بسبب الاعتقال، والمجاعة، والنفي، والخدمة العسكرية، والإعدام(٣٤). وكان جمال باشا يلقي التهم جزافاً على الجميع، تشويهاً لأسماء الرجال الوطنيين(٣٥).

وأخذ يحاكم المتهمين، الذين ورد ذكرهم في الوثائق(٣٦)، التي عثر عليها في القنصليتين الفرنسيتين، وصدر الحكم بإعدام ثلاثة عشر منهم، وبالحكم نفسه غيابياً على خمسة وأربعين آخرين، ممن كانوا خارج البلاد، أو كانوا قد فروا. كما حكم على عدد غيرهم بالسجن مدداً متفاوتة، وبالنفي، وكانوا جميعاً من الرجال البارزين، وبعضهم من الشخصيات المشهورة، وقد أرجأ تنفيذ الحكم في اثنين من الثلاثة عشر الذين حضروا المحاكمة، واستمعوا إلى الحكم الصادر بإعدامهم، أما الباقون، فقد نفذ فيهم الحكم، فجر اليوم الحادي والعشرين من شهر آب ١٩١٥، فنصبت إحدى عشرة مشنقة، في الميدان الرئيسي ببيروت، وبعلبك، وحماه، ودمشق، وجنين(٣٧).

ولقد أعدمت القافلة الأولى من الشهداء في بيروت في ٢١ آب سنة ١٩١٥. ويقول جمال باشا إنه في يوم من شهر أيار ١٩١٥، طلب من عبد الكريم الخليل أن يبين له السر في ولاء الإصلاحيين في سورية، بينما رفاقهم في مصر يشنون الحملات على

الحكومة العثمانية، فاضطرب عبد الكريم واقترح أن يسافر إلى مصر ليشرح سياسة جمال باشا في سورية، كي يحمل اللامركزيين على تغيير خطتهم. وقد ازداد ارتياب جمال عندما سأل عبد الكريم الخليل. كيف يستطيع الوصول إلى مصر. فأجابه هذا جواباً يدل إما على الثقة التامة، أو على السذاجة سأجد وسيلة للوصول إلى هناك[٣٨].

وغلى أثر هذه المحادثة، جاء الشيخ أسعد الشقيري، مفتي الجيش الرابع[٣٩]، وأنبأ جمال أن كامل بك الأسعد، نائب بيروت، يود أن يدلي إليه بمعلومات. وعندما استدعي هذا الأخير، لمقابلة جمال باشا في القدس، صرح له بأن رضا بك الصلح، وعبد الكريم الخليل، يقومان بتنظيم عصيان في جهات صور وصيدا. وبناء على الوشاية، أصدر جمال باشا أمره باعتقال أفراد القافلة الأولى من الزعماء والإصلاحيين العرب، وحولهم للمحاكمة، أمام المحكمة العسكرية، بتهمة "التحريض على الثورة المسلحة بمساعدة الأعداء"[٤٠]. ويوضح محمد جابر صفا، الذي كان موقوفاً بناء على وشاية مفتي الجيش، وكامل الأسعد، عن نشاط عبد الكريم الخليل في الجنوب (كان الخليل مفوضاً من قبل جمعية عربية)، اندمجت مع حزب اللامركزية، باشر هذا الأخير في ١٨ تشرين الأول ١٩١٤ في تأسيس فرع الحزب، يقوم برنامجه على اللامركزية، في صيدا، وصور، وبعض مناطق جبل عامل[٤١].

ولكن مما يثبت بصورة قاطعة، أن مسألة تنظيم العصيان لم تكن إلا ضربة كاذبة، هو أن كتاب "إيضاحات" الذي أصدره جمال باشا، بيّن فيه الحكم على الزعماء السوريين. أن وشاية كامل الأسعد لم تكن سوى محاولة من قبله لإبعاد منافسيه السياسيين. وكان جمال باشا بحاجة، على كل حال، إلى حجة يبرر بها سياسته هذه. وأسماء القافلة الأولى هم: عبد الكريم الخليل، وكانت له مع رجال الحكومة أوثق صلات المعاشرة والصداقة. وذيلت بتوقيعه، مع طلعت بك، الاتفاقية العربية التركية، أحرز شهرة واسعة، ومكانة مرموقة في استانبول بوصفه رئيساً للمنتدى الأدبي. وصالح حيدر، الذي كان رئيساً لبلدية بعلبك، ومسلم عابدين ونايف تللو، ومحمد المحمصاني، وهو

خريج مدرسة الحقوق بباريس، ومحرر جريدة المفيد، وأحد مؤسسي جمعيــة الفتــاة، وشقيقه محمود المحمصاني، وعبد القادر الخرسا، ومحمود العجم، وسليم عبد الهادي، ونور الدين القاضي، وعلي الأرمنازي، الذي كان يصدر جريدة العاصي في حماه[٤٢].

وكان لتنفيذ الأحكام في هؤلاء الرجال الأبطال، رجة عظيمة في بلاد الشام، فقد كــان بعضهم ينتمي إلى عائلات كبيرة. ولم تكن الحجج الأخرى التي تذرع بها جمال باشــا إلا من قبيل التماس الأعذار[٤٣]. وحكم بالإعدام أيضاً "على حافظ السعيد، نائب يافــا في مجلس المبعوثان، والشيخ سعيد الكرمي، مفتي قضاء طولكرم، ولكن خفض الحكم إلى السجن المؤبد، لتقدمهما في السن. وقد مات الأول في السجن، وأفرج عن الثــاني في نهاية الحرب، وبعد إقامته نحو أربع سنوات في قلعة دمشق سجيناً.

أما حسن حماد من نابلس- فقد نجا بأعجوبة، وذلك أنه لم يتسلم إشعار استدعائه إلى المحكمة، بسبب تأخر في الإجراءات، فلم يحضر الجلسة، بل ذهب وهو خالي البــال ليصرف أمور عمله، بوصفه رئيساً لدائرة تسجيل الأراضي في بلدتــه فحكــم عليــه بالإعدام غيابياً، وفي تلك الأثناء وصله إشعار الاستدعاء فسافر للمثول أمام المحكمــة العسكرية في عاليه، وحينما وصل إلى فندق البلدة، قرأ بالمصادفة إحدى الصحف التي نشرت الحكم عليه، فتناول حقيبة ملابسه، واستقل القطار إلى دمشق، واختفى فيــها، وأطلق لحيته، وتزوج ابنة الرجل الذي اختبأ عنده، وأنجب منها طفلين، وعاد ســالماً إلى نابلس بعد أن وضعت الحرب أوزارها[٤٤]..

وحكم في هذه القضية أيضاً على كل من رفيق العظم، وحقي العظم، ورشــيد رضــا وداود بركات، وفارس نمر، والدكتور شبلي شميل، وخليل المطران، وابراهيم النجار، وجورج عبد المسيح، وجبرائيل ناصيف، ونجيــب عــازوري، والفــرد عــازوري، وجوزج بحري، والأمير خليل أبي الدمع، وخليل بولاد، وهنري حبيب بولاد، ونجيــب البستاني، وأمين البستاني، ويوسف البستاني، وفيليب ســمان، ونجيــب قريصــاني،

وجورج دوماني، وجورج خير، ورشيد خياط، وأدمون ملحمة، والدكتور خليل مشاقة، ويوسف سمعان وصيدناوي، والياس حنين، وسليم شميل، وماريوس شميل، ويوسف حبيب زنانيري، والياس زهار، والفونس زينية، وفؤاد الخطيب، وقسطنين ينّي، وحسين حماده، وعبد الحفيظ الحسن، ورزق الله أرقش، وسليم ثابت، وعزت العابد، وشكري غانم، وعزيز علي المصري، وجميعهم من السوريين، الذين كانوا ينزلون مصر وأوروبة في تلك الأيام، باستثناء الأخير فهو من أصل مصري، وبعضهم من المتصلين باللامركزية، كما أن بينهم من كان قنصلاً بالحكومة الفرنسية، ويعمل في خدمتها.

وحكم بالإعدام غيابياً على كل من بشارة البواري، واسكندر سرسق، وادوارد كرم، وجبرائيل حداد، وسيمون أبي شنب، وأسعد باسيلا، ونجيب أيوب، والفريد ليان، وأسعد مفرج، وأنطون أرقش، ونجيب موسى دياب (أمريكة)، وسليم بولس، والأمير أمين مجيد أرسلان، وسعيد مخيبر، ورشيد تقي الدين، ويوسف صموئيل(٤٥).

بعد تنفيذ حكم الإعدام في رجال القافلة الأولى، استقر جمال باشا في دمشق، وأخذ يؤدب المآدب لكبار القوم، ويتصل بالمشايخ ويقربهم إليه، محاولاً تسكين الأفكار، والخواطر، بينما عمد إلى إقصاء من بقي في سورية من الضباط العرب، فلم يُبقِ واحد منهم بل أرسلهم جميعاً إلى ميادين القتال المختلفة(٤٦).

وكان أعضاء المحكمة العسكرية ضباطاً، يسترشدون في أعمالهم بأوامر جمال باشا نفسه، "وكانوا يكتفون في الغالب بدرس نفسية القادم وأخلاقه وأطواره، فإذا تبينوا أنه من الأذكياء، الذي يخشى جانبهم، أشاروا إلى ذلك في جانب اسمه، فيأمر الباشا بإعدامه للتخلص منه، ومعنى ذلك، أن الكفاءة وعدمها كانت القاعدة في إصدار الأحكام بالنسبة لأكثر المتهمين.

ومعظم الذين نجوا من قبضة الديوان العرفي، هم من تظاهروا بالبله، أو أنكروا

نسبتهم العربية، أو قدموا هدايا ثمينة لرجال التحقيق، فشهدوا ببلاهتهم أو جاؤوا بوسائط أخرى.

وقد اعترف المقدم شكري بك نفسه (رئيس المحكمة العسكرية)، أن الحكم في القضية الكبرى (أي الحكم على رجال القافلة الثانية)، عدل أربع مرات، بأمر جمال باشا، فكان في كل مرة يخرج أناساً من قائمة المعدمين، ويدخل غيرهم.

وأخيراً أبلغه بشكله النهائي يوم ٥ أيار ١٩١٦، فنفذ كما أمر"[٤٧].

ويذكر الجنرال علي فؤاد باشا، رئيس أركان حرب الطاغية جمال باشا، كان على جمال باشا أن يقف عند هذا الحد، وقد لمس تأثير عمله في البلاد، فقد هابه رجال الحركة الثورية، فطالب بتخويله السلطة اللازمة لمحاكمة جميع الذين وردت أسماؤهم في الأوراق التي صودرت في القنصلية الفرنسية، وهذا خطأ فادح ارتكبه، وجعل العرب يَمقتونه حتى لقبوه سفاح سورية، وهم على حق[٤٨].

ثم ألقى جمال باشا القبض على طائفة أخرى أكثر عدداً من سابقتها- بتهمة الخيانة العظمى، وكان أول من أعدموا في الخامس من نيسان ١٩١٦، يوسف الـهاني من بيروت[٤٩]، وبعد شهر تقريباً، في ٦ أيار، حكم بالإعدام كذلك على واحد وعشرين آخرين.

يقول الأمير شكيب أرسلان إن جمال باشا حين صمّم على شنق المعتقلين، استدعى شكري بك، رئيس ديوان الحرب العرفي، إلى دمشق، وسلمه أسماء (٤٠) شخصاً يجب الحكم عليهم بالإعدام, فراوده شكري بك كثيراً، ودافع كثيراً، فهدده بالقتل كما قال. ولما قال له إن وجدانه لا يرتاح إلى الحكم بالموت إلا على ثلاثة، بالأكثر على خمسة، استحضر أعضاء الديوان، وهم ضباط شبان لا يخرجون عن إرادته. وكانت النتيجة الحكم على (٢١) فقط[٥٠]. أما علي فؤاد فيذكر: أنه قال لشكري، قبل أن يدخله إلى مكتب جمال باشا، "عندما تعرض القائمة تضرع إليه لكي لا يتشدد في الأحكام،

وإذا اقتضى الأمر قل له أرجوك ياباشا فكر في التاريخ". ولما دخل شكري بك مكتب جمال باشا ناوله القائمة التي كان يحملها، فتناول جمال باشا الورقة منه دون أن يقرأ ما هو مكتوب بها. أخذ يكتب حذاء كل اسم الحكم الذي يريده هو: إعدام، إعدام، إعدام،. ولما قال له شكري بك فكر في التاريخ، صاح جمال باشا في وجهه، التاريخ؟ فليتحطم على رأسك[٥١].

سبعة منهم في دمشق، وأربعة في بيروت[٥٢]، كما وردت في بيان جمال باشا يومئذٍ[٥٣]، الذي اتهم فيه هؤلاء بأنهم اشتركوا في تأسيس جمعيات، غايتها إبعاد سورية، وفلسطين، والعراق، عن السلطنة العثمانية، وهذه أسماؤهم: شفيق أحمد المؤيد العظم، وشكري بدري العسلي، ورشدي أحمد الشمعة، وكذلك سليم محمد سعيد الجزائري، وهو ضابط في الجيش التركي، وسيف الدين أبي النصر الخطيب (من حيفا)، وكان قاضياً، والشيخ أحمد حسين طبارة (من بيروت)، وكان صاحب جريدة الاتحاد العثماني، وأحد المندوبين في المؤتمر العربي في باريس، والأمير عارف الشهابي (من حاصبيا)، وكان محامياً، وعلي النشاشيبي (من القدس)، ومحمد حسين الشنطي (من يافا)، وجرجي موسى حداد (من جبل لبنان)، وكان كاتباً، أديباً، وطنياً، والأمير عبد القادر الجزائري، وعبد الغني محمد العريسي، صاحب جريدة المفيد، وعمر مصطفى، شاعراً، وطنياً، ورفيق رزق سلوم، وتوفيق أحمد البساط، وعبد الوهاب أحمد الإنكليزي، وسعيد فاضل عقل، رئيس تحرير جريدة النصير، وباترو باولي، وأمين لطفي محمد حافظ، من أركان جمعية العهد، وجلال سليم البخاري[٥٤] وحكم على كل من سالم مصطفى المظلوم بالاعتقال في القلعة لمدة خمسة سنوات، وتوفيق محمد الناطور، ويوسف مخيبر سليمان بعشر سنين، وحسين حيدر بخمس عشرة سنة، رياض الصلح بنفي مؤبد، والأمير طاهر الجزائري بعشر سنين في القلعة[٥٥]. وتقرر براءة كل من محمد كامل الهاشم، وابراهيم القاسم، وسامي العظم، ورشدي الشوا، وعاصم بسيسو، وعزت الأعظمي، ومصطفى الكيلاني، وعبد الرحيم

حنون، والدكتور أحمد قدري، وسليم الطيارة، وجميل الحسيني، والشيخ سعيد البـاني، وسليم البخاري، وفايز الخوري، ورشيد الحشمي، وعمر الأتاسـي، وعلـي رضـا، والدكتور أمين قزما، وسعيد عدوه، والدكتور عبد الحفيظ، ومحمـد جميـل الألشـي، وفريد باشا اليافي، وعثمان العظم[٥٦]. وقد حكمت المحكمة على أشـخاص آخريـن بالسجن مدداً متفاوتة. ومع أن جمال باشا أعلن حل المحكمة العسكرية بعد تنفيذ أحكام الإعدام، إلا أنه لم يلبث أن اعتقل في شهر حزيران أمير اللواء شكري الأيوبي، وكان موظفاً مدنياً، وشكري القوتلي (رئيس جمهورية سورية فيما بعد)، وفارس الخـوري (نائب دمشق يومذاك ورئيس وزراء سورية فيما بعد)، وأمير اللـواء عبـد الحميـد القلطجي، وأشخاصاً آخرين، بتهمة التآمر بإشعال ثورة عربية. وأُحيلوا إلى محكمـة عسكرية، فحكمت ببرائتهم. وعندما حمل إليه رئيس المحكمة القرار لتصديقه، قال له: اخرج من هنا، فأنا أريد حكماً بالعقوبة، لا بالبراءة.

وجرت المحاكمة مجدداً، فحكم بالإعدام على شكري الأيوبي، واثنين آخريـن ولكـن الحكومة المركزية في العاصمة، كانت قد أدركت نتيجة اندلاع الثورة العربية- مـا ارتكبه جمال باشا من فظائع وظلم فحّدت من سلطانه، وقـررت أن ترسـل جميـع قرارات الأحكام في القضايا السياسية إلى ديوان التمييز العسكري وعندمـا عرضـت أوراق الحكم على هذا الديوان قرّر نقضها، ورغم ذلك أصر جمال باشـا أن يبقـى أولئك الأشخاص رهن الاعتقال، فظلوا في السجن إلى ما بعد مغادرته سورية[٥٧].

وقرن جمال باشا هذه الأحكام الإجرامية، من أحكام الإعدام، والنفي والسجن، بأحكـام النفي والإبعاد شملت (٣٠٠) أسرة من أسر سـورية الطبيعيـة (سـورية وفلسـطين والأردن ولبنان)، قبض على أعضائها، نساءً، ورجالاً، وأطفالاً، في شـهري آذار ، ونيسان ١٩١٦، وأرسلوا إلى الأناضول.

ذكر أحد أعضاء الجمعيات السرية أن ابنة المرحوم رشدي بك الشمعة كانت مصابـة بالحمى المعوية قبل صدور الحكم على والدها، فأمر جمال باشا بإبعادها مع بقية أفراد

العائلة بنحو أسبوع، ولكن الطبيب استرحم، وأظهر ما في هذا الأمر من الخطر على حياتها. إلا أن أحمد جمال باشا أصر على رأيه، وأصدر الأمر بنفي أسرة رشدي بك الشمعة، مهما كان مرض كريمته خطيراً, فحملت على ظهور الرجال، وسيقت هي ووالدتها، وأخوتها إلى محطة البرامكة، ومنها إلى محطة رياق، حيث أطل أخوها الصغير من الشباك عرضاً، فرأى أباه في قطار بيروت، آتياً من عاليه ليشنق في دمشق، ومدت مريضتنا رأسها من الشباك لتتحقق من هذا الحلم بنفسها، فرأت والدها يبتسم في وجه ولده، فصاحت من شدة الانفعال، وأرادت أن تخاطبه، وتودعه الوداع الأخير، وتطلب رضاه، ولكن الجندرمة، الموكول إليهم حماية (المؤمنين) في هذا الجهاد المقدس، لكموها على وجهها، فسقطت على المقعد أمام عيني أبيها، الذي بقي مبتسماً ابتسامة الاحتقار. وما أمسى المساء، حتى فارقت الحياة قبل وصولها إلى حماة [٥٨]. حدث هذا قبل صدور الأحكام، بعدما صودرت أملاكهم، وأموالهم، فوزعوا في مدنه وقراه، فمنهم من أرسل إلى ولاية قونية، ومنهم من أرسل إلى أنقرة، وغيرهم إلى ديار بكر، وبورسة وأضنة، وسيواس، وقسطموني، حتى لم تبقَ مدينة من مدن الأناضول إلا ونزلتها عائلة، أو أكثر، من العائلات السورية.

والغاية من هذا التدبير وهم لم يقصوا سوى الأسر الغنية والكبيرة الممتازة- إضعاف العصبية العربية في بلاد الشام، باقتطاع هذه العناصر القوية، فتترك وتفقد وتندمج في الطورانية[٥٩]. وكان من هوسهم، وتعجلهم في تنفيذ خطة التتريك ومحو كل أثر، وكل صبغة عربية من البلاد، ما يضحك ويبكي في آن واحد. فمما يضحك أنهم عجلوا بصبغ البلاد بالصبغة التركية، فأول ما صنعوه هو أنه بينما كانت المشانق تنصب في دمشق، وبيروت، كان أعوانهم يحطمون اللوحات التي توضع على المخازن، والدكاكين لأنها مكتوبة باللغة العربية، حتى بلغ بهم الهوس أن أمروا الأطباء بتغيير لوحاتهم، لتغيير حرف واحد هو الفارق بين التركية والعربية، وهو حرف الكاف في كلمة دكتور، واستبداله بحرف القاف، ليكون هكذا "دقتور". وأما المبكي هو أنهم هدموا

قبر المرحوم عبد القادر الجزائري، واستخرجوا رفاته فذروها في الهواء، لأنه أمير عربي شهير، كسب شهرته في سبيل الدفاع عن وطنه خمسة عشرة سنة، وصار اسمه محترماً، ومسجلاً، حتى عند الذين حاربهم)(٦٠). ورافق هذه الأعمال الوحشية، سياسة التجويع. وقد قدر عدد الذين ماتوا جوعاً في لبنان بخمسة وثمانين ألفاً، في خلال ثلاثة أشهر(٦١).

بروتوكول دمشق، وتزعم العرب السوريين لحركة الثورة العربية:

كان لهذه السياسة العنصرية الحاقدة، التي اتبعها الاتحاديون الأتراك، حيال العرب إفادة للقضية العربية. فقد أسبغت على الشهداء حلل البطولات، وسحر الأساطير، وباعدت بين العرب والترك، ودفعت أخيراً العرب إلى القيام بالثورة العربية الكبرى.

كان لهذه الإجراءات القمعية، والإرهابية، وما رافقها من هدر للدماء، وزهق للأرواح، والاستهتار بالإرادة العربية، كان لها أثرها الكبير في ابتعاد العرب عن القضية التركية، وكما يذكر الجنرال الألماني فون ساندرز أن تأثير حكم جمال باشا الإرهابي لم يحرم سورية من زعامة الثورة، بل زاد في الشعب روح الثورة(٦٢).

فقال الأمير فيصل بن الحسين، في إحدى خطبه في دمشق، بهذا الصدد: أما السوريون فإنهم المسؤولون عن الحركة الثورية العربية، لأنهم قد شوقوا الحجازيين لهذه الحركة. وإن ضغط الأتراك عليهم، وما أتوه من الأفعال التي سيسطرها التاريخ، ويخلد ذكر من قتل، ومن استشهد في تلك الأثناء من السوريين بأحرف ذهبية(٦٣).

وإذا كانت الأحداث قد رشحت سورية لتكون نقطة ارتكاز للقضية العربية في عصرنا الحديث، فإنه كان لا بد لتحقيق هذه الثورة من البحث عن زعيم يتولى قيادتها، وعن مصدر خارجي للمساعدة، نظراً لافتقار البلاد إلى الإمكانيات اللازمة للثورة، وصعوبة انطلاق الثورة العربية من الشام، بسبب احتشاد القوات العثمانية فيها(٦٤).

وفي ٢٦ آذار ١٩١٥، وصل فيصل دمشق، في طريقه إلى الاستانة، ومكث فيها أربعة أسابيع. وقد استقبله جمال باشا بمظاهر الترحيب، ودعاه إلى الإقامة في مقر القيادة العامة، ولكن فيصل اعتذر عن ذلك، لأنه كان قد وعد آل البكري[٦٥] بأن يكون ضيفهم. وفي أثناء هذه المدة التي قضاها فيصل في دمشق استطاع أن يطلع على أسرار الحركة العربية القومية، وأن يلتقي بالأعضاء البارزين في الجمعية العربية الفتاة، وقد جرى تبادل وجهات النظر في حذر وحرص شديدين. وقد شرح هؤلاء له الأسباب التي دفعتهم للمضي في طريقهم. وكانت اللجنة العليا للجمعية العربية الفتاة، التي عقدت قبل مجيء فيصل ببضعة شهور، على القرار التالي "نتيجة لإشراك تركية في الحرب، أصبح مصير الولايات العربية في الدولة العثمانية معرضاً لمخاطر شديدة، ويجب بذل جميع الجهود لضمان حريتها، واستقلالها، كما تقرر أنه إذا تحقق أن للدول الأوروبية مطامع في هذه البلاد، فإن الجمعية ملزمة بأن تعمل إلى جانب تركية لكي تقاوم التدخل الأجنبي، مهما تكن صورته[٦٦].

وأخيراً تمت الموافقة أن يتولى الشريف حسين زعامتهم، وقيادة الثورة، رغم أن مجتمع الجزيرة كان أقل المجتمعات العربية ثقافة ووعياً "قومياً"[٦٧]، ويرى سليمان موسى أن اتجاه القوميين العرب إلى الشريف كان الأمر الطبيعي في تلك الظروف. لقد كان الشريف أقوى الزعماء العرب، وكان أكثرهم صلة بالحركة العربية خاصة، لوجود ابنيه عبد الله وفيصل عضوان في مجلس المبعوثان. وكانت المواصلات بين دمشق والحجاز أسهل منها بين دمشق وأية عاصمة عربية أخرى. وكانت أنباء الخلاف الذي نشب بين الشريف والاتحاديين تجعل مسألة تعاونه مع القوميين أمراً متوقعاً. أضف إلى كل هذا طموح الشريف، الذي لم يكن خافياً على الأتراك والعرب، ومكانته الدينية العظيمة، التي تجعل لقيادته وزناً مهماً على نطاق دولي[٦٨].

ولكنهم وضعوا مخططاً، يتضمن المطالب التي أرادوا أن تكون أساساً لمفاوضات الشريف حسين مع بريطانية. وقد عرف هذا المخطط باسم (برتوكول دمشق)،

وأرفقت به خريطة تبين حدود البلاد العربية في آسية، والتي كانوا يرون ضرورة حصولها على الاستقلال[٦٩]، ويتلخص بروتوكول دمشق بما يلي:

١- اعتراف بريطانية العظمى باستقلال البلاد العربية، ضمن الحدود التالية:

شمالاً: بخط مرسين أضنة إلى ما يوازي خط العرض ٣٧ شمالاً، ثم على امتداد خط بيرجك، أورفة، ماردين، مديات، جزيرة ابن عمر، العمادية إلى حدود إيران شرقاً.

وشرقاً: على امتداد حدود إيران إلى خليج العرب جنوباً.

وجنوباً: المحيط الهندي (ما عدا عدن، التي تحافظ على وضعها الحالي كما هو).

وغرباً: على امتداد البحر الأحمر، ثم البحر الأبيض المتوسط إلى مرسين.

٢- إلغاء جميع الامتيازات الأجنبية التي عقدتها الدول الأوروبية مع السلطات العثمانية طوال عهد الاحتلال.

٣- عقد معاهدة دفاعية بين بريطانية العظمى وهذه الدول العربية المستقلة.

٤- منح بريطانية الأفضلية في الشؤون الاقتصادية[٧٠].

ولهذا الميثاق أهمية كبيرة، لأنه أول قرار تتخذه جماعة مسؤولة من العرب بإنشاء دولة عربية، مستقلة، متحدة، تستعين على توطيد كيانها لعقد معاهدة دفاعية مع بريطانية، ولقد منح هذا الميثاق بريطانية العظمى كل ما كانت تطمح إليه لضمان مصالحها، وتأمين طرق مواصلاتها مع الشرق[٧١].

ويوم تنفيذ حكم الإعدام برجال القافلة الثانية، كان الأمير فيصل مقيماً مع آل البكري في مزرعتهم بالقابون، والتي تبعد عن دمشق حوالي خمسة كيلومترات، وبينما كان

يتناول الفطور مع ضيفه في الحديقة، جاءهم رسول وأبلغهم النبأ، وقدم إليهم العدد الخاص من جريدة "الشرق"، التي تتضمن القصة المقيتة. قرأ أحدهم الفاتحة على أرواح الشهداء، ثم قفز الأمير فيصل واقفاً، وانتزع الكوفية من على رأسه، وقذف بها على الأرض، وداسها بعنف وصاح: (طاب الموت يا عرب)(٧٢).

وعاد الأمير فيصل إلى الحجاز، بعد أيام قليلة من حوادث الشنق،(٧٣) وزادت نقمة العرب لهذه المجازر. وهاهي الفرصة المناسبة قربت الحوادث، وشقت الظلمة عن الأمل اللامع، إن الحرب العامة، وشدائدها، مع مظالم الاتحاديين الأتراك، كانت كالزوبعة، كشفت عن دفين الذهب، وكانت من حيث جرحت العرب في الصميم، كمبضع الجراح يفقأ الدمل لشفاء العاني(٧٤).

أمام هذه الظواهر الخطيرة، أخذ مفكرو العرب يشعرون أنه لا يسوغ لهم أن يتكلموا عن الحكومة العثمانية في أمر الدفاع عن بلادهم، لا يجوز لهم أن يتركوها تنفرد في تقرير مصيرهم، لكي لا يحدث لسورية ولبنان ما كان قد حدث لطرابلس الغرب قبل مدة قصيرة من الزمن.

وقد رأوا لذلك أنه لا بد من إيجاد تشكيلات إدارية، وعسكرية، تكسب البلاد مناعة ذاتية، وقابلية دفاعية، تحد من أطماع الدول الغربية، والتخلص من حكم الدولة العثمانية.

والقضية التي كانت قائمة حينذاك، هي القضية العربية بوجه عام، لا القضية السورية، أو العراقية، أو الأردنية، أو الحجازية، بوجه خاص. فلو قلبنا صفائح تاريخ القضية، آنذاك لوجدناها قضية عامة، ولوجدنا أن النادي الذي تأسس في الاستانة بعد إعلان الدستور- لجمع شمل العرب، كان يحمل اسم "النادي العربي". ورئيس النادي المذكور الشهيد عبد الكريم قاسم الخليل- عندما فاوض رجال الحكم في عاصمة السلطنة، بعد حرب البلقان، وبعد مؤتمر باريس، فاوضهم بوصفه ممثلاً للشبيبة العربية، لا بوصفه ممثلاً للشعب العربي، أو اللبناني، أو العراقي.

ومن خلال قراءة الاتفاقية، التي انتهت إليها المفاوضات المذكورة، نجد في عنوانها إشارة صريحة، على أنها عقدت بين ممثل الشبيبة العربية، وبين ممثل الحزب الحاكم في الدولة العثمانية، حتى ولو استعرضنا موادها الاثنتي عشرة(٧٥)، لا نجد فيها أي ذكر لسورية، أو العراق، أو لبنان، بل نجد فيها على الدوام أحكاماً تتعلق بالعرب، وبحقوق العرب وباللغة العربية بوجه عام.

وأخذ يوم إعلان الثورة العربية يقترب بسرعة(٧٦). هذه الثورة التي قال عنها جمال باشا السفاح في مذكراته إن أحكام الإعدام التي نفذها في أيار ١٩١٦، هي التي حالت دون نشوب ثورة ما في سورية خلال العامين ونصف العام، الذين أعقبا إعلان الشريف حسين الثورة(٧٧). وفي صباح يوم السبت التاسع من شعبان ١٣٤٤هـ/العاشر من حزيران ١٩١٦ الساعة الثالثة والنصف، أطلقت الرصاصة الأولى في مكة المكرمة، وبدأت الثورة على العثمانيين(٧٨).

واستطاعت القوات العربية أن تستولي في أقل من ثلاثة أشهر على مدن الحجاز، باستثناء المدينة المنورة، التي بقيت محاصرة حتى آخر الحرب، وبويع الحسين بن علي ملكاً على العرب في كانون الأول ١٩١٦، وتقدم الجيش العربي، بقيادة فيصل بن الحسين من أرض الحجاز، فنسف سكة الحجاز بين معان العقبة، ثم تقدم شمالاً نحو شرق الأردن، ثم والت القوات العربية زحفها إلى دمشق واحتلتها، واندحر العثمانيون متراجعين إلى بلاد الأناضول، ولم يمضِ شهر حتى تحررت سورية كلها من النفوذ العثماني(٧٩)، لتدخل في طور جديد، ونضال جديد ضد الاستعمار الأوروبي.

المصادر والمراجع والحواشي

١- أبو القاسم الزياني: **الترجمانة الكبرى في أخبار المعمورة براً بحراً**، ص٣٦١-٣٦٢.

٢- انفردت تونس بوضع أول وثيقة حقوق إنسان في العالم الثالث "**عهد الأمان**" ووضع أول دستور في العالم الثالث ١٨٦٠م.

٣- انظر، د. توفيق برو، **العرب والترك في العهد الدستوري العثماني** ١٩٠٨-١٩١٤، ص٣٣-٣٧.

٤- انظر، د. عبد الكريم رافق، **العرب والعثمانيون** ١٥١٦-١٩١٦، ص٥١٣-٥٢٢.

٥- **المنتدى الأدبي والإخاء العربي العثماني وحزب اللامركزية والجمعية القحطانية وجمعية العهد وجمعية الفتاة.**

٦- رغم أن العرب كانوا أكثر عدداً من الأتراك. إذا كان عددهم عشرة ملايين ونصف مقابل سبعة ملايين تركي. رغم هذا فإن عدد ممثليهم كان أقل من نصف عدد نواب الأتراك (٦٠ نائب عربي مقابل ١٥٠ نائب تركي. وفي مجلس الشيوخ ثلاثة عرب من أربعين مقعداً. انظر، د. عبد الكريم رافق، **المصدر السابق**، ص٥٢٥.

٦- (مكرر)فكرة الجمعية القحطانية بمثل هذا. ذكر هذا كثيرون (أنطونيوس ود. حسن صعب ود. عبد الكريم رافق وغيرهم وشكك توفيق برو بهذا مستنداً إلى مقابلة مع عزيز علي المصري أحد أبرز الضباط العرب آنذاك الذي لعب دوراً متميزاً في تأسيس جمعيتي القحطانية والعهد)، انظر، د. توفيق برو، **المصدر السابق**، ص٢٦٨-٢٧٠.

٧- خيرية قاسمية: **الحكومة العربية في دمشق**، دار المعارف بمصر ١٩٧١، ص ٢٢-٢٣.

٨- أحمد جمال باشا، قائد عسكري وسياسي (١٨٧٣-١٩٢٢) انتسب إلى جمعية الاتحاد والترقي مع أنور باشا وطلعت باشا وأصبح من زعمائها، عين وزيراً للأشغال العامة عام ١٩١٣، ثم قائداً للبحرية العثمانية عام ١٩١٤، ثم عين قائداً للجيش الرابع في سورية، من أواخر عام (١٩١٤-١٩١٧) وتزوج من إحدى البنات الأرمنيات المدعوة (روز). سمي بالسفاح لشدة سفكه الدماء العربية. أرسل بعد الحرب العالمية الأولى إلى أفغانستان على رأس بعثة عسكرية واغتيل في طريقه إلى تركية في تفليس عام ١٩٢٢.، مصطفى طلاس: **الثورة العربية الكبرى**، دمشق، الطبعة الثانية، ١٩٧٩، ص١٧٢.

٩- سليمان موسى: **المصدر السابق**، ص ١٠٠-١٠١.

١٠- لم يكن الفريق زكي باشا الفاروقي من الرجال الحزبيين، بل كان قائداً عسكرياً شريفاً حيادياً كثير التقرب من العرب، يرجع إليه معظم الفضل في إطلاق حرية العمل والنشاط الحزبي لرجال الجمعيات والأحزاب العرب خلال وجوده قائداً للجيش الرابع في سورية. انظر، أحمد قدري، **مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى**، مطابع ابن زيدون بدمشق، ١٩٥٦، ص٣٨، وعزيز بك: **سورية ولبنان في الحرب العالمية** تعريب فؤاد الميداني، ص٣٨، وانظر، يوسف الحكيم: **بيروت ولبنان في عهد آل عثمان**، الطبعة الثانية، دار النهار، بيروت ١٩٨٠، ص١٥٤-١٥٦.

١١- أحمد قدري، **المصدر السابق**، ص ٣٨، وسليمان موسى، **المصدر السابق**، ص ١٠١، ويوسف الحكيم، **المصدر السابق**، ص ١٥٨-١٥٩.

١٢- سليمان موسى، **المصدر السابق**، ص ١٠١.

١٣- عزيز بك، **سورية ولبنان في الحرب العالمية**، ص٣٨.

١٤- جورج حداد وبسام كرد علي، **تاريخ العصور الحديثة**، مكتبة العلوم والأدب، دمشق ١٩٥٣، ص٢٧٧.

١٥- محمد عزه دروزة، **نشأة الحركة العربية الحديثة**، دمشق ١٩٧١، ص ٣٤٦، ومحمد طاهر العمري، **تاريخ مقدرات العراق السياسية**، الموصل ١٩٢٤، الجزء الأول، ص ١٨٩.

١٦- أحمد قدري، **المصدر السابق**، ص٣٩.

١٧- مذكرات جمال باشا السفاح، **تعريب علي أحمد شكري**، بغداد ١٩٦٣، ص ٢٤٦، وسليمان، **المصدر السابق**، ص ١٠٢.

١٨- رفعت العسلي، **كفاح سورية والنضال السياسي في بلاد الشام**، مطبعة ابن زيدون بدمشق ١٩٣٧، الجزء الأول، ص٣١، وسليمان موسى، **نفس المصدر** والصفحة ذاتها.

١٩- أحمد قدري، **المصدر السابق** والصفحة ذاتها.

٢٠- كان أعضاء اللامركزية والفتاة يتبادلون الرسائل بين مصر وسورية بواسطة البريد الفرنسي. فقد كان من جملة امتيازات فرنسة أن تفتح مكاتب بريد مستقلة لها في موانئ الدولة العثمانية مثل بيروت ويافا والاسكندرية. وكان العرب يستغلون هذه المكاتب البريدية للإفلات من رقابة السلطات العثمانية، انظر، أحمد قدري، **المصدر السابق** ، ص٣٠، سليمان موسى، **المصدر السابق**، ص١٠٩.

٢١- خيرية قاسمية، **المصدر السابق**، ص٣٣، وسليمان موسى، **المصدر السابق** والصفحة ذاتها.

٢٢- جورج انطونيوس، **يقظة العرب**، ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، بيروت ١٩٦٦، ص٢٣٥.

٢٣- مذكرات جمال باشا، **تعريب علي أحمد شكري**، ص١٦٣.

٢٤- إن ما تتابع من حوادث سوف يبرهن على أن هذه الثقة لم تكن تكتيكية الإنتاج وكان الهدف منها استمالة العرب المسلمين لتجنيدهم في الحملة العسكرية على القناة وهناك فرضية أخرى قد تفسر مثل هذا السلوك إذ من الممكن أن يكون جمال باشا قد راوده سراً مشروع إقامة سلطنة مستقلة تحت حكمه على أن هذه الفرضية ليست أكيدة.

- **وجيه كوثراني، الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي** ١٨٦٠-١٩٢٠، بيروت، ص٢٦٤، وساطع الحصري، **يوم ميسلون**، دار النهار، بيروت (بدون تاريخ)، ص ٤٤١-٤٤٢.

٢٥- مذكرات جمال باشا، **تعريب علي أحمد شكري**، ص٢١٧-٢١٨.

٢٦- سليمان موسى، **المصدر السابق**، ص٢٣٦.

٢٧- جورج انطونيوس، **المصدر السابق**، ص٢٣٦.

٢٨- عزيز بك، **سورية ولبنان في الحرب العالمية**، ص١٢٨.

٢٩- أنشأ جمال باشا ديوان حرب عرفي في عالية على أثر وصوله إلى سورية سنة ١٩١٤ لمحاكمة المتهمين بالقضايا السياسية وغير ذلك. وقد كان الديوان العرفي يتألف من هيئتين: هيئة تحقيق يرأسها ضابط اسمه صلاح الدين وهيئة قضاة يرأسها قائمقام اسمه شكري بك. ولا توجد هناك جلسات علنية ولا مرافعات ولا دفاع وإنما كانت هيئة القضاة تسترشد في جميع أعمالها بأوامر جمال باشا، انظر، يوسف الحكيم، **بيروت ولبنان في عهد آل عثمان**، ص ١٦٥-١٦٧، سليمان موسى، **المصدر السابق**، ص١٠٨.

٣٠- كان الديوان العرفي يتفنن في التعذيب والضرب. فكانوا يخزون الشبان بالإبر ولا يدعونهم ينامون ثلاث ليال متتابعة ليضطروهم إلى الاعتراف والإفادة بما يوافق عليه رجال الديوان العرفي. كانوا يضعون آلة ضاغطة على صدغي

المعتقل يضغطون بها على رأسه فيشعر أن دماغه برز من عينيه.
"فائز غصين، **مذكراتي عن الثورة العربية**، مطبعة الترقي بدمشق ١٩٥٦، ص٤٩".

٣١- بدأت المظالم تجري في سورية بأسماء مختلفة: منها ما جرى باسم إعانة الجيش، وقد فرضت الحكومة إعانات متنوعة أوجبتها بالقوة ومن رفع صوته كان جزاؤه السجن أو النفي. ومن هذه الإعانات إعانة النقود والحبوب من حنطة وشعير وذرة وعدس وكرسنة وجلبان وحمص وزبيب ودبس وزيت وسمن وغنم وجمال وخيل وبغال وبقر حتى أنهم أخذوا الدخان والتبن والحطب والبسط والسجاد والصوف والجلود باسم إعانة لجان تعين من الأعوان كضريبة بالقوة والإهانة، وتؤخذ من الغني والوسط والفقير. وقد طرحت هذه الضريبة بعد الحرب ويختلف مقدارها باختلاف الأموال والأملاك المطروحة، فضمت ٥٠% على الأملاك و٢٥% على ضرائب الأراضي وفرضت على كل شخص ربع ما عنده من غنم وحبوب وبقر وجمال وسمن وجبنة، وكانوا يستخدمون نساء القرى لتوصيل الحبوب وأشغال أخرى باسم تكاليف حربية، فائز غصين، **المصدر السابق**، ص٤٣-٤٥.

٣٢- شمل ظلم الأتراك وجمال باشا حتى العائلات بالنفي والأبعاد إلى الأناضول. وكانت الغاية من ذلك إضعاف الحركة الوطنية، وقد شمل النفي كثيراً من العائلات السورية المشهورة ممثل المؤيد والعظم والأمير عبد القادر الجزائري والكيلاني والشمعة وعبد الهادي والحسيني والمطران وحيدر والعابد وعائلات كثيرة أخرى شملت حوالي ٣٠٠ أسرة من أسر سورية الطبيعية، فائز الغصين، ص٥٠، وأحمد قدري، **المصدر السابق**، ص٥٤، ومصطفى الشهابي، **محاضرات في الاستعمار**، ص ٥١-٥٢، وسليمان موسى، **المصدر السابق**، ص ١١٨.

٣٣- خيرية قاسمية، **الحكومة العربية في دمشق**، ص ٢٤,

٣٤- جورج انطونيوس، **يقظة العرب**، ص٣٤٥.

٣٥- زاهية قدورة، **تاريخ العرب الحديث**، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٥، ص ٢٤٩.

٣٦- لقد كان العميل فيليب زلزل الخازن ترجمان القنصل الفرنسي جورج بيكو في بيروت سبباً لكشف عدد من هذه الوثائق. وكان المذكور من بلدة بكفيا وقد نفي إلى دمشق بعد دخول الدولة العثمانية الحرب أسوة بقناصل الدول المعادية وتراجمهم. وخشي أن ينقل إلى الأناضول كما نقل غيره. وقد تقدم من جمال باشا وقدم خدماته له ومن ذلك أنه قدم له مضبطة موقعة من أربعين شخصاً من السوريين واللبنانيين أمثال: شفيق المؤيد العظم، وميشيل تويني، ويوسف الهاني، والأخوين فيليب وفريد الخازن، والشيخ أحمد طيارة، ونخلة مطران، يوسف الحكيم، **المصدر السابق**، ص٢٣٣-٢٣٤.

٣٧- مذكرات جمال باشا، ص٢٣٣، **الإيضاحات السياسية لجمال باشا**، الأستانة ١٣٣٤هـ، ص ٥ وما بعدها.

٣٨- سليمان موسى، **الحركة العربية**، ص ١١٠.

٣٩- راجع ما جاء عن الشيخ أسعد الشقيري بصدد **اعتقال فارس الخوري في**: حنا خباز وجورج حداد، **فارس خوري، حياته وعصره**، بيروت ١٩٥٢، ص٢٩-٣٠، وعزيز بك، **المصدر السابق**، ص١١١.

٤٠- سليمان موسى، **الحركة العربية**، ص ١١١.

٤١- محمد جابر صفا، **تاريخ جبل عامل**، بيروت، ١١١-٢١٢.

٤٢- سليمان موسى، **الحركة العربية**، ص ١٠٨، **ومذكرات جمال باشا**، ص ٢٣٣، **والإيضاحات السياسية لجمال باشا**، ص٥٥.

٤٣- أمين سعيد، **الثورة العربية الكبرى**، القاهرة (بدون تـــاريخ)، الجـزء الأول، ص٦٢-٨٣.

٤٤- روى أكرم زعيتر **قصة حسن حماد** في خمسة أعداد مـــن جريـدة (الحيـاة) البيروتية، حزيران ١٩٦٣، كما نقلها سليمان موسى فـي **المصـدر السـابق**، ص١٠٨.

٤٥- أمين سعيد، **المصدر السابق**، الجزء الأول، ص٦٢-٦٣.

٤٦- سليمان موسى في **المصدر السابق**، ص١١٢.

٤٧- سليمان موسى في **المصدر السابق**، ص١١٤.

٤٨- أمين سعيد، **الثورة العربية الكبرى**، الجزء الأول، ص ٧٥-٧٧.

٤٩- يوسف الحكيم، **بيروت ولبنان في عهد آل عثمان**، ص ٢٣٦-٢٣٨.

٥٠- سليمان موسى في **المصدر السابق**، ص١١٤.

٥١- سليمان موسى في **المصدر السابق**، ص١١٥.

٥٢- ساطع الحصري، **مجلة العربي**، العدد/٣٠/ أيار ١٩٦١، (نقلاً عن مذكـــرات الجنرال علي فؤاد المطبوعة باللغة التركية١٩٥٤) وسليمان موسى **المصـــدر السابق**، ص١١٦.

٥٣- أصدر جمال باشا كتاباً بعد إعدام هؤلاء سماه (**إيضاحات**) ومـــن البديـــهي أن إيضاحات جمال هذه بما احتوته من صـــور فوتوغرافيـــة عـــن الاعترافـــات والوثائق المنوه عنها لم تكن كافية لتبرير موقفه.

انظر، سليمان موسى في **المصدر السابق**، ص ١١٩-١٢١، ويوســف الحكيــم، **بيروت ولبنان في عهد آل عثمان**، ص ٢٤١-٢٤٢.

٥٤- **مذكرات جمال باشا**، ص٢٦٧.

وانظر: **George Haddad Fifty years of Modern Syria and Lebanon** (Beirut 1950, P48-57).

٥٥- انظر نص البلاغ الذي أصدره جمال باشا في ختام **قضية عالية** في أمين سعيد، **المصدر السابق**، ص ٧١-٧٣، وانظر محمد طاهر العمري، **المصدر السابق**، ص١١٩.

٥٦- أمين سعيد، **المصدر السابق**، ص٧٢، ومحمد طاهر العمري، ص١٩٢.

٥٧- سليمان موسى في **المصدر السابق**، ص١٠٨-١١٩.

٥٨- **ثورة العرب ضد الأتراك بقلم أحد أعضاء الجمعيات السرية العربية**، ص ٢٥٤-٢٥٥.

٥٩- أمين سعيد، **نفس المصدر**، ص٧٣-٧٤، وسليمان موسى، **المصدر السابق**، ص ١١٨.

٦٠- **ثورة العرب ضد الأتراك بقلم أحد أعضاء الجمعيات السرية العربية**، ص ٢٤٨.

٦١- **ثورة العرب ضد الأتراك**، ص ٢٨٥.

٦٢- خيرية قاسمية، **المصدر السابق**، ص ٢٤، وانظر: Zeine N: **Arab-Turkish Relations And THE Emergence of Arab Nationalism** .Beirut 1958, P.129-130

٦٣- أحمد قدري، **مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى**، ص ١١٠-١١١.

٦٤- خيرية قاسمية، **المصدر السابق**، ص ٢٤.

٦٥- تعود العلاقات بين الأشراف وآل البكري إلى سنة ١٩٠٩ عندما جاء عدد من الأشراف ومن جملتهم الشريف ناصر شقيق الحسين والأمير عبد الله، لتأمين سفر الحاج الشامي إلى دمشق وحلا في ضيافة عطا باشا البكري. وكان من

أثر هذه الصداقة أن الشريف حسين استصدر إرادة من السلطان تجيز لشبان آل البكري أن يؤدوا الخدمة العسكرية في مكة حينما يدعون إليها.

وقوى من هذه الصداقة الانخراط في العمل الثوري ضد الأتراك وانضمام الأمير فيصل إلى جمعية الفتاة العربية، انظر، سليمان موسى، **المصدر السابق**، ص ١٢٧-١٣٩.

٦٦- جورج انطونيوس، **يقظة العرب**، ص ٢٣٦-٢٣٧.

٦٧- خيرية قاسمية، **المصدر السابق**، ص ٢٤.

٦٨- سليمان موسى، **المصدر السابق**، ص ١٢٨.

٦٩- وجيه كوثراني، **الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي**، ص ٢٧١-٢٨٥.

وجورج انطونيوس، **المصدر السابق**، ص٢٤٢-٢٤٣، وسليمان موسى، **المصدر السابق**، ص ١٢٧-١٢٩، ورجب حراز، **الشرق العربي في التاريخ الحديث والمعاصر**، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٦٧، ص٢٦٢، ونجلا عز الدين، **المصدر السابق**، ص١٣٥-١٣٦.

٧٠- عبد الكريم غرايبة، **مقدمة تاريخ العرب الحديث ١٥٠٠-١٩١٨**، ص٣٣٤، وجورج انطونيوس، **يقظة العرب**، ص٢٤٣، وسليمان موسى، **الحركة العربية**، ص١٣١، ومصطفى طلاس، **الثورة العربية الكبرى**، ص١٨١.

٧١- الجنرال كلوب، **بريطانية والعرب**، لندن ١٩٥٩، ص ٦٠، وسليمان موسى، **المصدر السابق**، ص٣١.

٧٢- مصطفى طلاس، **المصدر السابق**، ص ٢٨٩-٢٩٠، وفائز الغصين، **المصدر السابق**، ص ٢٠٨.

٧٣- **مذكرات جمال باشا**، ص٣٨٩، وسليمان موسى، **المصدر السابق**، ٢٦٦-٢٦٨.

٧٤- رفعت العسلي، **كفاح سورية والنضال السياسي في بلاد الشام**، ص٣٣.

٧٥- انظر نص الاتفاقية كاملاً (التي عرفت باتفاقية باريس) في توفيق برو، **العرب والترك في العهد العثماني**، ص ٥٢٠-٥٢١.

٧٦- أمين سعيد، **المصدر السابق**، الجزء الثاني، ص٢٦-٢٧.

٧٧- سليمان موسى، **الحركة العربية**، ص١٢١ **ومذكرات جمال باشا**، ص ٣٨٢-٣٨٣.

٧٨- نور الدين حاطوم، **المصدر السابق**، ص٢١-٢٢، وحسين فوزي النجار، **الشرق العربي بين حربين**، القاهرة، ص ٢٥.

٧٩- عبد الكريم غرايبة، **المصدر السابق**، ص ٣٤٥، ونور الدين حاطوم، **المصدر السابق**، ص ٢٢.